وليد فكري

دم الخلفاء

النهايات الدامية لخلفاء المسلمين

الطبعة 3

الرواق للنشر والتوزيع



النهايات الدامية لخلفاء المسلمين

وليد فكري

إهداء

إلى كل من يرى عقله أكرم عنده من أن يقال له «هكذا قال السابقون فلا تسأل!» فيوافق.

وإلى كل قارئ لن يتوقف عند هذا الكتاب، وسيدفعه فضوله للبحث في المَراجع المذكورة في آخره، ليكَوِّن بنفسه قناعاته حتى وإن اختلفت مع تلك التي لكاتب هذه الصفحات.

وليد فكري

مُبتَدأ

المدينة (يثرب سابقًا) - يونيو ٦٣٢م

صب الماء على الجسد المُسجى دون أن يُنزَع عنه ثوبه إكرامًا للراحل العظيم أن تبدو بعض عورته. شرد هنيهة فمد رفيقه يده يتناول منه الإناء قائلاً: «حَسبك يا عليّ!»

رفع عينيه إلى محدثه الذي تلفت جانبًا حذر كسر جلال الموقف، ثم جذبه من يده ليجلسه إلى جواره. بقي ينظر لابن أخيه في صمت ثم مد يده إليه بالمصافحة.

رفع عليّ نظرة تساؤل إلى عمه العباس الذي قال بصوت متهدج ونبرة حال الحزن دون خروجها صارمة كما أراد «امدد يدك أبايعك. فيقال عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ولا يختلف عليك أحد».

- «أوتذهب إلى غيري؟» سأل علي دون أن يحرك ساكنًا. والعم الذي يعرف عناد ابن أخيه أعاد يده إلى جواره وقام يستكمل تجهيز الجثمان الجليل قائلاً «سترى».

* * *

بلغوا سقيفة بني ساعدة هرولة فتوقف الرجال الثلاثة لاستجماع أنفاسهم. نظر أطولهم قامة لأكبرهم سنًا والذي لم تنقص ضآلة بنيته من وقاره ولا حجب شحوب وجهه صرامته. لمح في عيني صاحبه لمعة دموع تحاول كسر قيود من تصميم أطلت من نظرات رفيق كفاح الرسول الراحل. هم صاحب البنية الفارهة أن يتقدم فيفسح المجال لصاحبه، إلا أن هذا الأخير تقدم بثقة فاقتحم بحضوره لغط القوم وجدالهم الحاد. ألقى السلام فصمتوا وقد استقبله انتباههم. حاول بعضهم أن يفسح له مكانًا في مركز الجمع فاستوقفه شاكرًا وجلس حيث انتهى به المجلس. أصغى إلى خطيب الأنصار يطلب خلافة الرسول محمد لسيد الخزرج سعد بن عبادة الجالس ملتفًا بغطاء لمرضه. المتأمل في وجوه المجتمعين يدرك بسهولة أن أبناء قبيلة الأوس ليسوا على رضا من ترشيح زعيم الخزرج خليفة للمسلمين.

انتهى خطيب القوم من حديثه فالتفتت الوجوه تلقائيًا إلى المهيب وصاحبيه. أراد الطويل - عمر بن الخطاب - أن يقوم فيمهد له بالقول، لكن نظرة من صاحبه الوقور - أبي بكر - أثنته عن ذلك، فاكتفى أن منحه ورفيقه - أبا عبيدة بن الجراح - نظرة مطَمئِنَة ردها بابتسامة شاحبة ثم اتخذ مقام الخطابة. بدأ بأن أثنى على الله ورسوله. كادت دموعه أن تقهر أغلالها عند ذكر رفيقه وحبيبه الراحل، فصمت لثوانٍ كي يلجم حزنه. رفع رأسه إلى القوم مجددًا وأردف: «أما بَعد..»

❊ ❊ ❊

مال عمر على صاحبه هامسًا «كنت قد أعددتُ ما أقول للقوم في شأن أبي بكر، فوالله ما كنت أنوي أن أقول شيئًا إلا قاله». ابتسم أبو عبيدة وهو يجيل البصر في أهل المدينة المحتشدين لمبايعة «خليفة رسول الله» وتمتم دون أن يحول نظره «إنه أبو بكر».

❊ ❊ ❊

ما كاد الشقاق يطل برأسه بين المسلمين يوم وفاة رسولهم إلا أُغلِق الباب دونه. حتى علي بن أبي طالب الذي كان يتوقع ـ ويرجو ـ لنفسه خلافة ابن عمه وأبيه الروحي، لم يطل التأخر عن إعطاء بيعته للخليفة.

في ذلك الاجتماع الذي انتهى بمبايعة أبي بكر بن أبي قحافة حاكمًا على الدولة الإسلامية الناشئة تحت مسمى «الخليفة»، لم يكن أصحاب الرسول محمد بن عبد الله قد ابتدعوا نظامًا غريبًا عن فكرهم في الحكم والسياسة. فمسألة أن يخلف النبي في قومه أحد أقرب أصحابه كانت معروفة لهم مسبقًا من القصص الديني، فموسى خلفه فتاه وتلميذه يوشع بن نون في قيادة اليهود، فيما قبل عهود الحكام القضاة ثم الملوك، وعيسى خلفه في القيادة الروحية تلاميذه «الحواريون» وعلى رأسهم بطرس، فيما قبل نظام البابوات والبطاركة.

فقط جعل المسلمون الأوائل ـ ومَن جاءوا من بعدهم من المتخصصين في فقه موضوعات السياسة والحكم ـ لهذا النظام إطارًا واضحًا، وحددوا التعريفات والشروط الواجب توافرها في المرشح له، والصلاحيات المحددة لشاغله.

من حيث المهام فإن لعمل الخليفة شِقّين: الأول دنيوي يتمثل في الإدارة العليا والرقابة على مؤسسات الدولة، ووضع سياساتها العامة والتحدث باسمها مع الدول الأخرى، وتولي القيادة العامة للجيش دفاعًا عنها. والشِق الآخر ديني متمثل في الحفاظ على تطبيق الشريعة الإسلامية في الأمور العامة والخاصة، وإقامة الشعائر والعبادات.

ولا يعني وجود شِق ديني في منصب الخليفة أنه حاكم «ثيوقراطي» ـ أي يحكم حكمًا دينيًا معصومًا بنظرية الحق الإلهي في الحكم ـ فإن هذا الشِق الديني من «التعريب الوظيفي» للمنصب إنما هو «تكليف» وليس «تشريفا». والخليفة يمارس عمله تحت رقابة «الرعية» ويخضع لنفس القوانين التي يطبقها، وهو ملتزم بشروط ترشيحه لموقعه طوال شغله له.

وهو ما يعبر عنه قول الخليفة الأول أبي بكر في خطاب توليه «إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني». (طبعًا أنا هنا أتحدث عن «ما كان يجب أن يكون» وليس عمّا كان بالفعل فيما بعد الخلفاء الأوائل المؤسسين لهذا النظام). باستثناء نظرة الفاطميين الشيعة للخليفة/ الإمام أنه معصوم عن الخطأ والمساءلة.

وقد اختُلِفَ في شأن وصف الخليفة بـ«خليفة الله» فقال أغلب من تحدثوا في تلك المسألة بأن الخلافة هي لـ«رسول الله» وليست لله، فالخلافة تكون لغائب أو متوفَّى، والإله لا يغيب ولا يموت. وقد كان يقال لأبي بكر بن أبي قحافة ـ أول الخلفاء ـ «يا خليفة رسول الله»، فلما خلفه عمر بن الخطاب ونودي بـ«يا خليفة خليفة رسول الله» قال «هذا أمر يطول» فناداه البعض بـ«أمير المؤمنين» فصارت لقبًا للخلفاء بعد ذلك. وجدير بالذكر أنه لقب «جهادي» الطبيعة لأن مصطلح «الأمير» كان يُستَخدَم لمخاطبة قائد الجند.

وللترشح للخلافة شروط عامة وأخرى خاصة، العام منها بديهي كالكفاءة، حسن السيرة، السلامة البدنية والعقلية، الالتزام السلوكي والديني.

أما الخاص منها فأربعة شروط هي:

١ ـ البيعة: وهي أن يتولى الخليفة منصبه من خلال البيعة الحرة التي لا يشوبها تدليس ولا إكراه. وقد اختُلِفَ في ما إذا كانت هذه البيعة تؤخذ من عموم الشعب أو من ممثليهم، أو أنها تقتصر على «أهل الحل والعقد»، وهم الفئة المكوّنة لدائرة الحكم وصناعة القرار.

٢ ـ العمل بالشورى: أي العمل بالاستشارة في القرارات الهامة تنفيذًا للأمر القرآني «وشاورهم في الأمر»، واختُلِفَ كذلك في ما إذا كانت الشورى عامة، أم في حدود أهل الحل والعقد سالفي الذِكر، وفي ما إذا

كان مجرد طلب الرأي والاستماع إليه كافيًا، أم أن على الخليفة العمل برأي الأغلبية.

٣ ـ الحكم بالعدل: وهو عند منظري السياسة الإسلامية مربط الفرس في التفرقة بين «الخليفة» الذي يحكم من منطلق «مصلحة الأمة» و«الملك» الذي يحكم من منطلق التغلُّب والسيطرة، حتى وإن كان هذا الملك يستخدم لقب الخلافة.

٤ ـ قرشية النسب: وهو أكثر تلك الشروط إثارة للجدل، إذ اعتبره البعض شرطًا دائمًا غير قابل للإسقاط بحكم القولين المنسوبين للرسول محمد «الأئمة من قريش» و«قَدِّموا قريشًا ولا تَقَدَّموها»، بينما اعتبره البعض الآخر شرطًا مؤقتًا ارتبط بحدث معين، هو احتياج مؤسسة الخلافة في بدايات الدولة للعصبية القبلية المتمثلة أقوى مظاهرها ـ آنذاك ـ في قريش، وهو ما عبر عنه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بقولهم لمن طالبوا بخليفة من الأنصار «إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش»، وما دعم موقف أصحاب هذا الرأي هو تدهور سلطة الخلافة في مواجهة العناصر غير القرشية ـ بل وغير العربية ـ فيما بعد العصر العباسي الأول (بعد وفاة الخليفة العباسي المعتصم بالله). ومن ناحية أخرى فقد تشدد الشيعة الإمامية في شأن النسب، فلم يكتفوا منه بالقرشية، بل اشترطوا أن يكون الخليفة من نسل علي بن أبي طالب وفاطمة ابنة الرسول محمد.

* * *

هكذا. في العام ٦٣٢م، وُلِدَ نظام الخلافة، واستمر حتى سقوط الخلافة العباسية في القاهرة سنة ١٥١٧ على يد العثمانيين الذين أعادوا إحياء الخلافة سنة ١٨٧٦م على يد السلطان عبد الحميد الثاني، حتى أعلن الزعيم السياسي التركي مصطفى كمال أتاتورك إسقاط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م،

ولم يحاول أي نظام حاكم بعدها أن يعلن قيامه بها بعد ذلك، باستثناء قيام تنظيم «داعش» الإرهابي في ٢٩ يونيو ٢٠١٤ بإعلان قيام الدولة الإسلامية في العراق والشام، وتنصيب أبي بكر البغدادي خليفة لها، وهو ما لا يمكن اعتباره «نظامًا حاكمًا» بالمعنى المعترف به دوليًا.

أكثر من مئة حاكم، على رأس نحو خمس دول، في ٩ عواصم مختلفة، اشتركوا في حمل لقب «أمير المؤمنين»، واختلفوا في نهاية عهد كل منهم، فبينما انقضت عهود معظمهم بوفاة الخليفة في فراشه بسلام، كان غيرهم قد انتهى حكمه نهاية دامية فقد فيها حياته.

فعن تلك النهايات الدامية لهؤلاء الخلفاء، نتحدث..

وليد فكري

❊ ❊ ❊

مُدخَل راشدي

بتولي أبو بكر بن أبي قحافة المعروف بـ«الصدّيق» الخلافة سنة ٦٣٢م يبدأ عصر دولة الخلفاء الراشدين الممتد طوال عهده وعهود خلفائه على التوالي عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، ويضيف لهم البعض ـ وهو ما أرجحه ـ العهد شديد القصر للحسن بن علي بن أبي طالب، حتى تنازله عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، مؤسس دولة بني أمية الذين حاز أحدهم ـ عمر بن عبدالعزيز ـ وصفًا شرفيًا بـ«خامس الخلفاء الراشدين» (وإن كان حساب الحسن بن علي ضمن الخلفاء الراشدين يعني أنه الخامس، وعمر بن عبد العزيز السادس).

حظيت هذه الفترة باحتفاء المؤرخين المسلمين، أولاً لأن خلفاءها كانوا من صفوة صحابة الرسول محمد والسابقين للإيمان برسالته، إضافة للحسن حفيده وسبطه، ثانيًا لتصنيفهم ـ على حد ما نسب عن الرسول محمد ـ من المبشرين بالجنة سواء ضمن فئة «العشرة» (أبو بكر، عمر، عثمان، علي، أبو عبيدة بن الجراح، الزبير بن العوام، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، سعيد بن زيد)، أو في بشارة أخرى تقول إن الحسن وأخاه الحسين هما سيدا شباب أهل الجنة.

كذلك فإن الأحاديث المنسوبة للنبي محمد تضمنت نبوءات مسبقة من جانبه عن الخلافة ومدتها (ثلاثون عامًا تتم بالأشهر الستة بين اغتيال علي بن أبي طالب وتنازل ابنه الحسن عنها) وتحولها إلى «مُلك عضوض» ثم

اضمحلال أمرها فانبعاثها من جديد. بل ومن بينها ما تناول قيام دولتي بني أمية وبني العباس.

إذن فبين العامين ٦٣٢م و٦٦١م كانت الدولة الأولى من دول الخلافة الإسلامية، والتي تعتبر طور التأسيس الأول للدولة على مستوى كل من منظومة الحكم واتساع الرقعة.

❋ ❋ ❋

أبو بكر بن أبي قحافة

هل اغتيل أول الخلفاء؟

ـ المدينة ـ أغسطس ٦٣٤م

مرت بضعة أيام ولم يخرج الخليفة فيها للصلاة مستنيبًا عنه عمر بن الخطاب في إمامة المصلين. لم يره الناس يطوف بشوارع المدينة أو يخطب على المنبر، أو يتوجه إلى دار تلك المرأة التي التزم أن يحلب لها الشاة حتى بعد توليه الخلافة. ما شاع أنه قد اغتسل في يومٍ بارد فأصيب بالحُمى التي ألزمته الفِراش (يوم بارد في أغسطس؟!).

حول الدار البسيطة يتجمهر الصحابة. تقترب بعض الرؤوس من بعضها وتنقل الأفواه همهمات التساؤل المشفق مما استشعروه من احتضار أول الخلفاء. أخيرًا ينفصل رجل عن الجمع. يطرق الباب مستئذنًا في الدخول. يدلف إلى داخلها بعد أن يوجه لرفاقه نظرة مُطَمئِنة.

«أخبرني عن عمر بن الخطاب»

وهن الصوت أحدث غصة بحلق عبد الرحمن بن عوف، الذي أطرق متحاشيًا أن تلتقي عيناه بعيني محدثه، كيلا تفضح ألم نفسه، لإدراكه أنها ربما المرة الأخيرة التي يتحادثان فيها في هذا العالم.

ـ «ما سألتني عن أمر إلا كنت أعلم به مني»

ألح أبو بكر «وإن كان!»

ـ «هو والله أفضل من رأيك فيه»

استرخى أبو بكر في فراشه متنهدًا بارتياح ثم قال «أدخِل عليَّ عثمان»

لم تمض لحيظات إلا كان منفردًا بعثمان بن عفان ملقيًا عليه نفس السؤال، فأجابه «اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله»

* * *

رغم اشتداد وجع جسده ـ الضعيف أصلاً ـ بقي الخليفة يطلب كبار الصحابة أفرادًا ومجموعات يسألهم عن عمر بن الخطاب، وهو يتحامل على وهنه المتزايد وآلامه المتصاعدة. أخيرًا انتهى من اجتماعاته فأسبل جفنيه مسلمًا نفسه لبعض النوم، إلا أن بعض الصحابة ألحوا في الدخول عليه فأذن لهم. جلسوا وهم يتبادلون نظرات التردد، أخيرًا استجمع أحدهم جرأته، وقال مندفعًا كمن يلقي حِملاً ثقيلاً عن عاتقيه «ماذا تقول لربك غدًا إذا لقيته وقد استخلفت علينا عمر؟!»

قد شاع إذن سؤاله المتكرر عن ابن الخطاب، وأزعج بعض المشفقين مما عُرِفَ عن شدته. لم تبد على ملامح الشيخ دهشة من السؤال، أشار لمن حضر من أهل بيته «أقعِدوني». اعتدل من رقدته مستندًا على يد امتدت إليه ثم التفت لمحدثه مجيبًا بصرامة «أبالله تخوفني؟! أقول له استخلفت على أهلك خيرهم!»

ساد الصمت قليلاً، أرسل أبو بكر دفقة من آخر قوته في نظرة مُلِئَت تصميمًا وزعها على جلسائه. أخيرًا عاد يُرقِد ظهره على الفراش قائلاً «وأخبر مَن وراءك قولي هذا!»

* * *

المرض قد يفترس جسد الرجل القوي، لكن هيهات أن يقدر على مصارعة الروح الصلبة. يصم الشيخ أذنيه عمن يرجونه أن يرحم جسده الهزيل مما يبذل من جهد يزاحم مرضه على الفتك به. يلح بعضهم عليه «لو رأيت الطبيب» يجيبه «قد رأيته». يزداد إلحاحًا «وماذا قال لك؟» فيرد منهيًا النقاش «إني فعّال لما أريد».

يستدعي عثمان بن عفان ليملي عليه عهده باستخلاف عمر بن الخطاب، يشتد على نفسه فيُغشَى عليه أثناء إملائه العهد قبل أن يذكر اسمه خلفه، يحاولون إفاقته بينما يسرع عثمان بالكتابة «إني استخلفت عليكم من بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا». أخيرًا يفيق أبو بكر فيتنفس عثمان الصعداء ويناوله الرقعة. يقرأها ويرفع عينيه إلى صديقه ممتنًا أن قد ألهمته سرعة بديهته استكمال العهد على ما أراد، خشية أن تخرج روحه في غشيته فيقع الناس في الفوضى. ولأنه عنيد في الاشتداد على نفسه فقد أمر من معه بإعانته على القيام من فراشه والإشراف على الناس من نافذة داره. يحاول أهله عبثًا إثناءه عن تجشم المشقة فلا يزداد إلا إصرارًا. يجيب إلحاحهم باشتداده في الخطو نحو النافذة حتى يكاد يجذب هو من يستند إليهم. هذه خطوة أخيرة لحسم جدل استخلافه عمر. هكذا يفكر.

احتشد أهل المدينة عند النافذة مترقبين قول خليفتهم. استجمع هذا الأخير قواه رافعًا يده المرتعشة بالعهد قائلاً بصوت اجتهد في علوه ليبلغ الجمع «إني قد عهدت عهدًا، أفترضونه؟!»

يجيبه رجل قصير أصلع متين البنيان هاتفًا «لا نرضاه إلا إن كان لعمر!»
إن كانت الغشاوة المتصاعدة على ناظريه قد حجبت عنه صاحب الهتاف، فإن أذنيه ميزتا صوت علي بن أبي طالب. ابتسم راضيًا وهو يقول بآخر ما في حنجرته من جهد «هو عمر بن الخطاب».
يحاول معينه على الوقوف إعادته للفراش، إلا أنه يستوقفه. يبقى مطلاً على الجمع مترقبًا أية اعتراضات. لا يسمع سوى كلمات الرضا.. من الواضح أن من وافقوه في اختياره قد أزالوا خوف المشفقين. أخيرًا.. الآن يستطيع أن يستريح.

* * *

يخلو أخيرًا لأهل بيته. تجلس إلى جواره زوجته أسماء بنت عميس - التي تزوجها بعد استشهاد زوجها السابق جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة - يطلب منها أن تتولى تجهيز جثمانه بعد موته. تجيبه من بين دموعها بأنها لا تطيق ذلك. ينزع عن وجهه الصرامة التي ارتداها أيامًا وهو يدبر أمر الرعية من بعده، يربت عليها برفق قائلاً «يعينك ابني عبد الرحمن». يكف أخيرًا عن مقاومة زحف نمل الوهن على أرجاء جسده المتداعي. تنتابه الغشية تلو الأخرى تتخللها لحظات قليلة من الإفاقة يسأل فيها عن أي الأيام هو فيها. يمس أذنيه صوت حبيب إلى قلبه يتمتم حزينًا «لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى.. إذا ما حشرجت يومًا بها الصدر وضاقت الأنفس».
يفتح جفنيه عن نظرة عتاب، ويقول لابنته الجالسة عند رأسه «ليس هكذا يا أم المؤمنين. ولكن كما قال الله: وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك الذي كنت منه تحيد».
ولا ينسى أن يسأل «في أي يوم أنا؟» يرجو أن يتوفاه الله يوم الاثنين

لأنه يوم كان يحبه صديقه وحبيبه ورفيقه الرسول محمد.

أخيرًا يرفع المرض راية انتصاره على الجسد، وإن لم يتمكن من هزيمة الروح الجليلة. تغيب تدريجيًا عن البصر موجودات الدنيا وتنفتح طاقة على ما لا يراه أهله المحدقون به. قبل أن يلج عبر الطاقة يتمتم «رب توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين».

* * *

ما هو معروف ومتداول أن أبا بكر قد استحم في يوم بارد فأصابته حُمَى قاسية ألزمته الفراش لأكثر من أسبوعين، ثم كانت مضاعفاتها سببًا مباشرًا في وفاته. وردّ البعض ضعف مناعة أبي بكر لأسباب، كإصابته بُحمَى المدينة بعد هجرته إليها بقليل، ما ترك أثرًا على صحته، أو تأثير حزنه لوفاة رفيقه الرسول محمد على صحته، بل وأرجع البعض ذلك ـ أعني اعتلال الصحة ـ إلى ما رُوِيَ من أن ثعبانًا قد لدغه في الغار حين كان مختبئًا مع الرسول من مطاردة أعدائهما القرشيين.

كل هذه أسباب يمكن أن تكون ـ بشكل أو بآخر ـ منطقية مقبولة، ولكن ثمة رواية ترددها بعض كتابات المؤرخين ـ كالسيوطي وابن الأثير ـ تتحدث عن واقعة تناول الخليفة الأول لطعام مسموم.

فمما يقال إن أبا بكر كان يأكل طعامًا أُهدِيَ إليه، وكان يأكل معه الحارث بن كلدة. وفجأة توقف الحارث عن الطعام وأمر أبا بكر أن يرفع يده عمّا يأكل، وقال له «لقد دُس لنا سم سنة ـ أي سم مفعوله يظهر بعد سنة ـ وأنا وأنت نموت في يوم واحد!»

ووفقًا لتلك الرواية، فقد توفي الاثنان بالفعل في يوم واحد هو الثلاثاء ٢٢ أغسطس ٦٣٤م.

والحارث بن كلدة ـ وهو زوج خالة الرسول محمد ـ طبيب بارع معروف منذ ما قبل ظهور الإسلام، طاف بالبلدان ودخل قصور ملوك الأرض، واشتهر بالمهارة والحذق الشديدين في صنعة الطب والعلم بتركيب جسم الإنسان، والدراية بكيفية تركيب الأدوية والسموم، وتفاعلات كل ما يدخل الجسم من مأكول أو مشروب. فلو صحت الرواية وكان قد قرر أن الطعام مسموم، بل وحدد نوع السم ـ والسموم مؤجلة المفعول معروفة والغرض منها إزالة الشبهات الجنائية ـ فهذا يعني أن الطعام كان مسمومًا بالفعل، وأن وفاتهما في ذات اليوم في الموعد المتوقع، لم تكن محض مصادفة!

بالتالي ـ بناء على ما سبق ـ فإن الخليفة الأول للمسلمين، وأبرز صحابي للرسول محمد، وأول من آمن به من الرجال، قد تم اغتياله بالسم، وبنوع خاص من السم بغرض إخفاء مجرد وجود شبهة لذلك.

طبعًا من المستحيل تأكيد أو نفي تلك الواقعة بشكل نهائي حاسم، فدعونا إذن نفترض صحتها فقط لإجابة سؤال هام: ما الذي يمكن أن يجعل من أبي بكر بن أبي قحافة هدفًا محتملاً لمؤامرة اغتيال بالسم؟!

❊ ❊ ❊

يتعامل الكثيرون مع فترة حكم أبي بكر ـ عامان وثلاثة أشهر وعشرة أيام ـ باعتبار أنها مجرد فترة «تسيير أعمال» انتقالية قبل أن تدخل الدولة الإسلامية في طور «الإمبراطورية» في عهد عمر بن الخطاب.

وإن كان طور التوسع والسيطرة وفرض الدولة الجديدة نفسها على الواقع الإقليمي قد بدأ بالفعل في عهد عمر، فإن عهد أبي بكر ـ على قصره ـ لم يكن بالأقل أهمية، لأنه لولا «تمهيدات» هذا العهد ما كان لخلافة ابن الخطاب أن تحقق تلك الإنجازات السياسية والعسكرية.

الصورة النمطية لأبي بكر هي لرجل وديع مسالم رقيق المشاعر مهذب

الأسلوب وقور الهيئة، وهي صفات قد تحلى بها بالفعل، ولكن ثمة صفة أغفلها أغلب من تناولوا شخصية هذا الرجل وهي «الصرامة».

والصرامة ـ بعكس ما هو شائع ـ ليست مجرد وجه متجهم وصوت قاس ونبرة آمرة. بل هي وضع القوة واللين مواضعهما الحقة، وتوظيف الإصرار على الموقف بشكل حكيم، ومعرفة متى يُفعَل ماذا وكيف يُفعَل، فضلاً عن التحلي برباطة الجأش والسيطرة على الانفعالات، خاصة في مواجهة الصدمات أو التحديات الكبيرة. والمدقق في فترة ولاية أبي بكر يدرك تمتع جميع قراراته ومواقفه بتلك الصرامة المذكورة. بل إنها تبدو واضحة في مواقفه قبل تسميته خليفة للمسلمين. ولعل أبرزها موقف الجدال حول خلافة الرسول محمد في سقيفة بني ساعدة، وقبله تصرفه السريع عند وفاة الرسول بتصدره للخطبة في الجموع الذاهلة عن نفسها من فرط الصدمة، واختياره كلماته «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت!» ثم قراءته الآية «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم»، وهذا لتوجيه صدمة مضادة لهم، تفيقهم من تلك التي اعترتهم فور فقدهم راعيهم الدنيوي والروحي.

هذه الصرامة التي استدعاها أبو بكر بحذافيرها وأشهرها في وجه تحديات فترة خلافته كانت ردًا قويًا على المتشككين في قوته على مهام المنصب، والساخرين من ضعفه الجسدي. فأبو بكر لم يكن يمثل النموذج المعتاد للقائد في المجتمع العربي، الذي كان ما يزال متأثرًا بثقافة ما قبل الإسلام. فبينما كان الوجدان الجمعي للعرب يتخيل القائد رجلاً متين البنيان فارع القامة ممشوق القوام متورد الوجه، كان أبو بكر ضئيل الحجم شديد النحافة ـ حتى إنه إن ارتدى إزارًا كان لا يتماسك حول خصره ـ غائر العينين، شاحب الوجه، دقيق الأطراف، منحني الظهر. وكان الساخرون منه يسمونه «أبو فصيل»، لأن «البكر» هو «الفتى من الإبل»،

بينما «الفصيل» هو ولد الناقة الذي فُطِمَ توًا، فهو ضعيف. فأثبت هو ـ على حد قول بعض المؤرخين ـ أنه «أبو فحل»، والفحل هو الذكر القوي من الإبل.

ومما يدلل على التشكك الأولي في قدرته على الصمود في وجه التحديات، أن كبار الأنصار حين اقتنعوا أن تكون الخلافة لقرشي، توجه بعضهم لعمر بن الخطاب يعرض عليه البيعة، فأجابهم «لأن أقدم فأُنحَر كالبعير خير من أن أتقدم أبا بكر»، وأن أبا سفيان ـ الذي كان ما يزال مؤمنًا بالنظرية العربية التقليدية العتيقة للحاكم القوي ـ عرض على علي بن أبي طالب أن يدعمه بالخيل والرجال لينتزع له الخلافة من أبي بكر، لولا أن زجره علي. بل وحتى أبو قحافة نفسه حين علم باستخلاف ابنه سأل: «ولِمَ بايعوه؟» فلم يجد المسؤول جوابًا إلا «لسِنه» فقال أبو قحافة مازحًا «أنا أسن منه».

والقارئ في سيرة هذا الرجل يدرك أنه قد حوّل ذلك الضعف الجسدي إلى عنصر محفز لإنتاج قوة نفسية كاسحة. بل إن تفانيه في خدمة الرسالة التي آمن بها وتحمله كل تلك المشاق والأخطار لأجلها، رغم ضعف بنيانه، يضع قوة شخصيته وإرادته وصرامته فوق تلك التي لأصحابه من أقوياء الجسد بمراحل، فهم أعانت أجسادهم القوية قوتهم الداخلية، وهو أعانت قوته الداخلية جسده الضعيف!

* * *

من البداية استل أبو بكر صرامته وأشهرها في وجه التحديات التي انفجرت في وجهه، والتي كانت بدايات بعضها تسبق وفاة الرسول محمد بفترة بسيطة.

تلك التحديات تمثلت في:

- ارتداد بعض القبائل عن الإسلام كدين بشكل كامل، وبالتالي عن التبعية للدولة الناشئة.

- تمرد بعض القبائل على مطالبة السلطة المركزية لهم بتحصيل وإرسال الزكاة، باعتبارها فريضة دينية.

- قيام بعض القيادات القبلية بادعاء النبوة بالشراكة مع النبي محمد.

- الحملة التأديبية التي كان الرسول محمد قد أعدها بقيادة أسامة بن زيد، للتوغل في عمق الأراضي الموالية للبيزنطيين، ردًا على قيام بعض ولاتهم بقتل رسول من قِبَله لحكام الشام، وهو ما يعتبر في العرف الدولي - آنذاك - بمثابة إعلان حرب.

أما عن التحدي الأول - الردة - فتمثل في أن بعض القبائل التي اضطرت لإعلان التبعية للدولة الإسلامية، ليس عن اقتناع بالدين وإنما على سبيل المناورة السياسية، قد استشعرت أن وفاة الرسول محمد تمثل لها فرصة للاستقلال عن دولته، خاصة أن كثيرًا من قيادات حركة «الردة» كانت تأنف من فكرة التبعية لحاكم قرشي. أي أن الأمر لم يكن دينيًا بقدر ما كان قبليًا. ولم تتوقف تلك القبائل عند مجرد الانفصال، ولكن نفذت بحق من تمسك من أبنائها بالإسلام حملة تعذيب وقتل جماعي، تشبه تلك التي نفذتها قريش بحق المسلمين الأوائل، بل وتعدتها لدرجة تنفيذ عمليات إعدام جماعي لهم بطرق مختلفة، كالحرق والذبح والإلقاء من المرتفعات.

وأما التحدي الثاني فتمثل في محاولة بعض القبائل المساومة، فعرضوا أن يلتزموا الصلاة والتبعية للدولة على ألا يدفعوا زكاة المال. بل وتمادوا فتقدمت حشودهم باتجاه العاصمة - المدينة - وحاصروها، في تهديد صريح باجتياحها وإسقاط النظام لو لم يرضخ لهم.

والتحدي الثالث - الذي نشأ من قبل وفاة الرسول - كان في قيام مسلمة

بن حبيب الحنفي - المعروف باسم مسيلمة الكذاب - بادعاء إشراك الله له في النبوة في أرض اليمامة، وإعلان طليحة بن خويلد من قبيلة بني أسد تنبؤه وقيامه بتحريف الصلوات، وكذلك سجاح التميمية في قبيلة تميم، قبل أن تتزوج بمسيلمة وتتحالف معه. وخلف كل نبي كذاب اجتمعت قبائل، ليس عن إيمان به بل عن تعصب قبلي، وهو ما يبدو في موقف من قال لمسيلمة «إنك كذاب ولكن كذاب ربيعة (اليمن) خير من صادق مضر (الحجاز)» ثم انضم إليه برجاله. (كان عبهلة المشهور بـ«الأسود العنسي» و«ذي الخمار» قد تنبأ باليمن وقاد تمردًا بها في أواخر حياة الرسول محمد، إلا أن حركته قد أُسقِطَت على يد من أسلموا من فُرس اليمن قبل وفاة الرسول بأيام).

وأخيرًا تبقى أزمة «بَعث أسامة». فقد انقسم الصحابة بين مؤيد لإرساله، ومن رأوا أن الوقت غير مناسب لذلك مع كل تلك التهديدات، خاصة وقد جهر البعض بتشككهم في كفاءة أسامة بن زيد لقيادة الحملة، نظرًا لصغر سنه قياسًا بالمشهورين من القادة والمحاربين.

اختصارًا، فإن الدولة التي كانت سطوتها قد بلغت اليمن وشرق الجزيرة وشمالها، قد انحصر الولاء فيها للسلطة المركزية في مكة والمدينة والطائف ومحيط تلك المدن! حتى إن بعض أصحاب أبي بكر قد وصفوا الموقف قائلين «إن الأرض كافرة»!

هذا ما كان على أول الخلفاء أن يواجهه غداة مبايعته!

* * *

كان كبار الصحابة ـ الذين لم يكن الخليفة يقطع أمرًا دون مشاورتهم ـ يميلون لعدم خوض كل تلك المعارك دفعة واحدة، فكان أغلبهم يرى السكوت ـ ولو مؤقتًا ـ عن مانعي الزكاة، وكانوا كذلك يرون تأجيل خروج حملة أسامة بن زيد إلى الشام حتى تنتهي القلاقل وتستقر الأوضاع. وما زاد دقة موقف أبي بكر في مواجهة هذا الموقف منهم، هو أن عمر بن الخطاب ـ مستشاره الأول ـ كان من تلك الفئة الراغبة في «تبريد الجبهات».

كان رفض أبي بكر لهذه الآراء قاطعًا، فوقف بصلابة يقول «والله لو ركضت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله أي لو تخطفتهن الكلاب الضارية ـ لأنفذت بعث أسامة». ولما عرض عليه عمر بن الخطاب إبداء اللين إزاء مانعي الزكاة، قال له «أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام يا عمر؟ لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة!». وخرج على القوم معلنًا «لو منعوا عنزًا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه». فالمسألة ليست مسألة ماديات بقدر ما هي مسألة اختبار لهيبة الدولة وقدرة السلطة المركزية على ردع المتمردين.

بل وبلغت صرامته أوجها حين طلب الصحابة من ابن الخطاب مفاتحته في استبدال قائد أكبر سنًا بأسامة بن زيد، فوثب على عمر يجذبه من لحيته ويصيح له «ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله وتريدني أن أخلعه؟!» وهي حركة يراد بها أن تصل الرسالة واضحة للناس: حتى مكانة عمر بن الخطاب عند أبي بكر لن ترده عن تنفيذ أمر الرسول.

ويخرج بعث أسامة بنحو سبعمئة من خيرة المقاتلين، ويستبقي أبو بكر عمرًا إلى جواره لمعاونته على إدارة شؤون الدولة، والدفاع عن العاصمة التي داهم المتمردون من مانعي الزكاة محيطها. وبينما اغتر المحاصِرون بقوتهم وحسبوا أنهم يقدرون على اقتحام العاصمة، يباغتهم أبو بكر بمن معه من بقايا مقاتلي المدينة، في خطوة شديدة الجرأة، ويردهم على أعقابهم.

وتسمع القبائل بهزيمة المتمردين فترتدع عن مشاركتهم عدوانهم على السلطة.

ويعود بعث أسامة منتصرًا بعد نحو شهرين ونصف من خروجه، فتتحدث القبائل بأن رجلاً لديه هذه الثقة بقوته، إلى حد إرسال جيشه في مهمة بعيدة وسط تلك الظروف الدقيقة، هو رجل لا بد يدرك قوته وقدرته على حماية أمن دولته. فيتحقق الهدف المعنوي من إصرار أبي بكر على إنفاذ بعث أسامة، وتتزعزع الروح المعنوية للمتمردين.

هنا يطرق الخليفة الحديد ساخنًا، فيسارع ببعث ١١ بعثة عسكرية ـ في آن واحد ـ لتأديب مدعي النبوة ومانعي الزكاة والمرتدين، ويضع على رأسها أقوى قادته كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم. وتضاف الحنكة التخطيطية العسكرية لرصيد أبي بكر، الذي يضع خطة دقيقة يلزم القادة تنفيذها بأن ينضم من ينتهي منهم من مهمته لبعض الحملات الأخرى دعمًا لها، بحيث يفتت قوة المتمردين ويجعل كل كتلة منهم تواجه منفردة قوات المدينة.

وتتوالى أخبار الانتصارات تبلغ العاصمة، فتزيد الروح المعنوية للمسلمين ارتفاعًا، بينما تنهار عند الأعداء الذين يسارعون بالتخلي عن مدعي النبوة وقادة التمرد، وترد الوفود على المدينة تعلن التوبة وتجدد الولاء وعهود الطاعة.

ويعاقب الخليفة من ارتكبوا المذابح بحق من ثبتوا على إسلامهم من أهل القبائل المتطرفة جغرافيًا، فيحكم على من ارتكب منهم جريمة قتل، بالقتل بنفس كيفية ارتكابه جرمه من ناحية، ويتألف قلوب من لم يرتكبوا جرائم كبرى من ناحية أخرى. وتؤتي تلك السياسة ثمارها، فرجل مثل عمرو بن معد يكرب كان مصدر إزعاج للدولة يصبح من أخلص رجالها، ويصير من أبطال فتح فارس، وطليحة الذي تنبأ يعلن توبته ويقاتل في صفوف المسلمين حتى يعينه عمر بن الخطاب ـ في عهده ـ مستشارًا لبعض

حملاته العسكرية، ويستشهد في موقعة نهاوند، وسجاح التميمية تسلم ويحسن إسلامها وتنتهي فتنتها لقومها، ويعلن اليمن خضوعه بعد مقتل مسيلمة الكذاب.

ثم تنتقل العمليات العسكرية من مرحلة الردع لمرحلة التوسع. وهي مرحلة كانت تفرض نفسها، بحكم وقوع بعض تلك العمليات في أراضٍ متاخمة لممتلكات كل من بيزنطة وفارس في المناطق العربية. وبطبيعة الحال فلم تكن الدولتان الكبريان لترضيا عن حركة التحرر العربي من سطوتها، فتسعيان للتدخل ـ عسكريًا وتآمريًا ـ في تلك المناطق، ما يجعل من تحريرها ضرورة لحفظ الأمن القومي لجزيرة العرب.

وتتقدم الجيوش العربية لمناطق طالما خضعت لكسرى وقيصر، فتفتح مدنها وتمهد لعهد الفتوحات الكبرى التي وقعت في عهد عمر بن الخطاب.

كل هذا في نحو عامين فقط! نحن نتحدث عن رجل تسلم دولة تمزقها التمردات والفتن إلى حد محاصرة عاصمتها، فسلمها لخلفه وقد أُخمِدَت التوترات ووُئِدَت الفتن، بل وانتقلت الدولة لطور التوسع ومناطحة القوى العظمى في عقر دارها!

* * *

رجل كهذا كيف لا يكون هدفًا للاغتيال؟

* * *

هذا عن إجابة سؤال: هل يمثل أبو بكر بن أبي قحافة هدفًا يسعى أعداء الدولة الناشئة لإزاحته؟

فماذا عن السؤال: من المستفيد من اغتياله، لو صحت الفرضية القائلة بذلك؟

من ذكروا تلك الرواية من المؤرخين المسلمين القدامى اتهموا اليهود بشكل مباشر، ولكنهم لم يحددوا «أي يهود». هل هم بقايا يهود خيبر؟ أم هم يهود اليمن؟ وهل كان اليهود يمثلون أصلاً قوة تستطيع الإفادة من عمل كهذا؟

الأرجح أن هؤلاء المؤرخين قد ربطوا فكرة الاغتيال بالسم باليهود بشكل تلقائي، تأثرًا بواقعة «الشاة المسمومة» التي يُروَى أن يهودية قد قدمتها للرسول محمد، وبررت ذلك بعدها باختبار صدق نبوته وحقيقة إخبار السماء له بخفايا الأمور. وهو استسهال غريب على أسماء معروفة بالتدقيق والتمحيص التاريخي، ولكن لعلهم قصدوا بذلك مجرد نقل الرواية المتداولة.

والمنطقي أن تتجه أصابع الاتهام إلى أهل العداوة «حالّة الوقوع» تزامنًا مع مرض ثم وفاة أبي بكر، وهم كُثُر، بدءًا من القيادات القبلية التي اضطرت للخضوع لسلطة «المدينة»، مرورًا بأمراء المدن العربية الواقعة على خط العمليات العسكرية التوسعية في شمال الجزيرة وحدود الشام، وانتهاءً بسلطات الدولتين العظميين فارس وبيزنطة، خاصة وأنه كانت ثمة محاولة من الملك الفارسي الأسبق أن يقتل الرسول محمد، عبر أمر وجهه لعامله على اليمن «باذان» قبل إسلام هذا الأخير وانضمام اليمن للدولة الإسلامية.

على أية حال فإن تلك الوفاة السريعة المفاجئة لأول خليفة مسلم، هي مما يستحق الانضمام لألغاز التاريخ، أسوة بالوفيات الغامضة لبعض

كبار القادة والحكام عبر التاريخ الإنساني الطويل. ما يجعلها تستحق النظر والبحث من حين لآخر.



عمر بن الخطاب

ضحية أول جريمة عنصرية في تاريخ الإسلام

- مشهد أول:

بلاد فارس - ٢٢٦م

ساسان الأول، ساسان العظيم، سيد فارس وموحدها ومؤسس أقوى أسرها الحاكمة. يحتضر.

رغم تكالُب الأوجاع على جسده تحامل على نفسه جالسًا، يطالع ما خطّت يداه منذ سنوات بعد أن قضى عمره يدرس «الأبستاق» كتاب زرادشت المقدس، نبي الفُرس الزرادشتيين الذين عرفوا مستقبلاً بـ«المجوس».

ارتجافات يديه المعروقتين ضاعفها انفعاله وهو يقرأ نبوءته الرهيبة.

«حين يفعل الفُرس الفحشاء وينتشر الظلم، يظهر رجل عربي يأخذ منهم سرير المُلك، ويقع المذهب في قبضته ويصبح الرؤساء مرؤوسين له، وسيمحق العرب الصور والأصنام وسيطفئون بيوت النيران المقدسة، ويجعلون مكانها بيوتًا معمورة لا مكان فيها للأصنام والأوثان، وستقع في أيديهم المعابد وما حولها من مدن وبقاع».

أسبل جفنان أكلّهما السهر تفكيرًا في مصير ذريته وبلاده. متى يتحقق هذا النذير المشؤوم؟ بعد مئة عام؟ مئتين ربما؟ لا يعرف. لا أحد يعرف. فقط يعرف يقينًا أن ما هو مكتوب في لوح القدر سيكون، وأن للسماء وعدًا لا تخلفه. ربما يملك أبناؤه وأحفاده تأخيره، لكنهم حتمًا لا يملكون منعه.

* * *

ـ مشهد ثانٍ:
فارس ـ العاصمة طيسفون (المدائن) على نهر دجلة ـ قصر الملك سابور الثاني ـ منتصف القرن الرابع الميلادي.

أشار سابور الثاني بصولجانه، مانحًا الأمان لذلك العربي الذي التمس المثول بين يديه وسجد عند أعتاب العرش طالبًا الأمان.
رفع الرجل ـ مالك بن النضر من سادات مكة ـ رأسه وقال متحسسًا مواضع كلماته «مولاي سيد العالم، أخا الشمس والقمر، ابن الأرباب. ألتمس كرم إجابتكم سؤالي»

ـ «سَل!» قالها الرجل الرهيب الذي تتسامع جزيرة العرب بأنباء تنكيله بالقبائل العربية الشمالية، ومذابحه المريعة بحقها، واشتهاره بتعذيب أسراه بخلع أكتافهم حتى لُقِّبَ بـ«سابور ذي الأكتاف».

ازدرد مالك لعابه وهو يحاول منع بركان الحامض المحتشد رعبًا في حلقه من الانفجار. أخيرًا قال متحاشيًا التقاء عينيه بعيني الوحش الرابض على عرشه: «هل لي أن أسألكم لم تضطهدون العرب؟ فيم أساؤوا ليستحقوا نقمتكم؟»

جلجل صوت الطاغية: «ليس ما أوقعنا بهم عن إساءة، وإنما هي عن نبوءة أوحى بها الإله لجدنا المقدس ساسان، تنذرنا بأن رجلاً يخرج من بعض بيوت العرب يدمر ملكنا ويحوز قومه بلادنا!»

وإن كان سيد قريش يبدي الخضوع ويرتجف من داخله فرقًا من مثوله بين يدي جبار عصره، فإن فطنته وذكاءه لم يفارقاه، لهذا فقد وجد فرصته في استدراج الملك لمنطقة مستعصية من المجادلة، فقال وقد اكتسبت نبرته ثقة: «وهل من مرد لنبوءة جدكم التي نقلها لكم عن وحي الإله لشخصه الحكيم؟»

رفع بصره فالتقط في لمحة سريعة ارتجافة على جانب فم الملك. سارع فاستطرد وقد تصاعدت ثقته: «ما دامت تلك نبوءة من الإله حقًا، فإنها لا بد كائنة، فلا مرد لما كتب الإله على البشر ولو اجتمع البشر والشياطين على ذلك»

تبادَل رجال الملك النظرات القلقة من هذا القول الجريء، همهمة خافتة سرت بينهم أوقفها سابور بإشارة صارمة من يده، ثم قال للعربي «أكمِل!»

- «الحكمة إذن تقتضي - يا مولاي - أن يكون التدبير في درء تفاقم المُصاب، لا في إيقاف ما هو مستحيل إيقافه»

عاد الحضور يغمغمون. هذا العربي أكثر دهاء مما يبدو على هيئته الخانعة. اتجهت أنظارهم نحو الملك، بين متوقع لأن يبطش بالرجل غضبًا من أنه قد حاصره كلاميًا في ركن ضيق، فلو قال بإمكانية رد النبوءة فقد أساء لجده العظيم وأعلن تحدي الإله، وإن أصر على موقفه على علمه باستحالة ردها فقد اعترف بعبثية سياساته. التفت الملك نحوهم فسارعوا بخفض الرؤوس تأدبًا، وهم ينتظرون أمرًا بحق العربي من قبيل التعذيب أو الذبح، أو على الأقل الطرد شر طردة. إلا أنه فاجأهم بانبساط أساريره القاسية وهو يشير

للرجل أن يتقدم فيجلس عند درجات العرش، وقام من فوقه مجالسًا محدثه بشكل ودي لم تكن بداية الحوار تشي به.

«صدقت. أنت رجل حكيم. عربي حكيم. هذا نادر. هذا شديد الندرة. ولكن، كيف ندرأ تفاقُم المصاب كما تقول؟»

مسح مالك خيط عرق انسال على صدغه، وتنهد بارتياح مجيبًا الملك «أيها الملك، تقتضي الحكمة التي لا تغيب عنكم أن ترفقوا بالعرب، وأن ترفعوا عنهم العذاب، فيذكروا هذا لكم يوم يقضي الإله ما هو قاضٍ، فيرفقوا بكم. هكذا يكون صنيعكم يدًا بيضاء على الآتين من رعاياكم»

بقي سابور يجيل نظره صامتًا في ملامح ضيفه. أخيرًا يفتر ثغره عن بسمة ارتياح وهو يقول «لك هذا. قد رفعنا نقمتنا عن قومك»

ما لم يكن الملك سابور الثاني يعرفه. أن من نسل هذا العربي، مالك بن النضر، تنحدر سلالة قرشية عريقة، تكون درتها ذلك الرجل الذي تتحدث به نبوءة ساسان، بأنه يكون أول ظهور العرب على من سواهم: محمد بن عبدالله.

* * *

مشهد ثالث:

المدينة - عهد عمر بن الخطاب

شق الزحام بكتفه، مديرًا عينين حادتين في الجمع المحتشد ينظر دخول موكب غنائم وأسرى الفُرس إلى عاصمة الخلافة. كانت ملامحه تجهر بأصله الفارسي، بياض العينين الشديد مقارنة بسوادهما الحالك، حدة الأنف والشعر الفاحم. لم يكن له أن يقيم بالمدينة، بعد أن أمر الخليفة عمر بإجلاء غير العرب

أو المسلمين عنها، لولا أن استثناءً شمله بعد إلحاح من سيده ومالك عمله المغيرة بن شعبة. «العلوج»، هكذا يسمون كل من كان أعجميا يدين بغير الإسلام. بحق الإله كم يبغضهم. هؤلاء العرب الأجلاف رعاة الشاة. قرصهم الجوع وعضهم قمل عباءاتهم الرثة فتجاوزوا صحراءهم إلى بلاده. هكذا كان يدور في رأسه، وهو ينظر بمزيج من اللوعة والغضب جحافل الأسرى من بني جلدته، والعرب يحدقون بهم.

دار الزمن والكلب قد امتطى الأسد. صار الرؤساء مرؤوسون لهؤلاء الذين كان أقصى طموح أعظمهم شأنًا أن ينعم عليه الأكاسرة بتقبيل الأرض بين يديهم. تمزقت أحشاؤه حين رأى الهرمزان ـ أحد قادة كسرى يزدجرد ـ يُسلِم بين يدي خليفتهم عمر، وعندما علم بأن بنات ملك فارس قد وقعن في الأسر لم يصدق أذنيه، فانطلق ينظر ما ود لو أن بصره قد ذهب قبل أن يراه. «بنات الملوك لا يعاملن معاملة الأسرى، بل يقَوّمن ومهما بلغ قوامهن يُدفَع». هكذا قال علي بن أبي طالب وزير عمر ومستشاره لهذا الأخير. يهز عمر رأسه موافقًا ويجري تقويمهن بالمال فيدفعه علي ويتسلمهن، فيدفع واحدة لابنه الحسين (هي شاه بانو زنان وولدت له ابنه علي المعروف بزين العابدين) والثانية لعبدالله بن الخليفة عمر، والثالثة لمحمد بن أبي بكر. بنات الملوك يصرن فراشًا للأجلاف العرب! أيتها الأرض لم لا تنشقين فتطوين العالم؟! أيتها السماء لم لا تفرغين صواعقك على رؤوس المخلوقات فتذهبينهم هباءً؟! يمضي دون وعي يشق صفوف الأسرى، يتحسس رؤوس الصبيان منهم. يستشعر مذاق الدم على طرف لسانه فيدرك أنه قد مزق شفتيه كمدًا. مذاق الدم. الدم. الدم.. يتمتم «أكل عمر كبدي! أكل عمر كبدي!»

ولكأنما يأتي المُبغَض على ذكر اسمه، يلمح عمرًا يسير مطرقًا برأسه متوشحًا عصاه. «الدرّة» كما يدعونها. يتقدم الفتى من الخليفة بقدمين لا يحس مسهما الأرض. يقطع الطريق على الخليفة الذي يرمقه متسائلاً. يصطنع

أدبًا وهو يقول له: «يا أمير المؤمنين. أنا أبو لؤلؤة فيروز. غلام المغيرة. جئت أشكوه إليك»

يستند عمر على درته سائلاً «وما شأنه معك؟»

لا يعرف كيف ارتجل ردًا سريعًا يخفي به ما يجول بصدره: «يثقل عليّ في الخِراج. فيطلب كل يوم ثلاثة دراهم»

ـ «وإيش صنعتك؟»

ـ «نقاش. حداد. نجار»

مط ابن الخطّاب شفتيه مجيبًا «ما أرى خراجك كثيرًا على ما تصنع. ألست تقول إنك تقدر أن تصنع رحًى تدور مع الريح؟»

ـ «بلى»

أشار عمر بكفه «فهلم إذن. اصنع لي رحًى»

رفع فيروز عينيه إلى محدثه، وصوب نظرة أحلك من ظلمة ليلة بلا قمر. بقي صامتًا ثم تمتم وقد تهاوت مقاومته أن يطل بغضه عبر ملامحه الصخرية: «لأصنعن لك رحًى يتحدث الناس بها»

ولأن ابن الخطاب رجل قد عركته التجارب، فإنه لم يكن ليغفل عن التهديد ولو كان مستترًا. فصوب للرجل نظرة متفحصة ثم رسم على وجهه عمدًا علامات استهانة واضحة. أدرك أبو لؤلؤة أن خبيئته قد مزقت ستارها فانطلق مغادرًا.

بقي عمر واقفًا يفكر في ما جرى، فلم يعهد في حياته من يجرؤ على تهديده وجهًا لوجه. لاحظ بعض أصحابه طول وقوفه فانطلق إليه حاملاً نظرة تساؤل، أجابها عمر بإشارة لا مبالية، ونظرة هازئة بما تلقاه من وعيد لا يتصور جادًا، «لقد توعدني العلج آنفًا!»

* * *

مشهد رابع:

المدينة - مسجد الرسول - فجر ٢٣ نوفمبر ٦٤٤م

كمن في ركنٍ من المسجد ينتظر، حتى رأى ذلك الشيخ الأصلع عملاق البنيان كث اللحية يدخل المسجد متوكئًا على درّته. كتم أنفاسه وتحسس من فوق ثيابه خنجره ذا النصلين. بدأ المصلون في التوافد والاصطفاف، فاستغل الزحام ليتقدم برفق إلى أول الصفوف التي كان الشيخ يرقب استواءها بعين يقظة. دفن أسفل وجهه في طوق عباءته، واعتمد على غطاء رأسه في إخفاء باقي ملامحه.

«استووا يرحمكم الله» قالها إمام القوم بصوته الجهوري المميز، وهو يلتفت إلى القبلة مزمعًا إقامة الصلاة.

لا يعرف متى وثب عليه ذلك الملثم متعلقًا بعنقه.

هوت الطعنة الأولى تخرق عضلات كتفه.

«رأيتُ أن ديكًا نقرني ثلاثًا. وما أرى ذلك إلا اقتراب أجلي»

قالها منذ أيام لبعض أصحابه..

عرفت الطعنة الثانية طريقها لجذعه.

«اعهد يا أمير المؤمنين فإني أرى في التوراة أنك مقتول في ثلاثة أيام» أنذره بها كعب الأحبار. ولحداثة عهده السابق بدين اليهود فقد كان قارئًا في توراتهم. «الله! ترى في التوراة عمر بن الخطاب؟» أجابه «بل أرى صفتك»

مزقت ثالث الطعنات - وأقواها - بطنه تحت السرة.

«كيف أُقتَل شهيدًا وأنا لم أغادر جزيرة العرب؟ كلا! العرب لا تقتلني» قالها لكعب الأحبار ردًا على إنذاره إياه.

سقيفة المسجد تتراقص وأعمدته تدور حوله في جنون. يد خفية تسدل خمارًا أحمر على وجهه.

رعدة عاتية تهز بنيانه، كاهتزاز أُحُد حين رجف به يومًا وهو مع رسوله وأصحابه أبي بكر وعثمان وعلي، ليقول الرسول «اثبت أُحُد!»
يستجمع آخر قواه صارخًا في أهل المسجد «دونكم الكلب! فقد قتلني!»
تنسحب الموجودات بسرعة، ويستشعر الأرض التي طالما صافحها بجبهته ساجدًا وهي تتلقى ظهره هذه المرة.

يفيق على سائلين، أولهما لاذع وثانيهما أبيض لين، يُدفعان لفمه.

يحاول الاعتدال في فراشه لكن يدًا حانية تمنعه برفق.
«النبيذ لم يبين موضع جرح الداخل. واللبن خرج مخلوطًا بالدم!»

يحس تلك الأصابع الرفيقة تمس كتفه الصحيحة. يرفع جفنيه بمشقة من يحمل جلمودًا. يميز بعض أصحابه.

«لا بأس عليك يا أمير المؤمنين»
يشق بابتسامة واهنة جانب فمه الأيسر، متمتمًا «إن يكن في القتل بأس فقد قُتِلت!»
يصمت ملتقطًا أنفاسًا تجاهد كأنها تأتيه من ثقب إبرة. ثم يردف رامقًا بنظر غائم وجوه أصحابه «أعن ملأ منكم كان هذا؟!»

استعاذات بالله من ظن السوء طمأنت قلبه الخافق واهنًا. صوت أحدهم يخبره «بل هو غلام المغيرة»
تنهد متمتمًا «قد كنت آمركم ألا تُدخِلوا علوجهم علينا فعصيتموني!»

❋ ❋ ❋

هل كان عمر بن الخطاب يقصد بسؤاله «أعن ملأ هذا منكم؟» أن يفصح عن اعتقاده أن اغتياله هو تدبير من بعض أصحابه ورفاق كفاحه؟

وارد للقارئ في تلك الواقعة أن يحسب ذلك. خاصة وإن قرن هذا بثورة الغضب التي انتابت عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ودفعته للهجوم بسيفه على الهرمزان وجفينة - أمير مسيحي من أهل الحيرة كان قد أُسِرَ وحُمِلَ إلى المدينة حيث أعلن إسلامه - وابنة لأبي لؤلؤة قاتل أبيه، وقيامه بقتلهم جميعًا. ثم إشهاره السيف في شوارع المدينة صارخًا بشكل جنوني «لأقتلن رجالاً أشركوا في دم أبي!» قبل أن ينجح سعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص في انتزاع السيف من يده والقبض عليه.

يدفع هذا البعض للظن أن عبيد الله كان يعرّض بما كان يظنه من تآمر بعض أصحاب أبيه لاغتياله. خاصة مع ما كان معروفًا من أمر عمر، ألا يسكن بالمدينة أي من غير العرب ممن لم يسلموا. واستثناء غلام المغيرة بن شعبة بعد إلحاح هذا الأخير عليه، مبررًا إلحاحه بأن للناس منافع فيما يقوم به فيروز - أبو لؤلؤة - من أعمال وصناعات. وما نُقِلَ عن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه كان - قبل يوم من وقوع الاغتيال - قد رأى فيروزًا مجتمعًا بالهرمزان وجفينة يتهامسون وبينهم سلاح الجريمة، ولما سألهم عن سلاحهم قالوا إنه سكين يقطعون به اللحم. أضف لذلك تساؤل عمر عما إذا كان قتله قد تم برأي أصحابه. وما هو معروف من أن كثيرًا من الناس - بالذات الصحابة - كانوا يستثقلون أمر عمر لهم ألا يغادروا أرض الحرمين إلا لأضيق الظروف، رغبة به عنهم من السعي وراء الدنيا وانجرافهم في سباق الثروة والنفوذ، وهو ما كان يصنفه أنه من قبيل الفتن.

ولكن المدقق في كل ما نُقِلَ عن عمر بن الخطاب، يدرك أن سؤاله في احتضاره كان مرتبطًا بما سبق أن قال يومًا لأصحابه هؤلاء، من أن الخلافة

هي كسفينة بها المسلمون، وربانها هو الخليفة، فإذا ما انحرف عن الطريق السوي قتلوه.. فلما أبدوا استغرابهم من ذكره القتل بدلاً عن العزل، أجابهم أن ذلك أردع لمن يأتي بعده أن ينحرف. والعالم بمدى قسوة ابن الخطاب على نفسه، وتماديه في محاسبتها على كل صغيرة وكبيرة، يدرك أن مغزى سؤاله سالف الذكر هو خاطر ربما قد راوده أنه ربما قد ارتكب بعض ما يرى منه رفاقه استحقاقه القتل، عملاً برأيه شديد الصرامة في مصير من ينحرف من أئمة المسلمين.

كذلك فإن القارئ لشخصية عبيد الله بن عمر، يسهل عليه إدراك أنه كان شخصًا انفعاليًا يسيطر غضبه على أفكاره وأفعاله. وقد بدا ذلك واضحًا في انحيازه بعد سنوات لجانب معاوية بن أبي سفيان في حربه مع علي بن أبي طالب، غضبًا من هذا الأخير لإفتائه بوجوب قتله جزاءً لقيامه بقتل الهرمزان وجفينة وابنة أبي لؤلؤة. فرجل كعبيد الله يصعب أن يؤخذ قوله مأخذ الجد، لسيطرة انفعالاته على عقله.

ثم لو فرضنا أن بعض أصحاب عمر أرادوا التخلص منه اغتيالاً، أفكانوا ـ وبينهم دهاة العرب ـ أن يدبروا مؤامرة أكثر إحكامًا من الجريمة الانتحارية التي تمت؟ فاغتيال رأس الدولة بين رجاله أثناء صلاة الفجر هو عمل شديد الرعونة، لو كان القاتل مجرد منفذ لتدبير أعلى منه. صحيح أن أبا لؤلؤة قد انتحر بخنجره بعد أن ضرب نحو ١٣ مصليًا في محاولته للهرب، حتى ألقى بعضهم نفسه عليه مقيدًا حركته بعباءة. ولكن من كان يضمن ذلك؟ ألم يكن واردًا أن يُقبَض حيًا ويُستَجوَب فيعترف على من دفعوه لذلك، إن كان ثمة من فعلوا ذلك؟ والقارئ في تاريخ الاغتيال يلاحظ أن أغلب جرائم «القتل في المسجد» أو بين جمع غفير من أصحاب القتيل كانت تتم بشكل انتحاري، حيث يغلب أن يُقبَض على القاتل أو أن يُقتَلَ فور تنفيذه عمله الإجرامي.

تلك النقطة الأخيرة تصلح كذلك ردًا على نظرية أخرى، تقول بأن قتل عمر بن الخطاب قد كان نتيجة مؤامرة دبرها كل من الهرمزان وجفينة. تلك النظرية التي يرددها بعض المؤرخين وهم يقرنونها بنفي أنهما قد أسلما. وهذا القول الأخير كذلك مردود عليه بتساؤل: كيف كان لقائدين سابقين في جيوش العدو أن يقيما في العاصمة، بعد أمر عمر بإجلاء غير المسلمين عنها، إلا لو كانا قد أسلما؟ فإن كان أبو لؤلؤة قد أقام بها لعلة واضحة، فإن عمر لم يكن ليسمح بمثل هذا الاستثناء لقائدين محاربين، خاصة مع ما في ذلك من اطلاعهما على ما يوصف في فقه الجهاد الإسلامي بأنه «عورات المسلمين» - أي تحصيناتهم ونقاط ضعفهم - وإن قيل إنهما كانا يقيمان بصفة أسيرين، فكيف لأسير أن تترَك له حرية الحركة والاجتماع بل وحيازة السلاح؟!

الأرجح إذن أنهما كانا مسلمين، وأن عبيد الله قد قتلهما في حالة غضب جنونية أفقدته صوابه، بعد أن سمع - ربما - قول عبدالرحمن بن أبي بكر أنه قد رآهما مع القاتل عشية الجريمة، خاصة وأنه قد قتل طفلة غير مميزة لا يصدق عاقل أنها ضالعة في مؤامرة اغتيال. فقد قتل الثلاثة إذن انتقامًا، وليس اجتهادًا منه في الرد على جريمة مروعة.

والقول بأن القتيلين - الهرمزان وجفينة - قد أسلما على سبيل التمويه ليسهل عليهما اغتيال الخليفة، هو أمر وارد، ولكن يبقى قائمًا سؤال سلف طرحه: وماذا لو كان القاتل قد قُبِض عليه حيًا واعترف عليهما؟ هل يعني هذا أن الطبيعة «الانتحارية» للجريمة تشملهما حيث قررا المجازفة بنفسيهما مقابل الانتقام ممن أذل دولتهما وأخضعها؟ أكرر: وارد. لكن كل ما يقال هنا هو فرضيات.

ولدينا هنا سؤال آخر - وليس أخيرًا - ماذا عن كعب الأحبار؟ إن الرواية التي تقول بأنه قد أنبأ عمر بمقتله، وأنه قد رأى ذلك في التوراة،

لهي مما يجعل أصابع الاتهام ترتفع في مواجهته. هل علم بالمؤامرة ـ أو شارك في تدبيرها ـ وحاول أن يضفي على نفسه جانبًا «ما وراء طبيعي» بادعاء القدرة على التنبؤ أو تفسير الغامض من محتوى التوراة؟ ولماذا يخاطر كعب الأحبار بمكانة مميزة مستقرة كان يشغلها في المجتمع المسلم ليشترك في عمل أخرق انتحاري كهذا؟

وإن لم تكن له يد في الأمر، فما تفسير ما قال لعمر؟ هل هذه الرواية كلها محض خيال من بعض ناقلي الروايات التاريخية؟ أم أن كعبًا كان يمارس سرًا بعض فنون التنجيم ـ المعروفة منذ ما قبل الإسلام ـ فصادف توقعه أمرًا واقعًا؟

أعترف أن كل تلك الأسئلة والاحتمالات تدير الرأس. وأراني ملزمًا ـ احترامًا للأمانة العلمية ـ أن أستبعد كل المتهمين سالفي الذكر، عملاً بقاعدة الإثبات «البيّنة على من ادّعى» لعدم توافر البينة بحقهم.

على أية حال، فإنه لا يبقى لنا إلا أن نفحص الجريمة باستخدام المتوافر لنا من عناصر ـ على طريقة البحث الجنائي الحديث ـ وهي: الجاني، المجني عليه، الركن المادي (العمل الإجرامي)، والركن المعنوي (نية القتل).

ـ الجاني: رجل موتور عبّر عن كراهيته مسبقًا، بقوله باكيًا وهو يربت رؤوس الأسرى من بني قومه «أكل عمر كبدي». وقام بتهديد ضحيته قبل ارتكابه الجريمة.
ـ المجني عليه: أعلن تلقيه التهديد ولكنه لم يأخذه مأخذ الجد. ويتوافر بحقه ما يدفع الجاني لارتكاب جريمته، من مسؤوليته عن مشاعر الغضب العنيفة عند القاتل.
ـ الركن المادي ـ الفعل: قيام الجاني بإعداد السلاح (سبق الإصرار)،

وانتظاره المجني عليه في المكان والزمان المعتاد وجوده فيهما (التَرَصُّد). إضافة لذلك فإن طبيعة المكان والزمان وصعوبة فرار القاتل منهما بعد ارتكابه الجريمة من ناحية، وما يبدو واضحًا من تدبيره الأمر بدقة مسبقًا من ناحية أخرى، يؤكدان أنه كان يدرك أنها عملية انتحارية لن يخرج منها حيًا، أو على الأقل حرًا. رغم أنه كان يستطيع أن يدبر اغتيالاً أقل خطورة عليه، كالتربص بعمر وهو يعس ليلاً في شوارع المدينة، حيث كان يدور وحيدًا أو مع واحد أو اثنين من رفاقه. وهو بالتأكيد أضمن لنجاة القاتل من تنفيذه الاغتيال في مسجد مزدحم وقت صلاة الجماعة.

ـ الركن المعنوي ـ النية: توافر سبق الإصرار والترصُّد وتوجيه الطعنات ـ بعضها على الأقل ـ لمواضع قاتلة في جسد المجني عليه، يؤكد نية القتل. ويؤكد قوله «لأصنعن رحى تتحدث بها الناس» أنه كان يرغب في إضفاء طابع «دعائي» لعمله.

كل هذا يؤكد أن هذا العمل ينتمي لما يوصف بـ«جريمة الكراهية»، وهو نوع من الجرائم يغلب على مرتكبه ميل للدعائية من ناحية، والانتحارية من ناحية ثانية، والمحرك العنصري أو العقائدي من ناحية أخرى.

تعال ننظر في تلك الجريمة من وجهة نظر القاتل: فهو رجل ينتمي لدولة قوية انهارت أمام ضربات دولة كانت أضعف، بل وكانت تحت سيطرة دولته الكبرى. ثم أُخِذَ عبدًا لعاصمة تلك الدولة ليعمل في خدمة أناس كان بنو قومه يرونهم أقل شأنًا. ورأى قيادات وأشراف بلاده يُحَمَلون أسرى، فانفجر غضبه دافعًا إياه ليس لمجرد اغتيال رأس الدولة المنتصرة، بل قتله في قلب مقر الحكم ـ حيث كان المسجد مكانًا للصلاة والمشاورات ـ بين أصحابه في عاصمة حكمه. تلك هي «الرحى التي يتحدث بها الناس»، أن الخليفة عمر، الذي يتحدث المشرق والمغرب بانتصارات جيوشه، قد اغتاله غلام

فارسي في المسجد بين رجال دولته. أي أنه قد قصد كل خطوة فيها قام به، ولم يقم بخطوة واحدة عفوية أو ارتجالية.

وبصرف النظر عن نجاح غرضه الدعائي من عدمه، فإن العمل قد تم وكان ما كان.

* * *

●

الكراهية العنصرية بين العنصرين العربي والفارسي - باستثناء من اندمجوا من الفُرس في الدولة الناشئة، وساهموا بإنجازاتهم العظيمة في ازدهارها في مختلف المجالات، ومن ارتقوا من العرب على النعرات القومية وتقبلوا مختلف العناصر المكونة للمجتمع - هي مما تتكرر مظاهره في التاريخ المشرقي، وبعكس ما يحب بعض المؤرخين المسلمين اتخاذه تفسيرًا من أن الكراهية من قِبَل بعض الفرس للعرب هي «حقد على الإسلام والمسلمين»، فإن تلك المشاعر العدائية متوافرة منذ ما قبل الإسلام، منذ قيام الفُرس بإخضاع عرب العراق والمناطق المتاخمة لدولتهم بالجزيرة، و«تدجينهم» وإقامتهم «دولة وظيفية» هي دولة المناذرة، لتكون بمثابة مخلب القط الفارسي في المنطقة العربية. وقد كانت الأوجه العنيفة منها تظهر من حين لآخر كقيام السلطات الفارسية بإسقاط دولة المناذرة، وقتل ملكها النعمان بن المنذر، بعد أن تمرد على طلب مهين من الملك الفارسي؛ أن يرسل الملك العربي بعض نساء بيته لينضممن لحريم كسرى، أو كمعركة «ذي قار» بين قبائل عربية تمردت أخيرًا على السطوة الفارسية، واستطاعت أن تهزم جيش الفُرس شر هزيمة، وهو ما نُقِلَ عن الرسول محمد تعليقه عليه بأنه «يوم انتصف فيه العرب من العجم».

وستطل تلك الكراهية برأسها بعد ذلك خلال التاريخ الإسلامي الطويل، سواء في انتقاص النظام الأموي من حقوق غير العرب - حتى

المسلمين منهم، ما سيدفع الفُرس منهم للانضمام للدعوة العباسية التي أسقطت الأمويين - أو في حالة التَحَزُب الفارسي العربي - والتي انضمت لها العناصر التركية كمنافس ثالث - خلال العصر العباسي. وحتى الصراع الإيراني العربي الحالي يعتبره البعض - ومنهم كاتب هذه السطور - حلقة من الصدام الفارسي العربي، وإن أخذت شكلاً طائفيًا. ولكن على أية حال هذا أمر يطول ويخرج بنا عن موضوع الكتاب.

لكل ما سبق، فإن اغتيال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، إن صُنِّفَ بين أنواع جرائم الاغتيال السياسي، فإنه يضع هدفه - عمر - كأول ضحية لأول جريمة عنصرية في التاريخ الإسلامي. وإن كان المؤرخون المسلمون لم ينظروا له من تلك الزاوية، فإن هذا ليس مما يؤخذ عليهم، فكثيرًا ما يحتاج تفسير بعض أحداث التاريخ لأن يمضي من الوقت ما يكفي، لتتشكل الصورة كاملة أمام عيني المدقق فيها.



عثمان بن عفان

أول خليفة ظالم أم أول مظلوم؟

المدينة - ١٧ يونيو ٦٥٦م

شوارع المدينة تموج بالرعب. الرؤوس تتقارب وتتباعد متبادلةً همسات الإشفاق مما هو آتٍ. ترمق الغرباء المسلحين يطوفون بالطرقات، وهم يوزعون على أهل البلد - الذي كان آمنًا - نظرات التحدي.

أربعون يومًا حل فيها صليل السلاح محل الحوار، والجنون محل التعقُّل، والعبث محل المنطق. والخوف من وراء كل ذلك محيط.

جاءت ريح السَموم من البصرة والكوفة ومصر، حاملة خبثها حدًا وحديدًا ورجالاً. دمدمت في جنبات المدينة وتمركزت حول دار الخلافة. لم تردعها عن اقتحامها سوى حلقة شبابية محكمة، أحاطت بالدار وأشهرت السلاح في وجه المعتدين، منذرة من يجسر على مجرد التفكير في حماقةٍ ما بسوء المصير.

لم تقدر الجموع الوافدة إلا على محاصرة الخليفة في بيته، مانعة عنه الطعام والشراب، حتى لم يعد يصلها إلا بالتحايل والمناورة.

فوق السطح المحاط بجحافل النقمة، يقف شيخ نحيل وقد علت وجهه المليح - الذي يحمل أثرًا لجدري قديم - علامات الألم. يتحسس بلسانه فمه

اليابس عطشًا مسترجعًا يومًا بذل فيه خير ماله يشتري بئرًا طالما سقت عطشى البشر والدواب. تحسس مواضع قدميه متقيًا التقدم لطرف السطح، خشية حجارة اعتاد المهاجِمون رشقه بها عند رؤيته. قرقرت معدته جوعًا لبعد عهدها عن الطعام، بعد أن شدد عليه الثائرون به الحصار. رمق حفنة المدافعين عن حرمة داره.. الحسن والحسين ابنا علي. محمد بن طلحة بن عبيد الله. عبدالله بن الزبير. وآخرون لا يميزهم. يتصارع فيه شعوران، إشفاقه على شبابهم من سيوف لا تبالي بحرمة الدم فضلاً عن حرمة مدينة الرسول. وإكبار لشهامة من جعلوا خلافهم الحاد معه نقرة، ورد المجترئين عليه نقرة أخرى.

ما زال الهواء يحمل رائحة قيام المحاصِرين بحرق باب الدار في محاولة لاقتحامها، غضبًا لمقتل أحدهم بحجر في مناوشات مع المدافعين.

- «الخلع أو القتل يا عثمان!»
- «ما كنت لأخلع قميصًا قمصنيه الله!»
- «أخرج لنا مروان!»
- «ما كنت لأسلم ابن عمي!»
- «أليس البعير الذي استوقفنا لك؟»
- «بلى ولكن خرج بغير طلبي!»
- «والغلام أهو لك؟»
- «بلى ولكن أُرسِل بغير رأيي»
- «والكتاب الذي فيه أمرك عمالك على مصر والبصرة والكوفة بقتلنا وصلبنا وضرب أجسادنا، أهو كتابك؟»
- «اللهم كُتِبَ بغير علمي!»
- «قد عرفنا خط مروان بن الحكم في الكتاب. فأسلمه لنا تسلم»

- «وأنا قد قلت لا أسلم ابن عمي!»
- «أنت إذن إما كاذب وإما عاجز! اعتزل أو ليس بيننا وبينك إلا السيف!»

نزل عن سطح الدار، وهو يسترجع إلحاح معاوية عليه، قبل رحيل هذا الأخير إلى ولايته بالشام:
- «أرسل لك جندًا يكونون لك وقاية!»
- «تضيق بهم مدينة رسول الله وأهلها»
- «إذن ترتحل معي إلى الشام»
- «لا أترك دار الخلافة!»
- «فلتلحق بمكة إذن!»
- «يطلبونني فينتهكونها!»
- «ستُقتَل ونُعَيَّر بك!»
- «إن قُتِلت فأنت وليّ دمي!»

كان يحسب من ثاروا عليه إنما يطلبونه وحده، ولا يؤذون أهل المدينة، لكنهم دهموا المدينة وحصروا أهلها في دورهم. حتى أصحاب الرسول لم يوقروهم. هذا عبدالله بن سلام ينذرهم «إن أمر المسلمين يستقيم بالدرة، فإن دخل فيه السيف لم يستقم إلا بالسيف!» فضربوه وأهانوه وصاحوا به «يا ابن اليهودية!» معرضين بدينه السابق. أخيرًا لم يجد إلا أن يرسل لمعاوية يستغيثه أن ينجد المدينة بجند الشام. لكن المسافة بعيدة. والقرار قد تأخر كثيرًا. أكثر مما ينبغي.

دخل إلى غرفته وهو يرمق زوجه نائلة بنت الفرافصة، مشفقًا عليها من مصير مجهول. المسكينة. لكأنما جاءت من بلادها لتواجه معه حصارًا ونارًا ومصيرًا لا يعلمه إلا الله.

أغلق الباب عليه وجلس مطرقًا. تناول مصحفه وفتحه، محاولاً الهروب إلى آيات الله من أصوات المحاصِرين المزعجة، وهواجسه الأكثر إزعاجًا.

* * *

فغر الباب فاه مبتلعًا الرجال الثلاثة في جوفه ثم انغلق عليهم. وثبوا يتسلقون السور إلى دار مجاورة. دار الخليفة.

شقوا طريقهم متسللين في صمت، حتى سمعوا صوتًا خافتًا يقرأ القرآن، فأشار أولهم لرفيقيه هامسًا «إن امرأته بالدار فالزموا مكانكما أنظر لكما الطريق. فإن كان منفردًا بادرناه بسيوفنا ثم فتشنا عن مروان لنلحقه به» أومآ برأسيهما والتصقا بالجدار متدثرين بالظل. استل سلاحه وسار متحسسًا طريقه الذي وصفه له صديقه محمد بن حذيفة، ذلك الفتى الذي رباه عثمان في حجره بعد موت أبيه، فلما تولى مربيه الخلافة طلب محمد منه أن يوليه عملاً فأبى، فغضب الفتى وهجر ولي نعمته وانضم للمنقلبين عليه.

بلغ باب حجرة عثمان، فكتم أنفاسه يتأكد أن أحدًا لم يحس تسلله ومن معه، حتى إذا اطمأن لذلك دفعه بقدمه واثبًا على الشيخ المتربع بين يديه المصحف. لم يدر عثمان إلا ومحمد بن أبي بكر واضعًا ركبته على صدره جاذبًا بعنف لحية الشيخ الفاني.

«يا عثمان! ماذا فعل الله بك؟!» صاح به متشمتًا.

رفع إلى الشاب عينين لا تطرفان، وقال بصوتٍ قد خلا من أي أثر للخوف من النصل الملصق بعنقه «يا بن أخي. لم يكن أبوك ليرضى منك بهذا الموضع!»

وكأنما صب الشيخ ماءً باردًا على جمرة مشتعلة بصدر الفتى، الذي أخذته رعدة عاتية دفعت أصابعه للتراخي عن لحية فريسته. تراجع والأرض تميد

به وقد ملأت الفراغ أمامه صورة أبيه يرمقه غاضبًا. تراجع خطوة إلى الوراء فاصطدم برفيقيه اللذين تبعاه فور اقتحامه خلوة الخليفة، فالتفت لهما رافعًا يدًا مرتجفة تستوقفهما. هوت صرخة نائلة على كيانه وقد استدعاها صوت الغدر. لم يدر أحد متى ظهرت لترمي جسدها على زوجها تقيه الخطر. تلقى محمد دفعة قوية من كتف أحد رفيقيه وهما يثبان على الضحية المستكينة، ويزيحان المرأة المولولة جانبًا. مدت كفها باستماتة فأطاح سيف بأصابعها، لتصفع الأجزاء المبتورة الدامية وجه ابن أبي بكر الذي مزق كيانه صوت النصال وهي تشق الجسد النحيل، وتوقع بدم الخليفة على صفحات مصحفه الشاهد على الجريمة.

❊ ❊ ❊

لطمة عاتية هوت على وجه الحسن، ثم ضربة لا تقل قوة كادت تحطم صدر الحسين. مد محمد بن طلحة يده محاولاً إيقاف العاصفة البشرية التي داهمتهم، فانهالت عليه وعلى عبد الله بن الزبير لعنات الرجل المشتعل غضبًا كبركان.

«كيف قُتِلَ أمير المؤمنين وأنتم وقوف؟!» بصقها علي بن أبي طالب في وجوه علتها الحسرة، فاستجمع ابن طلحة نفسه مجيبًا «يا أبا الحسن لا تلطم ولا تسب ولا تلعن. فوالله لقد بذلنا ما في وسعنا. ولو دُفِع مروان لهم ما قُتِل».

رفع إليه عينين زائغتين ثم أزاحه جانبًا مهرولاً إلى داخل الدار المكلومة بفقد سيدها الجليل، وهو يكتم ألمًا عاتيًا محتشدًا في غصة تكوي جوفه حتى الاحتراق.

❊ ❊ ❊

تتحطم أقفال الصندوق المغلق ويرتفع غطاؤه، فتنطلق الشرور التي كانت حبيسته تعيث في جنبات الأرض. والأرض.. الأرض تهتز لهول الحدث العظيم.

تُسكِر نشوة الدم المتمردين، فيهتاجون بها حينًا، ثم تذهب السكرة فيعقبها الندم والإشفاق من هول ما ينتظرهم من مصير إن أصابتهم غضبة أهل المدينة المكلومين في خليفتهم. تتقارب رؤوس الفتنة وتتباعد، وقد استقرت على أن تلك النار التي أوقدوها يجب أن تزداد اتقادًا، وإلا اتحد الجميع ضدهم. يتفقون أن لا بد من خليفة بديل يؤتى به فورًا فيحتمون به. يهرعون إلى طلحة بن عبيد الله يعرضونها عليه فيتبرأ منهم، فينطلقون إلى الزبير بن العوام يلتجئون إليه فيطردهم. كيف العمل إذن وقد علم الجميع أن الرجلين لم يكونا ليرضيا عن قتل عثمان؟ أخيرًا يسقط في أيديهم فلا يجدون إلا أن يحتموا بعلي بن أبي طالب. علي؟ إنها فكرة مجنونة ومخاطرة بالغة، فعلي أخطر الثلاثة، وقد كان أشرس مدافع عن عثمان، ولو قدر عليهم لأوقع بهم وقعة عظيمة. ولكن.. أين الفرار من الأسد إلا لعرينه؟ ذهبوا من فورهم إليه وألحوا وقد لعبوا على وتر أن أمة بلا خليفة هي أمة ضائعة. أخيرًا يوافق ولكن على شرط أن تكون بيعته علنية على رؤوس الأشهاد. يتشدد في شرطه فلا يسعهم إلا قبوله، فيقف على المنبر وتؤخذ له البيعة من الناس، فيتضح لهم الفخ الذي أوقعهم به. فببيعة الناس قد صار جليًا أن شرعية خلافة ابن أبي طالب مستمدة من الرعية، وليس من جرمهم المشهود أو قوتهم المسلحة. وأن وقتًا يسيرًا يفصلهم عن قطع رقابهم جزاء بما فعلوا. يتبادلون النظرات وقد أدركوا أن عليًا المخضرم لن يكون دمية في أيديهم. وأنه لا بد آخذهم بدم عثمان فور استقرار الأوضاع. على الأوضاع إذن ألا تستقر. عادت الرؤوس المثقلة بالإثم تتقارب وتتباعد، وقد أضمر أصحابها الأمر. بايعوا الخليفة الجديد وفي القلوب السوداء ما بها. انطلق

بعضهم إلى البصرة وبعضهم إلى الكوفة واستقر البعض الآخر في المدينة، وقد اتفق أهل الجهات الثلاث على التراسل والتدبر سرًا. هكذا دارت رحى الفتنة.

في مكة هبت عائشة بنت أبي بكر ـ أم المؤمنين ـ تدعو لطلب دم عثمان. في دمشق نصب معاوية قميص الخليفة المقتول والأصابع المبتورة لزوجه على المنبر، وحوله الناس يبكون ويتوعدون. في المدينة بدأ علي في تدبير أمر استقرار الدولة لإطفاء نار الفتنة توطئة لمعاقبة المتآمرين. هكذا عرف هؤلاء الأخارى أعداءهم، فازدادوا إصرارًا على تغذية النار كيلا تُطفأ بدمائهم.

* * *

يعد قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، واحدًا من أكثر أحداث التاريخ الإسلامي إثارة للجدل، بين متعاطف مع عثمان أو متحامل عليه. وبينهما من يرفض قتله لكنه يرجعه لسوء سياساته في النصف الثاني من خلافته.

فقد حكم عثمان ١٢ سنة، شهد نصفها استقرارًا وهدوءًا للأوضاع، بينما اشتعل نصفها الآخر بالأحداث العنيفة ماديًا ومعنويًا.

السؤال هو: ما الذي جعل من ابن عفان هدفًا لنقمة الناقمين، ودفع الأمور للتطور بهذا الشكل الدرامي المريع، الذي بلغ حد قتل خليفة في جوف داره؟

والسؤال الآخر: كيف يمكن أن نفرق بين من «عارضوا» عثمان ـ مجرد المعارضة السلمية ـ ومن «تمردوا» ضده بشكل مسلح بلغ حد إهدار دمه؟

يتطلب هذا منا أن نراجع تفاصيل المسائل الخلافية التي أثارها عهد الخليفة عثمان بن عفان.

* * *

بدايةً، كان عهد عثمان بمثابة «نقلة» من مرحلة في تاريخ الخلافة لمرحلة تالية، فالمرحلة الأولى تميزت أولاً بصرامة السلطة المركزية، الممثلة في نظام عمر بن الخطاب الذي كان متشددًا في بعض الأمور، كالرقابة على ولاته، وتوزيع الثروات الواردة على الدولة من حركة الفتوحات الكبرى، وتنقلات كبار الصحابة خارج المدينة. وثانيًا تميزت بانشغال الدولة والمجتمع بعمليات التوسع والغزو. وثالثًا فقد كانت النعرات القبلية السابقة قد تراجعت، مؤقتًا، وأخيرًا فقد تميزت كذلك بتَصَدُّر الأسماء البارزة من كبار الصحابة للوظائف والمهام القيادية، بالذات الولايات على «الأمصار» كمصر ومدن العراق والشام، وقد كان أغلبهم قرشيين بطبيعة الحال.

أما بداية المرحلة التالية التي افتُتِحَت بعهد الخليفة الثالث، فقد امتازت أولاً بالتخفف الشديد من سيطرة السلطة المركزية على أعمال الولاة، وثانيًا بتغيير السياسات المالية، وتخفيف كثير من قيود التعامل مع المال العام، وثالثًا بإحداث تبديل في وجوه الولاة وممثلي السلطة، ورابعًا بتوقف ـ مؤقت ـ لعمليات الغزو والتوسع، ما رتب حالة من الالتفات المجتمعي لأحوال الداخل، وخامسًا ببروز الزعامات السياسية، سواء كانت من بعض الصحابة، أو من الزعامات القبلية التي عادت أطماعها في مزاحمة قريش على تصدر المشهد للإطلال برأسها، وأخيرًا نشأت ظاهرة تكدس الثروات، نظرًا لتفرغ المنشغلين سابقًا بأعمال الغزو لممارسة التجارة والأنشطة المالية.

تلك التغيرات لم يكن بعضها منفصلاً عن بعض، بالعكس فقد ترتب كل تغير منها على الآخر وارتبط به. ولأن أي تغير سياسي مجتمعي لا بد أن يحدث خلخلة في استقرار الدولة، فقد كان من الطبيعي أن تنشأ فئة معارضة لتلك التوجهات، إما عن رفض لفكرة التغيير ذاتها، وإما لبعض التغييرات كل على حِدة، أو لرغبة في استغلال هذه الظروف لتحقيق مكاسب شخصية أو فئوية.

وفيما يلي تفصيل لأبرز تلك التغيرات المثيرة للجدل.

ـ الولاة:

بعد فترة من استقرار نسبي للولاة المرتبطين بعهد عمر بن الخطاب في ولاياتهم، قام عثمان بن عفان بحركة تبديل لأصحاب تلك المهام. فعيّن الوليد بن عقبة بن أبي المعيط على الكوفة، وولى عبدالله بن عامر على البصرة، وعبدالله بن أبي السرح على مصر، وأضاف الأردن وفلسطين لمعاوية بن أبي سفيان زائدة على ولايته على الشام منذ عهد عمر. وجعل مروان بن الحكم بن أبي العاص مستشارًا له.

ذلك التبديل أثار لغطًا كبيرًا، أولاً لأن هؤلاء الولاة كانوا من بني أمية، بل وكان بعضهم من أقرب بني أمية، فعقبة أخو عثمان لأمه، وابن أبي السرح كان أخاه في الرضاعة، ومعاوية ومروان كانا ابني عمومته.

ثانيًا فإن بعض هؤلاء الولاة كانت لأشخاصهم انتقادات قاسية، فعقبة بن الوليد كان من فئة «الطلقاء».. أي أهل مكة الذين عُفِيَ عنهم بموجب قول الرسول محمد «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وكانت له حادثة شهيرة حين أرسله الرسول لجمع صدقات بني المصطلق، فخشي على نفسه فرجع إلى المدينة مدعيًا أنهم منعوها، فجهز النبي حملة تأديبية لبني المصطلق، ثم رجع عنها بعد أن علم بكذب الادعاء، ووصف القرآن عقبة بـ«الفاسق» في الآية «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا»، فضلاً عما عُرِفَ عن عقبة من أنه لم يكن على القدر المطلوب من الالتزام السلوكي.

وعبدالله بن أبي السرح كان كاتبًا للوحي، ولكنه ارتد وهرب إلى مكة معلنًا أنه كان يحرف ما يُملَى عليه، فأمر الرسول بقتله عند فتح مكة لكنه ـ عبدالله أعلن عودته للإسلام، وشفع له عثمان فقبل النبي شفاعته.

وعبدالله بن عامر كان شابًا لا يتجاوز عمره الخامسة والعشرين، حل محل رجل مجرب خبير هو أبو موسى الأشعري. فأثار ذلك سخط الناس.

ومروان بن الحكم كان متغطرسًا فجًا شديد الرعونة، عُرِفَ بإثارة المشكلات.

إضافة لكل ما سبق، فإن تقديم عثمان لبني أمية في الولايات قد استفز كثيرًا من الصحابة، لما استشعروه من أن ذلك من قبيل التعصب القبلي، وتأسيس «فئة حاكمة» لا تقوم على الكفاءة بل تقوم على العصبية والنسب. وهو ما نُقِلَ عن عمر بن الخطاب أنه ـ في وصيته عند احتضاره ـ قد حذر عثمان منه إن هو تولى الخلافة، وقال له «لا ترفع بني المعيط ـ كناية عن بني أمية ـ على رقاب الناس»، بل وأنذره أنه إن فعل ذلك فسيعرض نفسه للثورة والقتل.

ـ بيت المال:

المسألة الخلافية الثانية كانت سياسات عثمان في بيت المال، فبينما كان عمر شديد الصرامة في ما يتعلق بالمال العام، أبدى عثمان ما رآه «مرونة»، فكان يسمح أحيانًا بأن يقترض بعض ولاته من بيت المال ثم يردوا ما اقترضوا منه. فكان الصحابة يرفضون ذلك خوفًا من اختلاط المال العام بالخاص، وما قد ينشأ عنه من حالات اختلاس وضياع للأموال العامة، بينما كان عثمان لا يرى بأسًا في ذلك ما دام المقترض التزم الرد.

كذلك كانت هبات عثمان لبعض قرابته تستفز المعارضين له، فكانوا يتهمونه بأنه يهب لهم من «مال المسلمين»، بينما كان يؤكد أنه إنما يهب من حر ماله. ولكنه كان يقصر في تبيين ذلك في حينه، ما فتح الباب على مصراعيه للتشكيك في ذمته المالية.

ـ الثروات:

ومن أبرز مسائل الخلاف مع عثمان، كانت مسألة تكدس الثروات. فقد سمح عثمان بعمليات «تبديل الأراضي». ومعنى تبديل الأراضي ـ اختصارًا ـ هو أن بعض الناس كانت لهم أراضٍ في البلدان المفتوحة، حازوها بحكم اشتراكهم في الفتوحات، ولهم أراضٍ أخرى في الجزيرة العربية. فكانت متابعتهم أراضيهم هنا وهناك تمثل عبئًا ثقيلاً عليهم، فسمح لهم عثمان باستبدال الأراضي، بحيث يتمكن من يرغب منهم في ذلك من جمع ملكيته للأراضي في مكان واحد أو أماكن متقاربة. وترتب على ذلك أن استفادوا من فارق القيمة، وكذلك من مضاعفة الإنتاج نظرًا لزوال أعباء متابعة أراضٍ متفرقة.

إضافة لذلك، فقد أدت عمليات التغيير في سياسات توزيع المكتسبات المالية من الفتوحات السابقة، لحالة من الغيرة بين الفئات المختلفة، إذ كان بعضها يرى أن هذه السياسة أو تلك قد ظلمتهم لصالح غيرهم، وهكذا.

هذه المسألة بالذات أعادت النعرات القبلية والعشائرية للبروز. إضافة لأن بعض الصحابة ـ وعلى رأسهم أبو ذر الغفاري ـ قد رأوا مشكلة في الثراء ذاته، حيث كانوا يدعون لتقسيم الثروات بشكل متساوٍ بين الرعية، وهذا بأخذ فضل أموال الأغنياء وتوزيعه على الفقراء، بحيث لا يمتلك إنسان أكثر من حاجته، وهو ما عارضه كل من عثمان والطبقة الثرية الناشئة، فعثمان قد رأى في ذلك سلبا للأموال بغير الحق، والأثرياء قد رأوا فيه تهديدًا لمكانة استحقوا اكتسابها. وبقي أبو ذر يثير المشكلات بهذا الشأن في الشام، فشكاه واليها معاوية لعثمان الذي استدعاه للمدينة ثم نفاه خارجها محددًا إقامته.

ـ مسائل خلافية متفرقة:

إضافة لكل ما سبق، فإن ثمة قرارات وسياسات قد عابها معارضو عثمان عليه.

أولها كانت قضية عبيد الله بن عمر بن الخطاب، الذي ثار فقتل جفينة والهرمزان وابنة صغيرة لأبي لؤلؤة قاتل أبيه. فاستشار عثمان الصحابة بشأنه، فقال علي بوجوب قتله قصاصًا، واستنكر البعض ذلك قائلين «يُقتَل عمر بالأمس وابنه اليوم؟»، فرأى عثمان أنه ولي الدم بصفته الخليفة ـ لأن من قُتِلوا لا أهل لهم ـ فقضى بالدية ـ كما لولي الدم شرعًا أن يقضي ـ ودفعها من ماله. فانتقد خصومه ذلك ورأوه تجاوزًا للتشريع القرآني في القتل العمد.

ثانيها كان سماحه للحكم بن أبي العاص الأموي ـ أبي مروان بن الحكم ـ بالرجوع للإقامة في المدينة، وكان الرسول محمد قد نفاه للطائف لإيذائه إياه. فلما تولى عثمان الخلافة أرجعه من منفاه بطلب ابنه مروان.

ثالثها كان قيام عثمان بجمع المصحف، وهو عمل كان أبو بكر قد بدأه، ثم تبعه في ذلك عمر بن الخطاب، فلما استُخلِفَ عثمان بن عفان قام بجمع مصحف موحد على قراءة واحدة، خوفًا من تحريف القرآن بحكم اختلاف لهجات القبائل.

رابعها كان ما سلف ذكره من نفيه أبا ذر الغفاري، ثم احتداده على عمار بن ياسر إلى حد قيامه بضربه حتى أصابه فتاق. فغضبت قبيلة غفار لأبي ذر، وغضب بنو مخزوم لعمار بن ياسر الذي كان من مواليهم، وانضمت كلتا القبيلتان لجبهة المعارضة.

* * *

كانت تلك السياسات من أبرز ما جعل الخليفة هدفًا لسهام الانتقاد القاسية، التي مست مسائل أخرى شخصية وعامة ـ يضيق المجال عن تفصيلها ونحيل في شأنها لكتب التاريخ ـ إذ رأى من انتقدوه أنه قد خالف ما تعهد به عند مبايعته أن يلتزم منهج الشيخين ـ أبي بكر وعمر ـ وألا يغير فيه شيئًا.

ولا نغفل ـ إضافة لذلك ـ بعض «العوامل المُساعِدة»، كاستغلال بعض القبائل والعشائر تَكَوُّن جبهة معارضة قوية، لتصفية حساباتها مع قريش ممثلة في عثمان، آملة أن تؤدي الإطاحة به للإطاحة بسطوة قريش برمتها.

وحساسيات البعض تجاه عثمان، كعمرو بن العاص الذي أغضبه عزله إياه عن مصر، والسياسات المالية الاستنزافية التي اتبعها خلفه عبدالله بن أبي السرح، في تلك الولاية التي يتعلق بها ابن العاص بشكل واضح. أو كمحمد بن أبي حذيفة ـ ربيب عثمان ـ الذي كان يطمع في أن يوليه عملاً فلما رفض انشق عنه، أو كمن رأوا أن علي بن أبي طالب كان أحق بالخلافة، وعلى رأسهم عمار بن ياسر وأبو ذر الغفاري ومحمد بن أبي بكر، وفسروا اختيار عثمان خليفةً، بأنه ميل من طبقة التجار والأثرياء لمن هو «منهم» بشكل أو بآخر.

وإن كانت ثمة ملاحظة في تفاعُل عثمان مع تلك الانتقادات، فهي أن رده عليها كان يتسم بالبطء والتأخُر والضعف. ولم يكن يستبق الأحداث، فيقدم لكل عمل منه تفسيره وتبيينه على الملأ كما كان سلفاه يفعلان. فكان هذا مما يفتح الباب للمتربصين به أن يشككوا فيه، سواء من ناحية الكفاءة أو الأمانة، رغم أن تاريخه السابق ينفي عنه أية انحرافات من هذا القبيل.

وهذا بالتأكيد مما يعيب سياسة عثمان، الذي يبدو جليًا أنه كان حسن النوايا بشكل مفرط، ومؤذٍ.

وإن كان دفاع عثمان عن نفسه قد تأخر، فإنه يستحق النظر، بل وربما يجد القارئ له في كتب التاريخ ما يلتمس منه العذر للرجل.

فعن ولاته، فسر موقفه بأن من حق الخليفة أن يعين من يراه ملائمًا من وجهة نظره لتنفيذ سياساته. وأن هؤلاء القوم من قرابته سيحرصون على إدارة العمل بشكل لا يسيء له. وعن أشخاص بعضهم ممن نالته الانتقادات، فقد كان التبرير هو أن هذا عهد مضى منهم وأنهم قد تابوا وأحسنوا.

وعن سياساته المالية، أكد عثمان أنه لا يهب إلا من ماله حبًا وصلة لقرابته، وحلف للناس على ذلك، وأنه في شأن الاقتراض من بيت المال إنما قد مارس حقه في الاجتهاد، بما لا يراه يضر بمال المسلمين.

وعن رده الحكم بن أبي العاص، قال إنه كان قد حدث الرسول في شأنه وحصل منه على وعد برده من المنفى، لكن وفاة الرسول حالت دون ذلك، ففعله هو بما له من حق كخليفة للرسول.

وأما جمع المصحف، فقد كانت علة ذلك هي ما جرى من تعصب أهل كل قراءة لقراءتهم، إلى حد التضارب والتشاتم والتكفير، فجمع القرآن على لهجة قريش، ووحده كيلا يحرفه اختلاف الألسنة واللهجات.

وبصرف النظر عن مدى اقتناع القارئ بمبررات عثمان من عدمه، فإنها تستحق النظر، وإن كان بعضها ـ كتقديمه بني أمية ـ يؤكد القول بأنه كان حسن النوايا إلى حد الإفراط الضار، سواء بالدولة أو بنفسه.

* * *

جدير بالذكر أن معارضة عثمان بن عفان كان أولها جهرًا، وهو ما كان من قِبَل بعض الصحابة كعلي بن أبي طالب وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وغيرهم، وهي معارضة كانت ـ على حدتها أحيانًا ـ بناءة واضحة. ولكن تلك التي أشعلت الأوضاع وأثارت الفتن كانت المعارضة التي أخذت شكل الحركة السرية.

فهذه الفئة من خصوم الخليفة، كانت قياداتها قد أضمرت أمرها سرًا بين مصر والكوفة والبصرة، والتقت في مكة ـ وبصحبة كل منهم أتباعه ـ بحجة أداء العمرة، ثم انطلقت حشودهم للمدينة تباغتها بثورة عاتية في العام ٦٥٥م ـ ٦٥٦م، رافعة مطالبها التي كانت رفع ما شكوا منه من مظالم، وتحسين السياسات المالية بما يحقق ما رأوه عدلاً، وعزل الولاة المغضوب عليهم شعبيًا وتعيين من يوافق أهل كل بلدٍ عليه من الولاة، وبعض المطالب المتعلقة بالبعوث الحربية الخارجية.. وأظهروا التهديد بما لا تحمد عقباه إن لم يُستجب لتلك المطالب.

وتوسط علي وبعض الصحابة لتحقيق التفاهُم حول تلك المطالب بين الفريقين: فريق الخليفة وفريق المتظاهرين عليه.

أبدى عثمان اللين، فأعلن موافقته على مطالب الوافدين عليه، ووقف على منبر المسجد النبوي يعلن براءته مما نسب إليه، وتوبته إن كان قد أخطأ. وبهذا بدا أن الأزمة في طريقها للانفراج.

ولكن لم يكد الناس يتنفسون الصعداء، حتى استوقف بعض الثائرين غلامًا مملوكًا للخليفة، كان ينطلق على بعيره متوجهًا لمصر، وفتشوه ليجدوا معه كتابًا يأمر والي مصر بالقبض على من يرجع له من متمردي ولايته، وأن يعاقبهم بالضرب والقتل والتنكيل. فواجهوا عثمان بتلك الرسالة فنفى أن يكون قد كتبها أو أرسلها. ولأن بعضهم قد ميز خط مروان بن الحكم بها، فقد استنتجوا أنه هو من استغل غفلة من الخليفة فأرسلها من تلقاء نفسه، متسلطًا بشكل فج على أعمال الخلافة. فطالبوا عثمان بتسليمه لهم لينظروا في أمره، فرفض ذلك، وإن كان لم يقره على ما ارتكب.

هنا عاد الوضع للاشتعال، خاصة وقد حرص من لديهم خلاف شخصي مع الخليفة أن يستغلوا تلك الواقعة، لزرع فكرة أن ليس بين الثائرين وبين الخليفة إلا العزل أو القتل. وسخط ناصحو عثمان ـ وعلى رأسهم علي بن

أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام - من تسلط قريبه مروان بن الحكم عليه، وتحكمه في ما لا يحق له التحكم به، ففارقوه واعتزلوه، وإن حرصوا على الدفاع عنه ضد أي مساس بشخصه.

وهكذا انطلقت كرة النار تدور وتلتقم ما أمامها وتنثر النار حولها، حتى بلغت المأساة فصلها الدامي بقتل الخليفة الثالث، وتمزيق جسده في قلب بيته.

* * *

مشكلة التناول التاريخي لأحداث الخروج على الخليفة عثمان بن عفان وحصاره وقتله، أنه كثيرًا ما يكون عرضة لـ«الأدلجة» - أي التأثر بالفكر الذي يعتنقه الكاتب فيها - بين من يرى فيها صراعًا طبقيًا أو صدامًا بين فكر اشتراكي يمثله معارضو عثمان، وتوجه رأسمالي تمثله الدولة، أو فكر ثوري متعصب يبجل أي خروج مسلح على الدولة، بصرف النظر عن مشروعيته ودوافعه وأحداثه ونتائجه، أو فكر ديني يُجَرِّم أي تحركٍ معارض باعتبار أنه «خروج على الحاكم» الذي يؤمن هؤلاء أن حقه على الرعية السمع والطاعة، ولو أخذ مالهم وضرب ظهورهم، أو توجه لإضفاء الملائكية المفرطة على كل الأطراف، وتفسير أية صراعات داخلية في المجتمع الإسلامي أنها «مؤامرة خارجية من أعداء الإسلام»، كهؤلاء الذين اختصروا أسباب الأحداث الموصوفة بـ«الفتنة الكبرى» في شخص لا يمكن تأكيد وجوده من عدمه، هو «عبدالله بن سبأ» الذي حتى لو كان حقيقيًا فإنه لا يقدر وحده على تحريك كل تلك الأحداث، كأنما هو يد القدر مثلاً!

هل كان عثمان خليفة ظالمًا استحق ما أصابه؟ أم كان مظلومًا على طول الخط تكالبت الظروف ضده؟ الواقع أنني - مع احترامي لمختلف الآراء -

أرى رأيًا وسطًا بين هذا وذاك، هو أن الخلافة إن كانت تتطلب ـ وفقًا لمعاييرها التي وضعها المؤسسون لها ـ شرطي القوة والأمانة بمظاهرهما المختلفة، فإن عثمان بن عفان قد تمتع بالأمانة وحسن النية والإخلاص الشديد، ولكنه لم يتمتع بمطلب القوة، إذ تحول ـ على حد القول المنسوب لعلي بن أبي طالب ـ إلى سيقة في يد مروان بن الحكم.

كان عثمان طيبًا حسن النية، والطيبة وحسن النية لم يكونا قط من مقومات الحكم. ولكنه لم يكن طاغية، فلم نرى قط طاغية يعترف بخطئه ويسعى للإصلاح ويمتنع عن استخدام القوة الباطشة لسحق معارضيه. وقد كانت متوافرة لديه ممثلة في جند الشام، الذين بقي محجمًا عن استدعائهم إلا حين أحس أن الخطر قد يمتد ليشمل أهل المدينة.

على أية حال، يبقى هذا رأيي الخاص الذي لا ألزم القارئ به، احترامًا لحقه في تكوين وجهة نظره الخاصة في الأمور، ولكني أنبه القارئ إلى أن التاريخ الذي يقرأه ليس لملائكة أطهار ولا لشياطين رجيمة، وإنما هو تاريخ الإنسان الذي له ما له وعليه ما عليه.

* * *

عليّ بن أبي طالب..
قتيل وَحشة الطريق

الكوفة ـ ٢٢ يناير ٦٦١م

عهده بجسده أنه لا يتأثر بتغيّر الطقس، كان يعلم أن كتفيه العريضتين إنما ترتجفان انفعالًا.. رمق من موقعه بيوت الكوفة التي تنتظر أذان الفجر ليوقظها.. غصّ بفكرة أنه بينما تنحلّ خيوط خلافته المتداعية على العراق والجزيرة وفارس؛ يزداد مُلك معاوية في الشام ارتباطًا.. «الناس يأكلون على موائد معاوية لأن طعامه أدسم، ويُصلّون وراء عليّ لأن صلاته أسلم».. هكذا يقال.. معاوية يأمر جند الشام فيطيعون، وقد بايعوا على الموت دونه، هذا دون أن يبذل لهم المال، وهو يتألّف جند العراق بكل غالٍ ورخيص، وهم يتثاقلون عنه حتى صار يعض بنانه مدمدمًا.. «أُعصَى ويطاع معاوية!»..

أين.. متى... وماذا كان الخطأ؟

«نصحتك فعصيتني! نصحتك حين أُحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فلا يُقتَل وأنت بها فأبيت! ثم نصحتك بعد قتله ألا تُبايَع بالخلافة حتى

تأتيك وفود العرب والأمصار فلا يقطعون أمرًا دونك؛ فأبيت! ثم نصحتك حين خرجت هذه المرأة ـ عائشة ـ وهذان الرجلان ـ طلحة والزبير ـ أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا، فإذا كان فساد لم يكن من قِبَلك؛ فأبيت!»

هكذا قال له ابنه الحسن يومًا، في لحظة مكاشفة تخفّف فيها من رهبة أبيه عنده..

«هذه فتنة صمّاء! النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، والراكب خير من الساعي! فأغمدوا السيوف واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة!»

بهذا نصحه أبو موسى الأشعري حين ورد جيش عليّ على العراق يطلب من أهله نصرته..

«يا أمير المؤمنين، إنه لا يصلح لهؤلاء إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفهم، ثم يبعد حتى يصير بمنزلة النجم، فإن أبيت أن تجعلني حكمًا فاجعلني ثانيًا أو ثالثًا، فإن عمرو بن العاص لن يعقد عقدة إلا حللتها، ولن يحلّ عقدة عقدتها لك إلا عقدت أحكم منها!»

وهذا الأحنف بن قيس ـ حين أُكره عليّ على قبول طلب معاوية التحكيم ـ يسعى لإقناعه بإرساله ممثلًا عنه بدلًا من أبي موسى الأشعري، في مواجهة عمرو بن العاص داهية العرب وممثل معاوية..

«إنك رجل شجاع ولكن لا إرب لك في الحرب! ألم تسمع رسول الله يقول: الحرب خدعة؟!»

قالها له عبدالله بن عباس محاولًا إثناءه عن قراره عزل ولاة عثمان وتعيين ولاة من قِبَله.. نصحه أن يتروى حتى تستقر له الأمور، وتؤخذ له بيعة الأمصار، حتى لا ينتفض هؤلاء الولاة وأنصارهم فيمزقون الأمر عنه.. ثم أصبح قول ابن عباس كالمضغة في أفواه الناس.. «عليّ رجل شجاع لكنه ليس خبيرًا بالحرب»!

كلهم يلومونه، يُحمّلونه مسئولية انحلال الأمر من بين يديه، وصولًا لذلك الوضع المأساوي.. ألم يردّ على كل قول لهم بقول فيه الكفاية من الأعذار؟

فأما ترك المدينة حين أُحيط بعثمان؛ فإن كل من بالمدينة كانوا محاصرين معه في داخلها لا يستطيعون مغادرتها، بالذات هو.. وأما البيعة بالخلافة؛ فإنه كان يخشى أن ينفلت الأمر منه، وهو يرى أنه الأجدر به والأقدر عليهْ منذ وفاة الرسول، ولم يكن ليترك المسلمين دون خليفة.. وأما أن يقعد في بيته حين خرجت عائشة ومعها طلحة والزبير؛ فإنه لم يكن يقبل لنفسه أن يكون كالضبع المتربص في داره، ينظر ما تذهب إليه الأمور..

وأما ما نصحه به أبو موسى فلم يكن ممكنًا.. كيف يترك الخليفة قومًا يحملون السلاح ويطلبون الثأر بأيديهم، ولو كانوا زوج الرسول وصاحبيه؟ لو فعل لخرج أهل كل ثأر فقتلوا وعمّ الفساد الأرض!

وطلب الأحنف أن يجعله حكمه.. بالله ألم يكن الأحنف حاضرًا إذ حمل بعض الجند السلاح وهدّدوه آمرين بقبول التحكيم؟ ألم يقل لهم «فاجعلوا حكمنا ابن عباس»، لعلمه أنه كفء لمواجهة دهاء ابن العاص؛

فعصوه وأبوا إلا أن يكون أبو موسى الأشعري، الذي إن كان تقيًا فإنه مع ذلك ساذج يسهل خداعه؟

وأما اتهامهم إياه أنه «شجاع لكن لا علم له بالحرب».. فبلى والله، هو العليم بالحرب والخدع، ولو شاء لكان من دهاة العرب، ولكن الداهية يفجُر.. وقد ابتلاه الله بأخبث الجند.. يأمرهم فيعصونه.. ينصحهم فيهدّدونه.. يستنفرهم فيتثاقلون عنه.. أخيرًا يبصق مرارته في وجوههم صارخًا «يا أشباه الرجال ولا رجال! أجسام البغال وعقول ربّات الحجال (الطفلة التي تحجل)! لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة، والله جرت ندمًا وأعقبت سدمًا.. قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيْحًا، وشحنتم صدري غيظًا، وجرعتموني المُر أنفاسًا، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب. ولكن لا رأي لمن لا يطاع!»

سُئلَ يومًا عمّا تغير بالدنيا.. كيف صارت الأحوال إلى ما هم فيه؟ كيف تهاوى العالم من حوله، وقد كان منذ سنوات قليلة متماسكًا؟ رفت على شفتيه بسمة مريرة وأجاب «كان من قبلي أئمة على من هو مثلي، واليوم أنا إمام على أمثالكم!»

❊ ❊ ❊

تذكّر رؤياه الرسول في نومه منذ أيام.. شكا له ما كان من قومه معه، فقال له «ادعُ عليهم»..

«اللهم أبدلني خيرًا منهم، وأبدلهم شرًا مني!»

❊ ❊ ❊

كل من كان يستند إليهم في مواجهة العواصف قد صاروا بين راحل إلى المثوى الأخير، أو هاجر إلى عدو مقيم، أو شريكًا له في انعدام الحيلة..

أطلق سراح ضيق صدره في زفرة ملتهبة.. رفع إلى السماء عينان بنظراتها الكثير مما يُعجز الفصحاء ـ وهو أميرهم ـ عن البيان.. ألم يخبره رسول الله أن رجلًا يضربه بالسيف على رأسه حتى تبتل لحيته من الدم؟ «بالله ماذا ينتظر؟»، كثيرًا ما سُمِعَ يقولها متململًا.. قد استوحش كل شيء واستثقل الحياة نفسها.. آه من قلة الزاد، وبُعد السفر.. ووحشة الطريق!

أخرجته خطوات من ثقيل أفكاره، التفت ملاحظًا مؤذن القوم يستعد لرفع الأذان، فقام متجهًا إلى داخل المسجد ليوقظ النيام فيه توطئة للصلاة.. دلف عبر الباب وهو يستحضر نشاطًا يطرد به وهن الهم عن جسده، مناديًا «الصلاة الصلاة»..

فور عبوره الباب شق سمعه صفير يعرفه جيدًا من كان مثله خبيرًا بوَقع السيوف.. لم يكد يتلفت حتى صافح النصل الحاد جبهته وحامله يصرخ به «الحكم لله يا علي! لا لك ولا لأصحابك!»

تسكت الأصوات.. تسكن الحركات.. حتى ريح فجر الشتاء الكوفي يكفّ عن هز أغصان الشجرة القريبة.. تتجمد كل الموجودات حتى يرجّها دويّ سقوط قطرة الدم، تلك التي تسللت عبر جانب الوجه إلى اللحية، ثم هوت أرضًا، لتتناثر في دويّ تردد في أذنيه كقرع عنيف على طبل يهتك سكون ليل صحراء مهجورة..

* * *

نظر الطبيب في شعرة البعير التي دسها في الجرح يقيس عمقه، فوجدها قد تلوثت بمادة بيضاء.. نظر صامتًا إلى الإمام المُسجَى في فراشه، فابتدره هذا قائلًا بابتسامة واهنة «هلّم.. قلها».

أطرق الطبيب متمتمًا «اعهد يا أمير المؤمنين، فإنك ميت».

- «لو قلتَ غير ذلك لكذّبتك»، قالها وأسبل جفنيه هنيهة، ثم رفعهما ملتفتًا للحسن وقال «أدخلوه عليّ».

لم تمضِ ثوانٍ إلا والقاتل ماثل بين يدي قتيله.. تفرّس ببصر كليل يتفحص وجهه المتورّم مما ناله من الضرب بأيدي الموتورين في خليفتهم.. عرفه سريعًا.. هذا أحد الخوارج الذين كان كلما صاحوا به في المسجد «الحكم لله يا علي»؛ قال لهم بهدوء «كلمة حق يراد بها باطل»، وأردف «ومع ذلك، لا نمنعكم المسجد، ولا العطاء من بيت المال حتى ترفعوا علينا السيف»..

كانوا كلما اشتطّوا في العداء قابلهم بالحُسنى، حتى اقترف بعضهم جريمة بشعة بحق عبد الله ابن الصحابي خباب بن الأرت؛ فذبحوه وقتلوا امرأته وبقروا بطنها عن جنينها، فقط لأنه أظهر الرضا عن عليّ وعثمان ومن قال الخوارج بكفرهم.. طلب منهم تسليم القاتل، فأجابوا بتحدٍ صفيق «كلنا قتلنا فانظر ما تفعل».. لم يعد من بد من امتشاق السيف، فلاقاهم في أرض حروراء وأثخنهم قتلًا.. هنأه أصحابه بالنصر، فابتسم بمرارة مجيبًا «كلا.. بل هم في أصلاب الرجال وأرحام النساء!»

«يا عدو الله.. ألم أحسن إليك؟»

- «بلى والله»

«فما دفعكم أن تصنع ما صنعت؟»

«شحذت سيفي ودعوت الله أن يقتل به شر خلقه!»

- «ما أراك إلا مقتولًا به!»، ثم عاد يلتفت للحسن آمرًا «أحسنوا إليه.. فإن حييت نظرت أمره؛ إن شئت اقتصصت وإن شئت عفوت.. وإن أنا مِت فألحقوه بي، ولا تمثّلوا به.. ولا تسفكوا الدم تقولون قُتِلَ أمير المؤمنين.. إنما هو رجل برجل».

* * *

لم يمضِ يومان إلا وصاح النائح أن انعوا أمير المؤمنين.. اختلف الناس في مآل الجثمان الكريم، قيل وُضِعَ على بعير، فنفر وانطلق، فلم يدركوه، ولم يعرفوا له قبرًا.. وقيل بل عُمِيَ على قبره كيلا تنبشه الخوارج.. وقال بعضٌ آخر بل حمله الحسن فدفنه في المدينة.. الله أعلم..

أُخِذَ القاتل ـ عبد الرحمن بن ملجم ـ ليُقتل قصاصًا، فتقدّم عبدالله بن جعفر بن أبي طالب يتناول السيف صائحًا «دعوني أشفي نفسي منه!».. أوثقوه وقطعوا يديه ورجليه.. والقاتل لا يتأوّه، إنما يُسبّح ويتمتم بذكر الله(!!).. حتى عندما كووا عينيه وسالتا على وجهه، لم ينقطع عن التسبيح.. لم يضطرب إلا حين جذبوا لسانه ليقطعوه قبل ذبحه.. قال «لا أحب أن أموت وقد انقطع ذكري لله».. أخيرًا قتلوه وأحرقوا جسده..

اتضح الأمر بعد ذلك.. تعاهد القاتل مع بعض رفاقه على قتل من وصفوهم بـ«رؤوس الفتنة».. فكمن ابن ملجم للخليفة، وحاول رفيق له قتل معاوية في سجوده للصلاة، فأخطأ السيف رأسه وأصاب إليته ليدركه الطبيب، وتوجّه آخر لمصر مستهدفًا واليها عمر بن العاص، الذي تصادف توعكه في اليوم المحدد لقتله، فخرج نائبه المدعو خارجة بدلًا منه، وحسب القاتل أنه عمرو، فضربه وأرداه، فقال عمرو «أرادني وأراد الله خارجة»..

تبين كذلك أن القاتل كان قد خطب امرأة من خوارج الكوفة، فقدت بعض أهلها في معركة حروراء ـ مذبحة الخوارج الشهيرة ـ فطلبت أن يكون مهرها قتل عليّ بن أبي طالب، ليكون أغلى مهر عرفته العرب..

عرف الناس بذلك أن دابر الخوارج لم ينقطع يوم حروراء، وأنهم ـ ومن على شاكلتهم في تكفير خصومهم، وإهدار دمائهم، واستباحة قتلهم وترويعهم ـ باقون إلى يوم الدين، وإن اختلفت دعاواهم وتنوّعت أسماؤهم

ونعوتهم.. وأن الإمام كان بعيد النظر حين قال «هم في أصلاب الرجال وأرحام النساء»

❋ ❋ ❋

إن كان جسد الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب قد قُتِل في ذلك اليوم؛ فإنه كان قد ذاق الردى قبل ذلك مرارًا ..

قُتل عليّ يوم أقحمه قتلة عثمان في فتنتهم، ويوم كاد جيشه وجيش عائشة وطلحة والزبير ـ أصحاب الجمل ـ يصطلحان؛ فدبّر المتآمرون اشتباكًا عارضًا أفسد الصلح وتسبّب في موقعة الجمل المأساوية..

قُتِلَ يوم خانه جند جيشه، فأذاقوه مرارة العصيان والتثاقل، وتركوه وحيدًا في مواجهة الأنواء.. يوم رفعوا عليه السلاح يأمرونه بقبول التحكيم، ثم في اليوم التالي رفعوه يأمرونه برفضه، وفي المرتين قالوها في وجهه بوقاحة غريبة «لتطيعنّنا أو لنقتلنك كما قتلنا عثمان».

قُتِلَ يوم انفضّ عنه أصحابه واحدًا تلو الآخر، يتوجهون لمعاوية ينصرونه عليه.. ومنهم من كان يمدحه من قبل قائلًا «لا فتى إلا عليّ!»

ويوم صرخ الخوارج بوجهه في قلب المسجد يأمرونه أن يقرّ بالكفر ثم يعلن إيمانه من جديد، وهو الذي ربما كان يومًا ما رُبع أو خُمس الإسلام..

لم يقتل السيف عليّ بن أبي طالب.. بل قتلته وحشة الطريق...

الحسن بن علي

مَن قتل آخر الراشدين

دمشق - ٦٦٢م

من رأوا الرسول محمد، كادوا يقسموا إن الرجل الواقف بمنبر مسجد دمشق هو أشبه الناس به.

بين يديه جلس الناس، وفيهم معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومروان بن الحكم والوليد بن عقبة بن أبي المعيط.

مال الأخير على أذن صاحبه هامسًا «أويكون ما تريد؟»

ابتسم مروان هازئًا وقال بثقة «لترَين. قد أعيت الأحداث لسانه. فالآن يرى الناس خرقه ورثاثة قوله فيصغر في أعينهم»

عادا ينظران الحسن بن علي بن أبي طالب واقفا يخطب في الناس، بعد أن تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان حقنًا للدماء. المنصفون يعلمون أنه لم ينزل عنها ضعفًا أو خوفًا، بل ضنًا بالمسلمين أن يقتتلوا فيفني بعضهم بعضًا، وبغضًا لأهل العراق الذين لم يكفهم خذلانهم أباه فخذلوا الابن وتمادوا، فأهانوه إلى حد سرعة انفضاضهم عنه، لمجرد أن صائحا جال بمعسكره ينذرهم بوصول جيش معاوية، وقيامهم بنهب خيمته نهبًا فاحشًا بلغ حد

ضربه وانتزاع البساط الذي كان يجلس عليه. ثم بلغت بهم الصفاقة أن غضبوا عليه لنزوله عن الحكم لابن أبي سفيان فصاروا يصيحون به إذا مر بهم «يا مذل المؤمنين!» يتهمونه بالجبن والتخاذل عن القتال لآخر رمق ضد الفئة الباغية. ثكلتهم أمهاتهم. أي قتال يبغون وقد لمس بنفسه معنى قول معاوية فيهم إنهم «أخبث الجند»؟

اشترط على معاوية ثلاثة: أن يقضي ديونه، وألا يمس من ناصروه ضده، وأن يعود الحكم للحسن إذا مات معاوية في حياته. قبل معاوية الشروط، واجتمع كبار الصحابة ورؤوس الناس يبايعون أول خلفاء بني أمية، فيما حمل اسم «عام الجماعة» الذي انتهت فيه حرب ضارية فقد كل بيت من العرب فيه أحبة، وذاق منها مرارات.

«كانت بيدي جماجم العرب، فأبيت أن يأتي يوم القيامة سبعون ألفًا تشخب أوداجهم دمًا، يحاجونني إلى الله فيم قُتِلوا». أنذروه بالعار فقال بهدوء «العار خير من النار». استوقفه بعضهم وطعنه بفأس في فخذه فلم يزده ذلك إلا حلمًا. يتذكر قول جده عنه «لعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين»

اتكأ على جانب المنبر توطئة لأن يخطب في الناس، فتدثر الجمع بالصمت. ذكر الله وأثنى عليه، صلى على جده والصحابة أجمعين. ثم...

«أيها الناس. قد هُدِيتُم بأولنا، وحُقِنَت دماؤكم بآخرنا.»

صار للصمت دوي يُسمَع. رمق مروان الوجه المتقع للوليد وقد أدرك فشل خطته.

نظر الحسن لمعاوية طويلاً، ابتسم وقال مثبتًا نظره عليه «ومن يدري.. لعلها فتنة ومتاع إلى حين؟»

مال معاوية على مروان والوليد قائلاً بسخرية «قد أنذرتكما فعصيتما. أهذا الذي أُعيِيَ لسانه؟!»

* * *

وبينما عرف له معاوية الفضل وأحسن معاملته، صار مروان بن الحكم وعصابته في استفزاز عبثي مستمر له، كلما حضر بمجلس الخليفة.

ـ «قد أسرع الشيب إلى شاربك، وإنا نرى ذلك من الخرق!» يلقيها مروان فيردها الحسن بألذع منها «بل نحن بني هاشم طيبة روائح أفواهنا، فنساؤنا يحببن تقبيل الأفواه، فيصيب البخر شواربنا فتشيب، أما أنتم معشر بني أمية ففي أفواهكم بخر ـ رائحة كريهة ـ فنساؤكم يرغبن عن أفواهكم ويقبلن أصداغكم، فيشيب منكم حيث قبّلن»

يحاول مروان مداراة حرجه، فيتظاهر بالتَمَخُط ويمسح وجهه بيمينه، فيتلقى القارعة من الحسن الذي يقول «أف لك! أما تعلم أن اليمين لمسح الوجه والشِمال لمسح الفرج؟»

فلا يعرف ابن الحكم أين يذهب من هذا الذي يجلد بالكلام بلا هوادة، دون أن يعلو وجهه ولو عبوس بسيط!

يحاول ردها للحسن في مرة تالية، فيقول له في حضرة معاوية: «إن فيكم يا بني هاشم خصلة سوء هي الغلمة» (الرغبة الجنسية المفرطة) فلا تهتز شعرة من رأس الرجل لاذع المنطق، وهو يجيب من فوره «بلى. جُعِلَت الغلمة في رجالنا، ونُزِعَت من رجالكم وجُعِلَت في نسائكم، فلا يقوم لأموية إلا هاشمي»

يرمق معاوية الحسن محاولاً توقع رده هذه المرة.. وبلاغة بني هاشم وقدرتهم الفذة على سرعة الرد لا يجهلها أحد.

فيردد الإيوان ضحكات معاوية الذي يحترم اللعبة البارعة، وهو يرمق مروان وقد ذاب في عرقه.

❊ ❊ ❊

وبينما لا يزيد الإفحام مروان إلا حماقة وعنادًا، يعرف معاوية للحسن بن علي قدره. فيصله بالأموال ويستقبله بمجلسه ولا يرد له طلبًا.

ويزيد هذا حاشية معاوية غيظًا، فيحاولون توجيه الإهانات للحسن الذين لا يتخلى عن حلمه في مواجهتهم. ويتمادى أحدهم ـ زياد بن أبيه والي العراق ـ فيرتكب حماقة بالغة حين أرسل له الحسن كتابًا، يتشفع فيه عنده لبعض أصحابه ممن نالهم اضطهاد زياد، فيغضب هذا الأخير لأن الكتاب يبدأ بـ«من الحسن بن علي إلى زياد» فيرد بغطرسة «إلى الحسن بن فاطمة. قد بدأت بنفسك قبلي، وأنت من السوقة وأنا من أهل السلطان» فلا يزيد الحسن على أن يرسل كتاب زياد إلى معاوية الذي يعنف واليه لوقاحته، ويأمره بتنفيذ ما أرسل الحسن في طلبه.

وينضم يزيد بن معاوية للحاقدين على الحسن، فيلوم أباه لإكباره إياه وإرساله إليه بالأموال، فيرد عليه «أي بني. إن الحق حقهم، فإن جاؤوك فأحث لهم» (فأعطهم).

ولا يقدر يزيد ومروان وعصبة هذا الأخير أن يفهموا كيف يفكر معاوية، فقد كان من قبل ينال بالقول من علي، ثم يغضب إذا ما أساء إليه البعض في حضوره، فإذا سألوه قال «أنا آكل لحمي ولا أوكله». وربما أخذه بعض الغرور فعبث مع الحسن ببعض الكلام، فإن رد عليه الحسن سكت ولم يسمح لأحد أن يتطاول عليه. وكلما راجعه يزيد رد بكلام عن حق الرَحِم والعمومة والقرابة من رسول الله.

وكل هؤلاء يخشون أن يموت معاوية فيصبح الحسن بن علي خليفة، وتزول دولتهم وسطوتهم.

لم يكن غريبًا إذن أن يتنفسوا الصعداء عندما جاءهم النبأ من المدينة..
إن الحسن يحتضر.

* * *

المدينة ـ ٩ مارس ٦٧٠م

طستٌ يُرفَع من تحت الرجل المريض ليوضع آخر. الإسهال يفتك بأمعائه والدم يغلب على قيئه. يستوقف الحسين رجلاً يخرج من غرفة أخيه حاملاً طستًا تفوح منه رائحة خبيثة، وينظر فيه محاولاً إقناع نفسه أن تلك الكتلة الدامية فيه ليست قطعة من كبد بشر!

يدخل على شقيقه محاذرًا إحداث صوت يزعجه. يحاول الحسن الاعتدال فيهرع إليه أخوه رادًا إياه للفراش، بحنان يشوبه ألم يمزق نفسه.

«لفظت قطعة من كبدي.»

عانق بأصابعه كف أخيه متمتمًا «فداك نفسي»

حاول الحسن استدعاء ابتسامة لطمأنة أخيه، إلا أن الألم الهادر بجوفه جعل انفراج أساريره يكشف عن جزه العنيف على أسنانه، كاتمًا النار المستعرة ببدنه السقيم. استسلم لعلامات الاحتضار واسترخى في فراشه، وقد علت وجهه الذي كان مشربًا بحمرة الصحة صفرة منبئة بالضيف الثقيل الذي يحوم في سماء الغرفة، لينتزع السر الإلهي في الوقت المحدد منذ ما قبل بثه في الجسد الفاني.

أشار الحسين لمن حولهما بالخروج. انتظر رحيل آخرهم، ودنا من أخيه وقد بدا السؤال جليًا في عيناه المغرورقتين بماء الحزن.

قرأ الحسن السؤال في النظرات الملتهبة لوعة وغضبًا فقال «بلى»

عض الحسين شفتيه. «السُم؟»

- «سقيته مرارًا من قبل. ولكن هذه أقساها»

اعتصرت يد الأخ المكلوم كف الشقيق المحتضر، وهو يقول من بين أسنانه «من؟!» فابتسم بمرارة مجيبًا «ألتقتله؟»

- «بلى!»

أشاح الحسن استهانة بكفه المرتعدة، وهو يقول «إن يكن من أظنه فالله أقدر عليه. وإن لم يكن هو فلا يُقتَل بي مظلوم»

ولأن الحسين يدرك عناد أخيه فإنه لم يلح في السؤال. ربت رأس الحبيب هامسًا بحنان «هل تخاف؟»

صمت الحسن لحيظات ثم أجاب بنبرة واجلة «أجل»

- «ولِمَ؟ إنك تَرِد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عليّ وهما أبواك، وعلى خديجة وفاطمة وهما أماك، وعلى القاسم والطاهر وهما خالاك، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك»

لم تزل ابتسامة المريض عن وجهه الغارق بالعرق، وهو يجيب «يا أخي. إني أدخل على أمر من أمر الله لم أدخل في مثله، وأرى خلقًا من خلق الله لم أر مثله قط»

ألقى الصمت غطاءه عليهما. سكنت الموجودات إلا من الأنفاس المثقلة بسكرات الموت. أخيرًا قال الحسن «إذا أنا مت فادفني إلى جوار رسول الله. وإذا منعك القوم - وهم مانعوك - فلا تراجعهم»

اعتصرت الكلمات قلب المكلوم في شقيقه ورفيق حياته. لم تسمح له الغصة إلا بأن يقول «إنا لله وإنا إليه راجعون».

* * *

وكأنما يأبى مروان إلا أن ينغص على الحسن في موته، كما نغص عليه في حياته. فما أن علم بتوجه الحسين لدفن أخيه إلى جوار الرسول وأبي بكر وعمر، حتى ثار ومعه أتباعه قائلاً باستنكار «أيُدفَن عثمان في جوف الليل ويدفن الحسن إلى جوار النبي؟ لا يكون هذا أبدًا!»
حاول الحسين التمسك برغبة أخيه، إلا أن أبا هريرة تدخل كيلا يقع دم بين القوم، وتشبث عبدالله بن جعفر بن أبي طالب بابن عمه الحسين قائلاً بإلحاح «عزمت عليك بحقي وقرابتي ألا رجعت!»

وحُمل الجثمان العظيم إلى البقيع ليُدفَن هناك.

وفي الجنازة، وبينما الحسين يمشي حاملاً جسد أخيه، وجد من يسند بكتفه الحمل الجليل إلى جواره. ومن بين دموعه فوجئ بأنه مروان بن الحكم. يتقدم ليحمل الحسن بن علي إلى مثواه، وقد أغرقت وجهه الدموع.

يتمتم الحسين ذاهلاً «أتحمله وتبكي عليه وقد كنت تجرعه الصبر؟!»

ولدهشته، خرجت نبرة مروان صادقة وهو يجيبه «بلى. أفعل هذا مع من كان حلمه يزن الجبال!»

* * *

عندما تقع جريمة قتل فإن أول سؤال يطرحه المحقق على نفسه هو «من له مصلحة في قتل المجني عليه؟»
فلنطرح هذا السؤال إذن على أنفسنا: من له مصلحة في قتل الحسن بن عليّ؟
يقودنا هذا لبحث دائرة علاقات الحسن، تحديدًا علاقات العداء والخصومة.

سيقودنا هذا للمتهمين الآتيين:

ـ أولاً: بنو أمية بطبيعة الحال. فهو رجل قد حاربهم ثم سالمهم على أن يكون الأمر له بعد وفاة معاوية، ما يهدد «مُلكهم»، وإن كان في ذلك دافع للأمويين بشكل عام للسعي للتخلص من الحسن، فإن منهم من يعنيه الأمر بشكل شخصي، كيزيد بن معاوية الذي يدرك القارئ لأحداث تلك الفترة أنه كان يتطلع لأن يرث الخلافة، حتى قبل أن يعلن معاوية أخذ البيعة له من بعده، ومروان بن الحكم لما فيه من عداء للبيت الهاشمي، وهو ما يظهر في التزامه عداوة الهاشميين منذ ما قبل مقتل عثمان بن عفان، مرورًا بالحروب بين علي ومعاوية، وانتهاءً بإلحاحه على والي المدينة أن يقتل الحسين لرفضه مبايعة يزيد.

ـ ثانيًا: الخوارج الذين اغتالوا أباه ويرون تكفير وإباحة دم من سواهم، أي المجتمع كله بمختلف طوائفه وتوجهاته. فإن كانوا قد قتلوا عليًا، فإن هذا لا يغلق باب عداوتهم لكل من المعسكرين «العلوي» و«الأموي»

ـ ثالثًا: الناقمون على الحسن لتسليمه الحكم لمعاوية، فهم يضمرون الكراهية له ويتهمونه بأنه «مذل المؤمنين» كما قال له بعضهم في وجهه، وهؤلاء قد يرى بعضهم مصلحة في موت ذلك الذي يمنعهم من الخروج على معاوية. خاصة أن الحسين لم يكن راضيًا عن هذا الاتفاق، وكان ـ بعكس أخيه ـ ميالاً للثورة والمواجهة أيًا كانت النتائج، ولكنه لم يكن يستطيع تجاوز الحسن، فلو أزيح هذا الأخير لانتقلت زعامة المشايعين لعلي وأبنائه إلى الحسين، ولوُجِدَ احتمال لإظهار سياسة مختلفة إزاء بني أمية.

لننظر إذن للفرضيات الثلاث، في ضوء ما لدينا من معطيات تاريخية. فأما بنو أمية فهم بين من يرى أنهم غير مضطرين للتخلص من الحسن، وقد

يتخلص من مالك الأشتر ـ الحليف الأقوى لعلي بن أبي طالب ـ حين أرسله هذا الأخير واليًا على مصر قبل أن تقع في يد معاوية، فوضع له الرجل السم في شربة عسل فمات الأشتر، وقال معاوية معلقًا «إن لله جنودًا من عسل».

بل واتهموه كذلك بأنه وضع السم لسعد بن أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ وفسروا ذلك بأن معاوية كان يبغي البيعة من بعده لابنه يزيد، ولم يكن يخشى سوى الحسن بن عليّ وسعد بن أبي وقاص.

تعالوا ننظر هذا الافتراض.

فمن ناحية الدافع، فإن معاوية بكل ما له من سلطان الحكم والمال والدهاء، إضافة لشعبيته التي زادت، ومن انحازوا له من الناس بعد عام الجماعة، في مقابل انفضاض جزء كبير من أنصار الحسن عنه واستوحاشه من أهل العراق، ورغبته القوية في إقرار السلام بأي ثمن، كل ذلك لم يكن ليُعيي معاوية عن الحيل ليُقصي الحسن عن خلافته له بعد موته، حتى يضطر لأن يدس له السُم.

كذلك فإن معاوية ليس من الغفلة أن يكلف زوجة الحسن بالذات ـ من دون كل من يحيطون به ـ أن تدس له هذا السُم. فقد كانت ثمة طرق كثيرة ليضمن بها وصول السُم إلى جسده، أبسطها أن يضع في طريقه من يهديه بعض الطعام أو الشراب، ومن المعروف أن بني هاشم يأكلون الهدية ولا يترفعون عن قبول هدية الطعام، بل ومن آدابهم قبول دعوة الطعام، بالذات لو كانت من فقير تطييبًا لخاطره.. فكان من الممكن أن يُدَس للحسن من يدعوه إلى طعام مسموم. وهو ما يتوافق مع «النمط الجنائي لمعاوية» ـ لو سمحتم لي بالتعبير ـ مثلما كان منه مع مالك الأشتر.

أما من كلّف جعدة بنت الأشعث بهذا ـ إن صح تورطها في الجريمة ـ فإنه شخص أرعن متسرع، يخاطر بأن يكشف نفسه ويستجلب عليها غضب الكثيرين إن انكشفت مؤامرته.

مصاهرة [illegible] بيت رسول [illegible] بالمال والمراتب [illegible] وأنه كان
يضمن التخلص ممن يمكن أن ينازعه في [illegible] الحكم [illegible]
أمام امرأة أرسل لها بعضا من المال والعسل.
ومن ناحية أخرى، فإن أباها الأشعث بن قيس كبير قبيلة كندة
اليمنية، كان رجلا متقلبا [illegible]
ليس بعد تلك الفترة فحسب، بل منذ عهد الرسول محمد، إذ أعلن الأشعث
إسلامه بعد أن دخلت قبائل العرب في الدين، ثم ارتد بعد وفاة الرسول،
وحاول مقاومة جيوش أبي بكر، ثم وقع في الأسر وحمل إلى المدينة، وهناك
أظهر العودة للإسلام فعفا عنه الخليفة. ثم دارت الأيام وانضم لعلي بن
أبي طالب في حروبه، وربما كان زواج الحسن بابنته «زواجا سياسيا» كما
كان مألوفا آنذاك، وعند عرض معاوية التحكيم سارع بالموافقة بعكس
المقربين من علي، وكان ممن اشتدوا في ذلك، ثم تختلف كتب التاريخ في
تحديد انتمائه بعد ذلك، فيضعه البعض مع الخوارج والبعض الآخر مع
معاوية. وتشير بعض أصابع الاتهام له في إيواء القاتل الخارجي الذي نفذ
اغتيال الخليفة علي. في كل الأحوال فإن من الواضح أن الأشعث كان كما
يقال بلغة الحاضر «يلعب لحساب نفسه». فليس من المستبعد أن تكون ابنته
قد سارت على نفس المنهج، بحكم الجفوة التي قامت بين علي وأبنائه من
ناحية، والأشعث وأتباعه من ناحية أخرى.
إذن فالمعطيات المتوافرة لنا تقول أن منفذ عملية الاغتيال هو «جعدة
بنت الأشعث بن قيس».
إذن فالروايات تتراوح بين متهمين، هما معاوية أو ابنه يزيد، فأيهما أجدر
بالاتهام؟
أما معاوية، فإن المتهمين له يفسرون موقفهم بأنه المستفيد من موت الإمام
الحسن، ليضمن أن يرث ابنه يزيد الحكم. وهم يؤكدون قدرته على ارتكاب
مثل تلك الجريمة، بما نسب له من تحريض أحد أهل الخراج في مصر، على

وعودة للدافع، فإن المتأمل [illegible]
[illegible]
[illegible] واضحة في هذا [illegible] وصية معاوية لابنه قبل الموت.
فمعاوية كان قد أوصى ابنه بأن [illegible] من أربعة قد ينازعونه الأمر:
الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن الزبير.
ثم أتبع تحذيره بأن أردف أن عبدالله بن عمر رجل قد انشغل بالعبادة،
فإن لم يبق غيره ممن يبايع يزيد فإنه سيبايعه، وأن عبدالرحمن بن أبي بكر رجل
قد انشغل بالنساء، وأن الحسين ربما يدفعه أهل العراق للخروج عليه فإن
خرج وظفر به يزيد فليصفح عنه وليراع قرابته وحرمته، وأما ابن الزبير
فاشتد معاوية في التحذير منه، وقال له في رواية «فإن ظفرت به فقطعه إربا إربا»
وفي رواية أخرى أنه نصح ابنه بأن يعفو عن عبدالله بن الزبير، ولكن مع
الحذر.
ومع تنوع الروايات حول وصية معاوية لابنه، فإنها تتفق في أمرين:
- الأول هو العفو عن الحسين مهما فعل، ومراعاة حرمته وقرابته.
- الثاني هو التحذير من عبدالله بن الزبير، باعتباره أخطر المعارضين،
وهو ما صدقته الأحداث التالية، فقد أثبت بحق أنه أخطرهم، إذ استمرت
مقاومته للأمويين حتى استشهاده في مكة في عهد عبدالملك بن مروان. أي
أنه أقض مضاجع أربعة خلفاء (واستثنيت معاوية بن يزيد لأنه عمليا لم
يتول الحكم).
أفلم يكن عبدالله بن الزبير إذن أولى من الحسن بالتآمر على قتله؟ أو
الحسن وسعد بن أبي وقاص في بعض الروايات؟

أعطاهم العهد والميثاق، بل الخليفة بقاء الأقوى سل المَالي هو بن أبي محتسب صحيحة أرسله
الدعية لا خير ولا فضلاً أن مصر قبل الحسن بالنسعة في أيديهم معاوية القتنة، إذ إنه الرجل السم
شربة عسل من قبل أنصار معاوية باخراج ما عليه معاوية «إن لله جنوداً من عسل».
بل من ناحية أخرى فهناك من وضع السم للبطش بالمعادي سعد بن أبي وقاص دون حساب العراقي
ما يخشى ويتطرقوا إليه بأن معاوية كان يقف من البيعة نصرة الحكم والاعتبارات لولا هما. ولم
يكن الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص لمحظى منهم بالإعلان
والإشهار والاحتفال، من منطلق الفخر بـ«النصر» والرغبة في ردع المخالفين.
فهم لم يكونوا «القتل الاحترازي». بل يتعاملون معه كإنجاز من قبيل «إرهاب
عدو الله وعدوهم» فكلاهم يتم بكل ما له من سلطان الحكم والمال
والدولة المتصارعة التي يرغبون في الخروج على الحاكم، فإنهم علم
بطولة القتل، فإن لم يكونوا ليعملوا الوعد بعد أهله
بما أرهق الاحترازي إلى الدولة القوية أي من جديد، وإن لم يكن
الحديث. مما يلي قدرة يقضي بالحلم وقال الحادث قد شهد وعلى نسيطر
لأنه تروي له التي الفرضية التي تداولتها الكتابات، وهي قريبة للفرضية
الأولى، إلا أنها لا تعلو بحس أعمق بالكلالة بكل تحقيق الجلسة بالطريقة
إلى حلول كل الموضوعية بكاملها عن سر المسألة الحكم. بعقد الأشعث وطرق
الكثير في موضوعها أو ليدخل إذا على سطحها أن يضعها في فطرة
بعض الطعام أو الخبز أو الطعام، وظنا أن يخفي حيلتهم يأكلون الهدية
ولا يتوقعون نية التضحية بالطعام في موضع أهله بقبول الدعوة للطعام،
إلا أن التضليل كان ضعيفًا، فتزيد تطلب الجاه إذ يقول «أصحاب الحكم
المحصنين لا يطمعوا» إلى طعام مسموم. وهو ما يتوافق مع «النمط الجنائي
المعاقب بالأسود المحتمل بالتجربة. بمثلها الأشعث مع كهالك الأشعث لارتكاب
الجريمة، من كل طبيعة تتعلق بالأشعث فإنه «إن وضع وتوطأ في الحي كثير-
إنه أشجع الطرق عن متعة إن خاطر بأنفسهم أو يسقط جليب على الهالك غضاب
الكثير من فضلاته فتؤامر كل يوم وطلق كل يوم لأجابوه، لرغبتهم في

مصاهرة آل بيت رسول الله. فأن تفوز بالمال والزواج بيزيد - كما وُعِدَت - فإنه أضمن لها من أن تجد نفسها يومًا مطلقة للحسن، الذي كان كلما طلق امرأة أرسل لها بعضًا من المال والعسل.

ومن ناحية أخرى، فإن أباها الأشعث بن قيس - كبير قبيلة كِندة القوية - كان رجلاً متلاعبًا زئبقيًا يصعب تحديد انتمائه وولائه. ليس منذ تلك الفترة فحسب، بل منذ عهد الرسول محمد، إذ أعلن الأشعث إسلامه بعد أن دخلت قبائل العرب في الدين، ثم ارتد بعد وفاة الرسول، وحاول مقاومة جيوش أبي بكر، ثم وقع في الأسر وحُمِلَ إلى المدينة، وهناك أظهر العودة للإسلام فعفا عنه الخليفة. ثم دارت الأيام وانضم لعلي بن أبي طالب في حروبه، وربما كان زواج الحسن بابنته «زواجًا سياسيًا» كما كان مألوفًا آنذاك، وعند عرض معاوية التحكيم سارع بالموافقة بعكس المقربين من علي، وكان ممن اشتدوا في ذلك، ثم تختلف كتب التاريخ في تحديد انتمائه بعد ذلك؛ فيضعه البعض مع الخوارج والبعض الآخر مع معاوية. وتشير بعض أصابع الاتهام له في إيواء القاتل الخارجي الذي نفذ اغتيال الخليفة عليّ. في كل الأحوال فإن من الواضح أن الأشعث كان كما يقال بلغة الحاضر «يلعب لحساب نفسه». فليس من المستبعد أن تكون ابنته قد سارت على نفس المنهج، بحكم الجفوة التي قامت بين علي وأبنائه من ناحية، والأشعث وأتباعه من ناحية أخرى.

إذن فالمعطيات المتوافرة لنا تقول أن منفذ عملية الاغتيال هو «جعدة بنت الأشعث بن قيس».

إذن فالروايات تتراوح بين متهمَين، هما معاوية أو ابنه يزيد. فأيهما أجدر بالاتهام؟

أما معاوية، فإن المتهمين له يفسرون موقفهم بأنه المستفيد من موت الإمام الحسن، ليضمن أن يرث ابنه يزيد الحكم. وهم يؤكدون قدرته على ارتكاب مثل تلك الجريمة، بما نُسِبَ له من تحريض أحد أهل الخِراج في مصر، على أن

من حياته ومماته تنفيذًا للنبوءة المنسوبة للرسول محمد «لعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين».

وقد كان!

* * *

الحقيقة أنني لا أرى ما يمنع ذلك، بالعكس، فإن بشخصيته وتاريخه ما يؤهله لذلك. فقضلاً عن عدائه للحسن بن علي ولبني هاشم بشكل عام، فإن مروان من ناحية «جريء على القتل» وهو ما ظهر في إلحاحه على والي يزيد أن يقتل الحسين من فوره، إذا رفض أن يبايع ابن معاوية، وكذلك فإن له سوابق في الاتهام بالقتل أو تدبيره، سواء في واقعة مقتل طلحة بن عبيدالله في موقعة الجمل عندما أراد الانسحاب وأصابه سهم مجهول أكد الكثيرون أن مروان هو الذي أطلقه، أو في اتهامه بتلفيق رسالة على لسان عثمان بن عفان يأمر والي مصر بقتل المتمردين حين عودتهم. تلك الرسالة تقودنا للناحية الأخرى من شخصية مروان وهي جرأته على الافتئات على أعمال السلطة، والتصرف من تلقاء نفسه بما يراه مناسبًا ولو أُمِرَ بعكس ذلك. فلا يوجد مانع أن يكون قد قرر أن الأصلح لبني أمية ولدولتهم أن يُقتَل الحسن، بصرف النظر عن رأي معاوية. هذا يلائم شخصية مروان جدًا.

ولكن تبقى لدينا مشكلة، أن كل ما لدينا هو قرائن لا ترتقي لمستوى الأدلة لاتهام هذا أو ذاك.

*   *   *

على أية حال، فإن المتأمل في سيرة الحسن بن علي، يشعر كأنما جاء هذا الرجل إلى الدنيا لتنفيذ مهمة ورحل عنها بعد إتمامها. فقد أغلق أبواب الحرب الأهلية بقراره الذي يمكن أن نختلف عليه لكننا نتفق على نبل دوافعه. ثم رحل في هدوء، بل وحرص قبل رحيله أن يقتفي أثر أبيه حين اغتيل بألا يفتح موته بابًا للحرب، كما جرى بعد مقتل عثمان، ليكون كل

من [illegible]
[illegible] كان أكثر مرونة وموادعة من أخيه الأصغر، فبينما كان طبع الهدوء والمسالمة يغلب على الحسن، كان طابع الثورة وحرارة الدماء تغلب على الحسين. فكيف يسعى معاوية لقتل الأخ الأقل خطورة، ويوصي بحقن دماء الأكثر ميلاً للثورة؟

* * *

المنطقي أن من يرغب في إزاحة منافس له أو لعقبه في الخلافة، أن يسعى للتخلص من كل المنافسين وليس من واحد منهم فحسب.

كل ما سلف يؤكد لنا أن من ارتكب تلك الجريمة هو إنسان ينقصه الدهاء وبُعد النظر، والحنكة في وزن الخصوم وتقييمهم، وأنه يميل للاندفاع والرعونة وقلة الحذر. وهو ما يبعدنا كثيرًا عن معاوية، ويقودنا مباشرة ليزيد، لو أننا في مجال لإدانة أحدهما لا محالة.

وبينما يبعدنا التحليل المنطقي عن اتهام معاوية، فإن يزيد يصلح بشدة لهذا الموقع، خاصة أن المدقق في كتب التاريخ يلاحظ أنه كان قد بدأ يلعب دورًا في الأحداث، من وراء الستار، قبل موت أبيه، بل قبل انفجار قضية التوريث. بل وثمة حادثة هامة تسبق مباشرة قرار معاوية توريث الحكم لابنه. ألا وهي توجه المغيرة بن شعبة إلى دمشق والتقاؤه يزيد قبل أن يلتقي معاوية، ثم نصيحته لمعاوية في لقائهما أن يجعل هذا الأمر في بعض ولده، ما يسهل علينا استنتاج ما دار بين يزيد والمغيرة.

ماذا عن مروان بن الحكم؟ لماذا لا تذكره تحليلات جريمة اغتيال الحسن بن علي كمتهم محتمل؟

الحقيقة أنني لا أرى ما يمنع ذلك، بالعكس، فإن بشخصيته وتاريخه ما يؤهله لذلك. ففضلاً عن عدائه للحسن بن علي ولبني هاشم بشكل عام، فإن مروان من ناحية «جريء على القتل» وهو ما ظهر في إلحاحه على والي يزيد أن يقتل الحسين من فوره، إذا رفض أن يبايع ابن معاوية، وكذلك فإن له سوابق في الاتهام بالقتل أو تدبيره، سواء في واقعة مقتل طلحة بن عبيدالله في موقعة الجمل عندما أراد الانسحاب وأصابه سهم مجهول أكد الكثيرون أن مروان هو الذي أطلقه، أو في اتهامه بتلفيق رسالة على لسان عثمان بن عفان يأمر والي مصر بقتل المتمردين حين عودتهم. تلك الرسالة تقودنا للناحية الأخرى من شخصية مروان وهي جرأته على الافتئات على أعمال السلطة، والتصرف من تلقاء نفسه بما يراه مناسبًا ولو أُمِرَ بعكس ذلك. فلا يوجد مانع أن يكون قد قرر أن الأصلح لبني أمية ولدولتهم أن يُقتَل الحسن، بصرف النظر عن رأي معاوية. هذا يلائم شخصية مروان جدًا.

ولكن تبقى لدينا مشكلة، أن كل ما لدينا هو قرائن لا ترتقي لمستوى الأدلة لاتهام هذا أو ذاك.

* * *

على أية حال، فإن المتأمل في سيرة الحسن بن علي، يشعر كأنما جاء هذا الرجل إلى الدنيا لتنفيذ مهمة ورحل عنها بعد إتمامها. فقد أغلق أبواب الحرب الأهلية بقراره الذي يمكن أن نختلف عليه لكننا نتفق على نبل دوافعه. ثم رحل في هدوء، بل وحرص قبل رحيله أن يقتفي أثر أبيه حين اغتيل بألا يفتح موته بابًا للحرب، كما جرى بعد مقتل عثمان، ليكون كل

معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (معاوية الثاني)

سحابة صيف عابرة بسماء بني أمية

دمشق - ٦٨٤م

كسحابة صيف عابرة، كحلم مار بقيلولة قصيرة في نهار طويل، كانت أيام خلافة معاوية الثاني.

صدق من قال إنه لو عاش لاستحق الانضمام لمن وُصِفوا بالراشدين من الخلفاء.

لكن «لو» تشي بوقوع ما هو ضد المرغوب.

فالشاب الصالح الطيب؛ الذي كان يؤمّل منه أن يبرد جبهات الدم والنار المفتوحة في أنحاء الدولة، وأن يؤلف القلوب بعد أن تحاجزت بها صنع الحدّاد، يحتضر ولم تمض ثلاثة أشهر على مبايعته، ولم يمض من عمره هو نفسه سوى عشرين ربيعًا.

* * *

عندما مات أبوه، يزيد بن معاوية، كانت الأرض تنتفض بحمى الحرب. فأنصار الحسين وعلي وآل البيت ينادون بثارات الحسين الشهيد في العراق، والمدينة المنورة تلعق جراحها بعد أن استباحها جيش يزيد قامعًا تمردها، والحجاز يبايع عبد الله بن الزبير خليفةً، ومصر تراقب الموقف بحذر، والخوارج يعيثون فسادًا هنا وهناك.

وسط كل هذا دهم الموت يزيد الذي خلف ثلاثة أبناء، كانوا على عكس أبيهم معروفين بالصلاح والتقوى والتنسُك، هم معاوية وخالد وعبد الرحمن. فتوجه بنو أمية لمعاوية وأُخِذَت له البيعة. وتلقى الخليفة الجديد بيعة الناس، وهو يضمر أمرًا يرجو أن يحسم به أمر تمزق أمة المسلمين بين الزعامات هنا وهناك.

* * *

سمع أهل دمشق صوت المنادي أن «الصلاة جامعة» فاحتشدوا في المسجد يرون ما الأمر. صعد إلى المنبر شاب طويل أبيض وسيم الملامح كثيف الشعر مستدير الوجه. إنه الخليفة. معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، أو أبو ليلى كما يُكنَى.

تأكد من إنصات الجمع وتلاشي أثر لغطهم. ذكر الله وأثنى عليه وعلى رسوله، تَرَضَّى على الصحابة. سكت يستجمع أنفاسه ويُسَكِن قلبًا يكاد صدره ينشق عنه انفعالاً.

أخيرًا قال «أيها الناس، إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قوي كما تركها الصدّيق لعمر، وإن شئتم تركتها شورى في ستة منكم كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك، وقد تركت لكم أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم».

معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان
(معاوية الثاني)

سحابة صيف عابرة بسماء بني أمية

بتنازُل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان سنة ٦٦١م، انتهى عصر دولة الخلفاء الراشدين، ليبدأ عصر الدولة الأموية الأولى، التي اتخذت من دمشق عاصمة لها، حتى سقوطها في العام ٧٥٠م، على يد الأسرة العباسية وأتباعها و[illegible]، لتقوم الدولة الأموية مجددًا ولكن غربًا في الأندلس، وتتخذ قرطبة عاصمة لها من العام ٧٥٦م وحتى سقوطها في العام ١٠٣١م.

وبانتهاء العصر الراشدي [illegible] الخلافة [illegible] تحقق [illegible] محمد من أن الخلافة بعده ٣٠ عامًا ثم مُلكًا عضوضًا، و[illegible] الأموي [illegible] من [illegible] أول [illegible] الخلفاء.

لكن «لو» تشي بوقوع ما هو ضد المرغوب.

فالشاب الصالح الطيب؛ الذي كان يؤمَل منه أن يبرد جبهات الدم والنار المفتوحة في أنحاء الدولة، وأن يؤلف القلوب بعد أن تحاجزت بما صنع الحدّاد، يحتضر ولم تمض ثلاثة أشهر على مبايعته، ولم يمض من عمره هو نفسه سوى عشرين ربيعًا.

* * *

الأموي أن من يفترض به أن يمثلهم ويجمعهم ويرعى مصالحهم قد خرج عن الوظيفة المنوط بها، بل وأصبح يمثل تهديدًا على ما جاؤوا به لكرسي الخلافة لأجله، فقرروا «إنهاء خدمته» بشكل لا يثير اللغط، مثلما قد يفعل الخروج المسلح؟

إن هذا الاحتمال يبدو شديد المنطقية، خاصة أن وفاة معاوية الثاني قد أدت لانتقال الحكم من البيت السفياني - نسبة لأبناء أبي سفيان - إلى البيت المرواني - نسبة لمروان ابن الحكم - بتولي هذا الأخير الخلافة وتوريثها بعد ذلك لعقبه كما سيأتي لاحقًا.. لكأننا نقرأ من بين السطور أن القيادة الأموية قد أدركت أن دور البيت السفياني قد انتهى، وأن المرحلة التالية تتطلب خلفاء من نوع مختلف.

للأسف فإن المصادر لا تقدم لنا ما يحسم تلك التساؤلات. فلا يبقى لنا إلا محاولات التكهن والاستنتاج. فقط يمكننا أن نتفق أن هذا الخليفة الشاب الجريء لو كان قد امتد به العمر لتغير شكل التاريخ، ولكن هذا التاريخ ليس مجالاً لفرضيات الـ«ماذا لو» بقدر ما هو خاضع فقط للأمر الواقع.



أحدقوا بفراشه في حلقة محكمة، وهم يرقبون أنفاسه المترددة عبر ثقب إبرة. يود بعضهم لو جثم على صدره، فعجّل بإنهاء تلك الأزمة التي خلقها لهم هذا الشاب من حيث لم يحتسبوا.

يعرفون أن موته لن يحل المشكلة تمامًا، فلا عقب له لوراثة الخلافة، وأخواه خالد وعبدالرحمن بَعد صغيران. أي أن وفاته ستؤدي إلى فراغ، والفراغ - بطبيعة الحال - يؤدي للصراعات. كلهم يعلمون ذلك. ولكن فليُدَبَّر هذا الأمر بعد أن يُفرَغ من أمر ما أحدث من أمر أجل وأثقل. فرب قضاء أخف من قضاء غيره.

تقدم بعضهم منه بعد تردد، ومال يسأله إن كان ثمة من يرغب في استخلافه من بعده. وسؤال كهذا هو خطوة بها الكثير من المجازفة، فمن يضمن ألّا ينطق باسم بعض من لا ينتمي لبني أمية؟

رفع بصره إلى السائل وألقى آخر كلماته باصقًا ازدراءه الأمر كله في بسمة هازئة «لم أذق حلاوتها، فلِمَ أتحمل مرارتها بعد موتي؟!»

❋ ❋ ❋

عندما يمرض شاب في العشرين من عمره بهذا الشكل المفاجئ، ثم يموت بتلك السرعة، دون سبب منطقي، وعقب موقف صادم شديد الخطورة كالذي اتخذه معاوية بن يزيد، فإن من العبث ألا يقفز احتمال الاغتيال بالسم إلى ذهن المتأمل في تلك الأحداث.

ولأن قائمة المستفيدين من موت الخليفة الشاب لا تضم سوى عشيرته الأموية - تحديدًا كبرائها - فإن هذا يقودنا للسؤال: هل قرر كبار البيت

[illegible] الأموي [illegible] أن من يفترض به أن يمثلهم ويجمعهم [illegible]
[illegible] جاؤوا به لكرسي الخلافة لأجله، فقرروا «إنهاء خدمته» بشكل لا يثير اللغط، مثلما قد يفعل الخروج المسلح؟

إن هذا الاحتمال يبدو شديد المنطقية، خاصة أن وفاة معاوية الثاني قد أدت لانتقال الحكم من البيت السفياني ـ نسبة لأبناء أبي سفيان ـ إلى البيت المرواني ـ نسبة لمروان ابن الحكم ـ بتولي هذا الأخير الخلافة وتوريثها بعد ذلك لعقبه كما سيأتي لاحقًا.. لكأنما نقرأ من بين السطور إن القيادة الأموية قد أدركت أن دور البيت السفياني قد انتهى، وأن المرحلة التالية تتطلب خلفاء من نوع مختلف.

للأسف فإن المصادر لا تقدم لنا ما يحسم تلك التساؤلات. فلا يبقى لنا إلا محاولات التكهن والاستنتاج. فقط يمكننا أن نتفق أن هذا الخليفة الشاب الجريء لو كان قد امتد به العمر لتغير شكل التاريخ، ولكن هذا التاريخ ليس مجالًا لفرضيات الـ«ماذا لو» بقدر ما هو خاضع فقط للأمر الواقع.

* * *

لو كان بعض السماء قد سقط على الأرض، لما كانت وحوش البرية قد تخطفت بني أمية على مشهد من الناس، ما كان الرعب ليجتاحهم بهذه الصورة.

فأن يتصعد الخليفة المبايع رسميًا على المنبر في عاصمة دولته، ويعلن تخليه عن منصبه ورد الأمر للناس، في الوقت الذي تتمزق فيه الأمة متعطشة لمن يوحد صفها، وبالتزامن مع إعلان ابن الزبير أميرًا للمؤمنين بالحجاز، لا يصب إلا في صالح هذا الأخير، ويسحب البساط من تحت بني أمية بعد أن كانوا قد تعاهدوا أن يتلقفوا الخلافة فيما بينهم كتلقف الكرة.

وليت الأمر يقف عند فقد الخلافة، بل إن من شأنه أن يتعداه لفقدهم رؤوسهم، فما استخلاف ابن الزبير سيأتي وقت الحساب الثقيل، حساب تحويل الخلافة إلى مُلك، حساب كربلاء، حساب مذبحة المدينة بحق المعارضين والحصار الفاشل لابن الزبير في مكة.

النجاة النجاة إذن. فالأمر قد تعدى أن يكون أمر رجل واحد ـ الخليفة ـ بل إنه أمر عشيرة بأكملها، بمصالحها وتحالفاتها وتكتلاتها.

تتقارب الرؤوس وتتباعد. يتزاور كبار البيت الأموي، يتدبرون الأمر، فالخليفة منذ ألقى صاعقته قد دخل بيته وأغلق بابه وزم شفتيه عن الكلام في ما اتخذ من قرار..

أخيرًا يسمعون ما يثلج صدورهم ويفتح فرجة في ما سُد أمام أعينهم من أفق..

الخليفة الشاب. يحتضر.

* * *

أحدقوا بفراشه في حلقة محكمة، وهم يرقبون أنفاسه المترددة عبر ثقب إبرة. يود بعضهم لو جثم على صدره، فعجّل بإنهاء تلك الأزمة التي خلقها لهم هذا الشاب من حيث لم يحتسبوا.

يعرفون أن موته لن يحل المشكلة تمامًا، فلا عقب له لوراثة الخلافة، وأخواه خالد وعبدالرحمن بَعد صغيران. أي أن وفاته ستؤدي إلى فراغ، والفراغ ـ بطبيعة الحال ـ يؤدي للصراعات. كلهم يعلمون ذلك. ولكن فليُدَبَّر هذا الأمر بعد أن يُفرَغ من أمر ما أحدث من أمر أجل وأثقل. فرب قضاء أخف من قضاء غيره.

تقدم بعضهم منه بعد تردد، ومال يسأله إن كان ثمة من يرغب في استخلافه من بعده. وسؤال كهذا هو خطوة بها الكثير من المجازفة، فمن يضمن ألّا ينطق باسم بعض من لا ينتمي لبني أمية؟

رفع بصره إلى السائل وألقى آخر كلماته باصقًا ازدراءه الأمر كله في بسمة هازئة «لم أذق حلاوتها، فلِمَ أتحمل مرارتها بعد موتي؟»

* * *

عندما يمرض شاب في العشرين من عمره بهذا الشكل المفاجئ، ثم يموت بتلك السرعة، دون سبب منطقي، وعقب موقف صادم شديد الخطورة كالذي اتخذه معاوية بن يزيد، فإن من العبث ألا يقفز احتمال الاغتيال بالسم إلى ذهن المتأمل في تلك الأحداث.

ولأن قائمة المستفيدين من موت الخليفة الشاب لا تضم سوى عشيرته الأموية ـ تحديدًا كبرائها ـ فإن هذا يقودنا للسؤال: هل قرر كبار البيت

مروان بن الحكم

نهاية عبثية لرجل مغامر

- سوريا - مرج راهط - يونيو ٦٨٤م

شد مروان بن الحكم قامته على صهوة جواده، متأملاً جند جيشه المستعد لخوض معركة حاسمة، ضد جيش الضحاك بن قيس ومن انحازوا معه لعبد الله بن الزبير. تلك المعركة التي لم تكن مجرد صراع بين رجلين، بل بين أحزاب تشابكت علاقاتها وتعقدت خيوط روابطها.

فالضحاك - الذي كان واليًا على دمشق من قِبَل الأمويين - زعيم حزب القبائل القيسية (القيسية هم عرب الحجاز)، ومنافسه حسان بن مالك هو سيد اليمنية (عرب اليمن)، والصراع القيسي اليمني يرجع لما قبل الإسلام، بل وربما كانت حروب الردة وادعاء النبوة من بعض حلقاته.

وإن كان الأمويون - بحكم الانتماء القرشي - قيسيين، فإن اليمنيين هم قوتهم الضاربة، خاصة وقد غضبت القيسية من اجتراء يزيد على مداهمة المدينة، منذ أقل من عامين، لقمع المتمردين ضده، وما جرى في تلك الحملة من تذبيح وتدمير بل وهتك للأعراض. فكان انحراف الضحاك بن قيس عن مساندة بني أمية وانحيازه لابن الزبير بعد موت معاوية الثاني وأخذ

البيعة لمروان بن الحكم، أمرًا طبيعيًا. كذلك كانت مراهنة القيسيين على ورقة عبد الله بن الزبير، محاولة منهم للتفوق على منافسيهم اليمنيين. كان الضحاك وحزبه يراهنون على أن يتمزق أمر بني أمية بعد موت الخليفة، وألا يمر انتقال الخلافة من بيت إلى بيت آخر بسلام.

إضافة لذلك، فقد أبدى مروان ـ بصفته كبير بني أمية ـ رغبته الصريحة في التوجه لمكة ومبايعة عبد الله بن الزبير، بعد أن رأى أن البيت الأموي الكبير يكاد يتمزق بين منادين به خليفة، ومطالبين بمبايعة خالد بن يزيد بن معاوية، وآخرين هتفوا باسم عمرو بن سعيد بن العاص.

هل كان هذا القرار الغريب مناورة من الرجل الذي تشهد مواقفه، في الأزمات والأحداث الجليلة، أنه وصولي انتهازي مغامر يتشبث بكل فرصة للاقتراب من مواقع الصدارة؟ الحقيقة أن القراءة لشخصيته قد تؤدي لترجيح ذلك. وأن إظهاره نية مبايعة خليفة مكة والحجاز إنما هو بمثابة الرسالة المبطنة لفرقاء بني أمية، أن اتحدوا وإلا أخذها غيركم.

تؤكد ذلك سرعة إعلانه تغيير موقفه، بعد لقائه عبيد الله بن زياد ـ الوالي السابق ليزيد على العراق، والموجه للحملة العسكرية التي أوقعت مذبحة كربلاء بالحسين وآل بيته ـ حين فر ابن زياد من العراق لتعرضه لمطاردة المنادين بالثأر للحسين، والموالين لعبد الله بن الزبير، ووصل إلى الشام والتقى مروان، ولامه بقسوة على ما بلغه من رغبته مبايعة ابن الزبير. ففورًا أعلن مروان رجوعه عن ذلك مكررًا «ما فات شيء بعد».

وفي مؤتمر بتل الجابية بسوريا، اجتمع بنو أمية وتناقشوا، ثم خرجوا بقرار يرضي كل الأطراف: أن يكون مروان الخليفة، ومن بعده خالد بن يزيد، ومن بعد خالد، عمرو بن سعيد بن العاص.

وأخيرًا، نال مروان بن الحكم ثمرة «كفاحه» لسنوات ليست بالقليلة. منذ قربه عثمان وجعله كاتبه وصاحب سره، ثم نهوضه في شأن «طلب دم عثمان» مع أصحاب الجمل، فانتقاله بعدها لبلاط معاوية بن أبي سفيان، وتحركه في المدينة ضد الحسين بن علي، في عهد يزيد. وسعيه في دهاليز وأروقة السياسة الأموية لنقل الخلافة من البيت السفياني، لتسقط الكرة في حجره، وصولاً لتلك اللحظة الفارقة في مرج راهط.

الخليفة.. مروان بن الحكم بنى أبي العاص بن أمية.. أمير المؤمنين.
تذوق اللقب على لسانه بتلذذ، وهو يسترجع تفاصيل طريقه الطويل إليه.

فوجئ الضحاك بهذا التطور الدرامي، فحصّن دمشق وتحرك للقاء الجيش الأموي، وقد انضم له ـ الضحاك ـ بعض ولاة مدن الشام وفلسطين، وطمأن نفسه بأن المصريين قد بايعوا ابن الزبير بعد وفاة معاوية الثاني. ما يعني أن مروان ومنه معه قد وقعوا بين فكّي الأسد.

ولكن حسابات ابن قيس لم تكن دقيقة، وبالتالي فإنها لم تكن صائبة.

فقد تقدم مروان أولاً فاسترد دمشق، ثم عسكر شرقها بمرج راهط متربصًا بعدوه وحلفائه. وللدهشة، تنقل كتب التاريخ أن مروان بن الحكم حين نظر لجنده بكى وقال «الآن وقد رق العظم مني وصرت في ظمأ حمار ـ كناية عن اقتراب الأجل ـ صرت أضرب الكتائب بعضها ببعض». وهو قول غريب ممن عاش حياته موقدًا نيران الفتن والصراعات هنا وهناك. منذ أزمة محاصرة وقتل عثمان، مرورًا بموقعة الجمل، ثم الصراع بين علي ومعاوية، فالموقف من الحسن بن علي. كان دائمًا اسم مروان يُذكَر في سياق تسعير الحرب.

وأخيرًا «ضُرِبَت الكتائب بالكتائب» لتسحق القوة الأموية وحليفتها اليمنية حزب القيسيين، وليلقى الضحاك حتفه، ومن بعده قادة حلفائه واحدًا تلو الآخر. ودخلت الشام وفلسطين في طاعة الخليفة، ثم تبعتها مصر التي كانت بيعتها لابن الزبير مذبذبة. وبقي العراق والحجاز في قبضة هذا الأخير.

عاد الخليفة لعاصمته دمشق، ينظم أمور الدولة، ويرسل الجيوش لفرض السيطرة على الحجاز والعراق، ومطاردة ذيول الحزب القيسي.

إضافة لذلك، فقد كانت ثمة مسألة تؤرقه: رغبته في نقض ما عاهد عليه في مؤتمر الجابية من استخلاف خالد بن يزيد ثم عمرو بن سعيد بن العاص، طمعًا منه في تعيين ابنيه عبد الملك وعبد العزيز لولاية عهده.

* * *

سرعان ما أسعف مروان دهاؤه الشهير. فأما عمرو فقد استغل الخليفة ما تردد من قوله «أنا أصير يومًا خليفة»، فصادف حضوره - عمرو - بعض مجالس الخلافة، فأشار مروان لأحد رجاله فقام يقول للناس «إن أناسًا يتمنون أماني» ونظر لابن سعيد معرضًا به نظرة المشكك في ولائه، فاضطرب هذا، فاستغل الرجل اضطرابه وصاح بالحضور «بايعوا لعبد الملك وعبد العزيز بولاية العهد» فقاموا جميعًا وبايعوا ولم يستطع عمرو أن ينطق باعتراض.

وأما خالد، فقد قيل لمروان «تزوج أمه فيصغر عند الناس ويهون أمره». فتزوج مروان بأم خالد - أرملة يزيد - وبقي يتحين فرصة لإهانته أمام الناس ليسقطه من أنظارهم.

وكانت هذه هي الزلة التي أدت بمروان بن الحكم إلى هلاكه.

* * *

بينما الخليفة في مجلسه، دخل عليه خالد بن يزيد وهو يمشي بين صفّين من الحضور. ألقى السلام على خليفته وزوج أمه، فالتفت هذا إليه وبقي يتفحصه صامتًا، وقد رفت على شفتيه بسمة متهكمة.

أخيرًا أطلق ضحكة مختصرة وافتعل إشارة استهانة وهو يبصق إهانته للفتى «والله إنك لأحمق. أقبل يا بن رطبة الإست!» (الإست = الدُبُر).

احتاج المسكين للحظات ليدرك أنه قد أهين أمام من يُفتَرَض أن يكونوا يومًا رجال دولته. أحس خيوط عرق الحرج المنسال على ظهره سياطًا تنفذ بذوائبها إلى روحه. الضحكات التي ترددت من حوله أكدت له أن ما جرى منذ قليل لم يكن عفوي المنشأ. استحضر عذرًا واهيًا وانسحب من المجلس هارعًا إلى أمه يخبرها أمر الإهانة. استمعت إليه صامتة، وقد قرأ في عينيها إدراكها أن المسألة تتجاوز مجرد قول عابر في لحظة سخافة تنتاب البعض من حين لآخر. أخيرًا قالت «لا بأس عليك.. أنا أكفيك» ثم أردفت «ولا تخبر أحدًا أنك قد حدثتني بما جرى»

* * *

ألقى عنه ثيابه وأسلم بدنه المرهق لفراشه الوثير مسبلاً جفنيه. فتحهما بغتة وقال كمن تذكر شيئًا «أحدثك خالد بأمر اليوم؟»

ابتسمت أم خالد مفتعلة لامبالاة كاذبة وأجابته «أي أمر؟» ثم عدلت من الغطاء فوق جسده، وربتت كتفه مردفة «لأنت عند خالد أكبر من أن يبلغني أمرًا عنك».

عاد إلى استرخائه مغمضًا عينيه، بينما جلست المرأة إلى جواره ترقب وجهه، وصعود ونزول صدره. أخيرًا لحظت انتظام أنفاسه، فسرت على أطراف أصابعها تستوثق أن لا أحد إلى جوار باب المخدع. عادت تجلس

إلى جوار زوجها. تناولت وسادة كبيرة وبلا أدنى قدر من التردد وضعتها على وجهه، وألقت بثقل جسدها عليها.

* * *

مروان بن الحكم، شيطان السياسة ومسعر الحروب واللاعب على كل الحبال.. أفلت من القتل على يد المتمردين ضد عثمان في دار هذا الأخير، أو في موقعة الجمل على يد بعض جند علي، أو خلال الحرب بين هذا الأخير ومعاوية، أو حتى في أثناء حصار ثوار المدينة لبني أمية في عهد يزيد، وخرج سالمًا من واقعة مرج راهط، ليموت على فراشه مغمومًا بوسادة وضعتها على وجهه امرأة غاضبة من إهانتها وابنها. أحيانًا تكون سخرية القدر لاذعة أكثر مما يتوقع البعض.

ارتج القصر للنبأ الرهيب. اندفع عبد الملك ثائرًا نحو زوجة أبيه يبغي قتلها، لولا أن قيل له «لو قتلتها لعرف الناس أن أباك قد قتلته امرأة» فكف يده عنها وهو يكاد يحترق غيظًا.

بايع الناس عبد الملك بن مروان أميرًا للمؤمنين، بينما اعتزل خالد شأن السياسة - الذي لم يكن به ميل له من الأصل - واتجه للاشتغال بالعلم والسعي لترجمة كتب الدول التي فتحها العرب، بادئًا بذلك حركة الترجمة الشهيرة التي استمرت لقرون.

هكذا انتهت، بشكل عبثي غريب، حياة رجل مغامر ازدحمت أيامه بالصراعات والصدامات ومراهنات السياسة والسلطة. لم تكن فترة تحقق حلمه بأن يرتقي أعلى سلالم الحكم بالطويلة. لكنها كانت مقدمة لحكم سلسلة من أبنائه وأحفاده لعقود تالية ليست بالقليلة.

شباك على مشهد مَكّي

عبد الله بن الزبير

ويل للناس منك، وويل لك من الناس

مكة ـ سبتمبر ٦٩٢م

تهدر المجانيق، فترد عليها صواعق السماء الغضبى في جوقة مرعبة. تهوي صاعقة على بعض جند الشام فيرتعبون أن يكون قد نالهم بعض غضب الإله، فيتناول قائدهم الحجاج بن يوسف الثقفي حجرًا بيده ويلقمه المنجنيق، وهو يصيح فيهم أن اثبتوا، فليس هذا بغضب الرب، إنما هي صواعق الحجاز التي يألفها أهل الجزيرة.

تنال بعض الصواعق من بعض جند ابن الزبير المحاصَرين في مكة، فينظر الحجاج لجنوده أن «هل رأيتم؟ إنهم ينالهم ما ينالنا».

تشتد قلوب جند الشام وتتملكهم الحماسة، فينشطون في قذفهم الحرم المقدس بالحجارة واللهب.

مكة. مسقط رأس النبي. منزل دعوة الإسلام. تُقصَف. الكعبة. قدس أقداس المسلمين. تُضرَب بجلاميد الصخر.

منذ أيام في موسم الحج المنصرم كان الشيطان يُرجَم بالحصى.
واليوم شيطان الإنس يرجم الكعبة بالحجارة!

* * *

إنها المعركة الأخيرة من صراع تسع سنوات مريرة، بين بني أمية وعبد الله بن الزبير. بدأت في عهد يزيد بن معاوية بعد مقتل الحسين، واستمرت في عهد مروان بن الحكم، والآن قد قرر ابنه عبد الملك حسم الأمر، ووضع نهاية لذلك المتمرد عليه، وتلك الشراذم الملتفة حوله، والتي بايعته خليفة للمسلمين على العراق والحجاز.

بدأ عبد الملك بقطع جناحي ابن الزبير. انتزع بنفسه منه الكوفة وسائر العراق، وقتل أخاه وواليه عليها مصعب. ثم أرسل الحجاج بن يوسف يتوغل في جزيرة العرب، ويمزق عنه سلطانه على الحجاز حتى يحصره في مكة. والحجاج موقن من النصر.

«رأيت في نومي أني قد سلخت جلد ابن الزبير، ولست أرى ذلك إلا أنني أهزمه وأقتله، فابعثني إليه»

قالها له الحجاج بإصرار، فبادر عبدالملك بإرسال من قيل إنه يمدحه قائلاً «الحجاج هو جلدة ما بين عيني».

* * *

بين فوضى المرتعدين خلف سواترهم، والباحثين عن عاصم من جحيم قذائف جيش الحجاج، وقف هو.

شيخ ستيني، نحيف الجسد مشدود القامة. تكاد الجلاميد تطيحه، وتمر الشظايا من حوله. بل ربما يمسه بعضها. فلا يهتز. يرقب ما يجري بعينين لا تطرفان. ونظر يخرق حاجز الآن متنقلاً بين الآونة بحرية طائر السماء.

يرى نفسه طفلاً يحمله أبوه أمامه على صهوة فرسه في بعض الغزوات، حتى يعتاد ابنه أصوات قعقة السلاح ودوي سنابك الخيل على الأرض، فيألفه حين يكبر. يشعر ببرد عرق كف يده القابضة على سيفه أمام باب عثمان، وإلى جواره الحسن والحسين ابنا علي، ومحمد بن طلحة، في دفاع عبثي ضد جموع المتمردين. يسمع صوت نفسه وهو في موقعة الجمل في جيش عائشة وطلحة والزبير، يصارع باليد مالك الأشتر - أحد قادة جيش علي - ويلقيه أرضًا صارخًا «اقتلوني ومالكًا واقتلوا مالكًا معي». يشم رائحة الحسين في عناقهما الأخير قبل انطلاق هذا الأخير إلى موعده مع المنية في كربلاء.

أحداث تترادف على ناظريه، راسمة على صفحة وجهه الشارد بسمة عابرة، عبوس مباغت، وجل خفيف. أخيرًا احتل الندم قسماته مزيحًا كل ذلك.

والندم إذا حل ووضع عصاه، فاعلم - يا عافاك الله أن السيف قد سبق العذل.

امتشق الندم سياطه وصار يهوي على روحه بلا رحمة. أنت تسرعت في قبول البيعة قبل أن تستوثق من أمرك. فرحت بمبايعة أهل الحرمين لك؟ وما أهل الحرمين أمام جند بني أمية؟ أحسبت أن لهم هيبة تعصمك؟ انظر لترى بنفسك مقدار هيبة الكعبة نفسها في نفوس هؤلاء الطغاة!

وحين هلك يزيد وتبعه ابنه، صارت بني أمية كالغنم الشاردة، ألم يأتك قائد جند الشام يعرض عليك الخلافة، ويلح عليك في التوجه معه لتسلُم دمشق لتكون عاصمتك، فأبيت رغم أنه تبين لك صدق وعده، حتى برم بك وصاح في وجهك «قبح الله من رأى أن لك رأيًا!»؟

والناس الذين بايعوك. ألم توحشهم منك بتنكيلك بمحمد بن الحنفية (ابن علي بن أبي طالب من امرأة من بني حنيفة) وأصحابه، وتهديدك إياهم بالحرق والقتل إن لم يبايعوك؟

والآن أنت وحدك. فقدت كل مؤيد. تسلل الناس عنك. لم تبق لك إلا تلك الشرذمة البائسة. فإن كان الظفر في الدنيا قد فاتك، فليكن آخر عهدك بها ثباتًا عند الحتف!

اذهب فودع أمك. أسماء. اطلب منها أن تدعو لك. ألا تبكيك عندما يأتيها نبأ مقتلك. ألا تُشمِت بك وبها بني الأجلاف. أن تحفظ بصبرها على المصيبة سيرة آل أبي بكر وآل الزبير.

❊ ❊ ❊

قادوها حيث الجثمان المصلوب منكس والرأس الدامي منصوب على رمح إلى جواره.

أغناها شم ريح الابن الحبيب عن البصر الفقيد. اصطنعت من قوة روحها قبضة خفية أسندتها كيلا تميد بها الأرض، وقالت بصوت غلب حزمه ما به من شروخ «أما لهذا الراكب أن يترَجَل؟»

التقطت أذناها خطوات تقترب، وأحس قلبها حضورًا ثقيلاً على النفس يجثم فوق المكان. ساد صمت مترقب، ثم سمعت الحجاج يسألها غير مبالٍ بإخفاء شماتته «ماذا ترين قد صنع الله بابنك؟!»

أجابت من فورها دون أن تلتفت «أي بأس؟ قد أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك!»

انصرف الحجاج، وبقيت واقفة مكانها عند البدن العزيز المصلوب. مس أذنيها حس عبد الله بن عمر بن الخطاب يلقي عليها السلام، ويقول

بصوت رققه الحزن والإشفاق «إن هذه الجثث فانية، وإن الأرواح عند الله، فاتقي الله واصبري»

التفتت إليه وافترت شفتاها عن ابتسامة، لو وزع ما فيها من ثقة بالله على أهل الأرض لكفاهم، ثم قالت «وأي بأسٍ وقد حُمِلَ رأس يحيى بن زكريا لبغي من بني إسرائيل؟»

* * *

لأن رواة القديم من الأحداث يهوون القصص ذات «الدلالات»، والتي تضفي بعدًا أسطوريًا على أبطال تاريخهم، بالذات من استشهدوا منهم، فلم يكن عبد الله بن الزبير بن العوام استثناءً.

تقول القصة الأولى إن الرسول محمد كان يحتجم (فصد الدم)، وكان عبد الله في بيته، وكان بعد صبيًا. فأعطاه الرسول طست دم الحجامة وأمره أن يلقي بها فيه بعيدًا. فخرج وعاد ولم يغب فسأله النبي «ما صنعت بالدم؟»

أجاب «عمدت إلى أخفى موضع علمتُ فجعلته فيه»

فنظر الرجل في عينيه وهو يسأله «لعلك شربته» فلما أجاب الفتى بالإيجاب صمت النبي قليلاً، ثم مسح رأسه قائلاً بإشفاق «ويل للناس منك. وويل لك من الناس!»

أما القصة الثانية فتذكر أن أول ما تفتق عنه فم ابن الزبير طفلاً كان كلمة «السيف». ولم يكن يدعها من لسانه كأنها حلوى يستلذها، فكان أبوه ـ الزبير بن العوام ـ يقول له «والله ليكونن لك من يوم ويوم وأيام»

وقد تحقق مضمون القصتين. فكان ويل منه وويل عليه، وكان له مع السيف يوم ويوم وأيام.

يعلم الله مدى صدق أو كذب القصتين. ولكن في كل الأحوال، فإن عبد الله بن الزبير إن لم يكن قد ظفر بالخلافة والحكم، فقد ظفر بنهاية تستحق ألّا تُنسَى.

* * *

عمر بن عبد العزيز
حلم كان أجمل من أن يتحقق

دمشق - ٧١٧م

«أيها الناس، إنه لا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، ألا وإني لستُ بقاضٍ ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً.
إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم، ألا إن الإمام الظالم هو العاصي، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»

إن كانت خطبة توليه الخلافة قد أثلجت صدورًا فإنها قد أوغرت غيرها. فإن كان المعروف من السيرة الطيبة لعمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، يُصَدِق كلامه عند العامة ويدفع عنه شبهة الرياء والاصطناع، فإنه يثير عليه أمراء بني أمية ممن كانوا يتطلعون لخلافة ابن عمه وسلفه سليمان بن عبد الملك، أو على الأقل كانوا يأملون أن يستخلف هذا الأخير رجلاً «منهم» يسير فيهم سيرة من سبق من خلفاء الأمويين. ولكن.. عمر بن عبدالعزيز؟
يقولون إن «العرق دساس»، وإن أمه المنحدرة من نسل عمر بن الخطاب

لا بد قد ورثته بعضًا من شدة هذا الأخير في أمور الدنيا والدين. يتوجسون خيفة، وقد هم بعضهم أن يرفض البيعة حين خرج عليهم رجاء بن حيوة ـ وزير الخليفة الراحل ـ بينما كان هذا الأخير في سكرات موته، يرفع لهم عهدًا يأمرهم بمبايعة من فيه على السمع والطاعة، قبل أن يعرفوا اسمه. وحين أُعلِن اسم عمر بن عبد العزيز وحاول بعضهم إثارة اللغط، صاح به ابن حيوة «أضرب عنقك والله! قم فبايع!». والوزير القدير لا يمزح. فهو من نصح سليمان أن يختم حياته بعمل صالح، وليس أصلح من أن يستخلف ابن عمه وصديق عمره، الشاب الثلاثيني الذي تلهج الألسنة بطيب ذكره واستقامته وعدله، منذ كان واليًا على المدينة، بل ومنذ كان يقيم بها طالبًا للعلم في خلافة عمه عبد الملك بن مروان.

أخيرًا يموت اللغط في مهده، حين يكمل رجاء قراءة العهد ويعلن تضمنه أن يخلفه يزيد بن عبد الملك.

وتؤخذ البيعة للرجل الصالح فلا يبتسم فرحًا، بل يعلو وجهه عبوس، ويسأله خادمه عما به فيجيب «ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه، غير كاتب إليّ فيه ولا طالبه مني!»

يعود إلى بيته فينادي زوجته وابنة عمه ـ فاطمة بنت عبد الملك ـ ويخبرها محرجًا أنه قد صار إلى أمر ثقيل، لا يعرف إن كان سيقدر معه على أن يوفيها حقها من الاهتمام. وأنه يعذرها مسبقًا إن رأت الانفصال عنه لتستمتع بحياتها، فهي بعد شابة مقبلة على الحياة.

تُطرِق فاطمة. الفتاة الجميلة ربيبة النعمة والعيش المرفه. التي يقول فيها الشعراء «بنت الخليفة والخليفة جدّها. أخت الخلائف والخليفة زوجها». ويطول إطراقها.

ويحسب الزوج أنها قد سكتت حرجًا عن الموافقة على ما عرض، فيستطلع

وجهها الذي يرتفع إليه وفيه نظرة عتاب أن خطر الفراق على ذهنه. وتغني قبضتها على يمينه عن كثير من الكلام.

❊ ❊ ❊

يرتج البيت الأموي بما جرى. تنتفخ العروق غضبًا وتبخ الألسنة سموم الكلام. ترتعد العمائم على الرؤوس وتُجذَب اللحى والشوارب غيظًا وحنقًا.

ثروات بني أمية، نقدية كانت أو عينية، كل غالٍ ونفيس من صامت وناطق وملبوس ومحمول ومركوب، ضُمَّت بأمر الخليفة إلى بيت المال تحت مسمى «المظالم». حتى مجوهرات زوجته، ومخصصات الخليفة من ركائب وأزياء وأموال، حتى عطاؤه هو من بيت المال أنقصه إلى حد لا يُصَدَّق أن يعيش به رجل من أدنى العامة.

يعلن أن تلك أموال الرعية ويجب أن تُرَد إليها. يعلن كذلك أن لا جباية لمال بغير حق. وأن من له مظلمة فإن حقنا عليه أن يبلغنا بها وإلا فقد خاننا!

رجل يجعل من إخفاء المظلوم مظلمته عنه خيانة له!

ترتفع أصوات الناس إلى السماء، تسابق بالدعاء أصوات لعنات بني أمية على ذلك الذي لا يدرون متى انشق عنه القدر لينغص عليهم حياتهم، ويسلبهم نعمتهم.

وما أن أفاقوا من أول ضربة حتى أدارت رؤوسهم التالية.

فقد أرسل الخليفة لولاته أن يوقف مظلمة أموية شهيرة، وهي الاستمرار في أخذ الجزية ممن أسلموا حديثًا، وذريعتهم في ذلك أنهم «قد أسلموا هربًا من الجزية».

وحاول بعض الولاة مراجعته بأن هذا من شأنه إفقار الخزانة، فرد بأن

الله قد بعث محمدًا هاديًا وليس جابيًا. ولما عاد الوالي يلح مقترحًا اختبار صدق إسلام من أسلموا بالختان، عاد الخليفة يجيب «إن الله لم يبعث محمدًا خاتنًا!»

وأرسل إليه آخر يشكو انعدام الأمن في ولايته، ويطلب السماح له بأخذ المشتبه فيهم بالريبة، فجاءه الرد صارمًا برفض ذلك.

واستمرت ضربات المعول العمري لأركان الطغيان الأموي.
أوامر للولاة، أن تجنبوا المسارعة للحكم بعقوبة فيها قتل أو قطع، فلإن تخطئ في العفو خير من أن تخطئ في العقوبة.

سحب للجيش المحاصِر للقسطنطينية واتفاق تهدئة مع السلطة البيزنطية.
وقرار بعدم إرسال الجند إلى أطراف الأرض حيث المخاطر والتهلكة.

إقصاء لآل المهلب ـ وهم الحلفاء والأعوان العسكريون للبيت الأموي ـ عن الوظائف، فقد كان عمر يقول «هؤلاء جبابرة وأنا لا أحب مثلهم!» وكانوا بالفعل قد تسلطوا على ما بأيديهم من ولايات، وقمعوا أهلها ونهبوا الأموال الطائلة. فطالبهم عمر برد ما أخذوا، بل واعتقل يزيد بن المهلب لإنكاره ما وضع يده عليه.

إلغاء لسب ولعن علي بن أبي طالب من فوق المنابر، وأن يحل محل ذلك قول «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي»

تقريب آل بيت علي وتأمينهم من المطاردات والاضطهاد.

باختصار. فقد كان عمر بن عبد العزيز يمحو كل ما خط بنو أمية من مظالم ومظاهر للتسلط والقمع.

* * *

ترقبوا أن تنقص الأموال فتفتقر الدولة ويثور الناس، فلم يحدث ذلك. بالعكس، أمن الناس فباعوا واشتروا وتناصفوا فعم الرخاء.

انتظروا أن يغدر البيزنطيون فيحدثوا ما يبرر الحرب، ولكن إمبراطورهم المتديّن ليون التزم الهدنة.

توقعوا أن يغضب الشعراء المداحون من حبسهم عن مقام الخليفة ومنعهم أعطياتهم، فلم يجد هؤلاء ما يؤذون به ابن عبد العزيز، إما لعجزهم عن وضع أيديهم على نقيصة مذمومة له، وإما لشمول عدله إياهم مع باقي الرعية. بل إن شاعرًا خرج من عنده ولم ينل إلا دراهم قليلة من حر مال عمر. فلما سألوه إن كان قد استاء أجابهم بصدق «رجل يمنع الشعراء ويقرب الفقراء. وإني عنه لراضٍ!»

حتى الذئاب، تناقل الناس أنها قد صارت ترعى مع الغنم. وإن كان الخبر غير منطقي فإن لانتشاره دلالات تقول الكثير.

والخليفة لا يرضى فيركن للراحة؛ وقد أحس بأنه قد أدى ما عليه ما دامت الرعية راضية. بل يصل الليل بالنهار ينظر شأنًا للناس هنا ومصلحة للرعية هناك. يتأكد أنهم ينعمون بما حُبِسَ عنهم طويلاً من خير، بينما يخلو بيته إلا من غليظ الطعام. يسترجع الناس ذكرى أيام كان يشتري فيها الثوب بالآلاف فيقول ما أحسنه لولا غلظة فيه، ثم هو بعد خلافته يشتري الثوب الرث بدراهم قليلة فيقول ما أحسنه لولا لين فيه. تراه زوجته باكيًا، تسأله عمّا به فيقول لها «يا فاطمة، إن تقلدت من أمر أمة محمد صلى الله

عليه وسلم أسوَدها وأحمرها، فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع والعاري المجهود والمظلوم المقهور والغريب الأسير والشيخ الكبير وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة، فخشيت ألا تثبت لي حجة فبكيت!»

ويطوف بالشوارع على بغله ينظر أحوال الناس، ثم يلتفت إلى خادمه فيسأله «هل الناس مستريحون؟» فيجيبه «كلٌ مستريح إلا أنت وأنا وهذا البغل!»

بُردَت كل الجبهات، وسكنت كل الفتن. ولم تبق إلا جبهة واحدة: الخوارج.

❊ ❊ ❊

انتقل الخبر كالنار بين أبناء البيت الأموي: عمر بن عبد العزيز يلتقي الآن رسولين من قائد الخوارج. فقد أرسل له يقول إن كنتم قد خرجتم عنا غضبًا للدين فأرسلوا من يناظرنا، فإما أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس، وإما أن تغلب حجتكم فننظر في أمركم.

كأن مسّا من جنون قد اجتاحهم. بالأمس يسالم آل علي بن أبي طالب، واليوم يحاور الخوارج! وهل كانت من ذريعة لتسلط بني أمية على الناس وما يمارسونه من قمع إلا خطر شيعة علي والخوارج!

وبعيدًا عن اللغط. في مكانٍ هادئ، كان عمر يستمع إلى محاوريه وهما يقولان إنهما لا ينقمان عليه لتحريه العدل، وإنما ينقمان على آله من بني أمية

تسلطهم على الناس، وعملهم بما يخالف ما جاء في كتاب الله.

أخيرًا استجمع أحدهما جرأته، وطلب من الخليفة أن يثبت صدق تبرؤه من ظلم عشيرته بأن يلعنهم.

ابتسم عمر بهدوء ثم قال «إني قد سميت أعمالهم مظالم وكفى بهذا ذمًا، وإن الله لم يبعث محمدًا لعانًا، وليس لعن أهل المعاصي بفريضة، وإن كان فريضة فقل لي متى آخر عهدك بلعن فرعون؟»

أرتج على الرجل وهو يجيب «لا أذكر» فأكمل ابن عبد العزيز «أويسعك ألا تلعن فرعون ولا يسعك ألا ألعن أهلي؟»

استمع الرجلان إليه وهو يكمل الرد على ما جاءا به. أخيرًا قاما وقد بدا فيهما بعض الميل إليه. طلبا مهلة لعرض الأمر على قائدهما، فوافق الخليفة على أن يلتقوا مجددًا بعد حين.

* * *

دير سمعان ـ بين حماة وحلب ـ سوريا
يناير ٧٢٠م

لماذا ينقطع جميل الحلم بغتة دائمًا؟

نظر الخليفة المُسجى لزائره سائلاً «ماذا يقول الناس؟»

ـ يقولون مسحور

ضحكته تحولت لحشرجة مؤلمة، بصق في وعاء بجانبه وقال «لست بمسحور. وإني لأعلم الساعة التي سُقِيت فيها السم!»

بعد لحظات كان منفردًا بغلام من العبيد. نظر له طويلاً ثم سأله بلوم

خرج ـ للعجب ـ رفيقًا «ما حملك على أن تسقيني السم؟»
أطرق العبد متمتمًا «ألف دينار أُعطِيتُها. وأن أُعتَق»

مد الخليفة يدًا واهنة إلى الفتى، فأخرج صرة المال من ثيابه وناولها لضحيته، دون كلمة واحدة.
وضع عمر الصرة إلى جواره قائلاً «هذه تذهب إلى بيت المال» ثم التفت للجاني مردفًا «وأنت.. انطلق بعيدًا عن هنا كيلا يفطن إليك أحد ويعلم ما فعلت فتُقتَل»

بقي الفتى ينظر إليه بعدم تصديق، فأشاح الرجل بيده قائلاً بإلحاح «هيا قلت لك!»

* * *

بأمره تركوه وحده في حجرته. وبالباب قعد مسلمة بن عبد الملك ـ ابن عمه ـ وزوجه فاطمة، تحسبًا لأن يناديهما لبعض خدمته.
فجأة سمع من بالدار صوته من الداخل يقول بنبرة متهللة «مرحبًا بتلك الوجوه، لا إنس ولا جان». وانتابتهم قشعريرة باردة وصوته يعلو بتلاوة «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين».

ثم سكت الصوت.

* * *

استثقل بنو أمية خلافته فسقوه سمًا. هكذا فسّر المؤرخون موت عمر

بن عبد العزيز، وهو بعد شاب لم يبلغ الأربعين، ولم ينقض من خلافته إلا عامان وبضعة أشهر.

ومشكلة القتل بالسم أنه الأكثر صعوبة في الإثبات، سواء إثبات هوية القاتل أو حتى إثبات طريقةَ القتل نفسها!

هذا في حال الجريمة حديثة الوقوع، فما بالنا بتلك التي وقعت منذ قرون؟!

في مثل تلك الحالات لا يكون أمام الباحث إلا النظر في القرائن، ومحاولة قراءة ما بين السطور.

مبدئيًا فإن قائمة المستفيدين من مقتل عمر بن عبد العزيز قصيرة جدًا، فهي لا تضم سوى الناقمين عليه من بني أمية، وآل المهلب الذين أزيلت عنهم السطوة بتوليه الخلافة.

يمكننا بسهولة استبعاد المهلبيين من قائمة الاتهام، ورسم دائرة حمراء على بني أمية، فأولاً، لم تكن علاقاتهم طيبة بيزيد بن عبد الملك المنصوص في عهد الخلافة على أنه يخلف عمرًا، والدليل أن يزيد بن المهلب حين علم بمرض الخليفة، سارع بالفرار من محبسه وأرسل إليه يعتذر عن ذلك، ويقول إنه لو رجى حياة عمر ما كان ليهرب، ولكنه يعلم أنه ميت وأن خلفه سينكل به لا محالة. وهذا يستبعد آل المهلب من الاتهام، ولا يبقى لدينا سوى بني أمية.

ثانيًا فإن وعد القاتل بالعتق بعد إتمامه المهمة لا يأتي إلا ممن يملك رقبته. وهو عبد للخليفة، فمن يمكنه أن يعتقه إلا من يرث الخلافة أو بعض خاصته؟

ثالثًا فإن من البديهي استبعاد أهل بيت عمر - زوجته وأبنائه - ففضلاً عن انتفاء الدافع فإنهم لا يحتاجون لرشوة خادم لدس السم لرب بيتهم!

للأسف فإن كل ما لدينا هو قرائن، والمشكلة أيضًا أنه يمكن بسهولة

أن يقوم أحدهم بهدم نظرية القتل بالسم من أساسها، فحوار عمر بن عبد العزيز مع زائره الذي أخبره أنه سُقِيَ السم أو مع خادمه، كان مع كل منهما منفردًا على حِدة، ولم يشهده شاهد، فمن نقله؟

إن نظرية اغتيال الخليفة بالسم إذن لا تستند على قوله بقدر ما تستند على غرابة ملابسات الوفاة، وسرعتها المريبة، وارتباط شخص المتوفى بعداوات من جانب عشيرته.

على أية حال، فإن رجلاً مثل عمر بن عبد العزيز ليس مستغربًا أن تنتهي حياته مقتولاً.

وقوم مثل بني أمية، ليس مستغربًا أن يدبروا قتل من كان مثله.

وألغاز التاريخ، على قدر ما هي مستفزة، بل ومغيظة أحيانًا، فإنها ما يعطي هذا المجال عمقه ومتعة البحث فيه.

* * *

الوليد بن يزيد
الخليفة المُنحَل!

دمشق ـ ٧٤٤م

حُمل الرأس المخضب بالدم على قمة رمح، ودير به في شوارع المدينة بين تهليل الجند وتكبيرهم. نظر شاب إلى الرأس ومال على آخر بجواره قائلاً بيغض «أبعده الله! قد كان فاسقًا شاربًا للخمر، وقد راودني عن نفسي وأنا أخوه!»

مط الرجل شفتيه ممتعضًا وهو يستمع لسليمان، أخي صاحب الرأس المرفوع عاليًا: الخليفة المقتول الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم.
رقب الرأس وحامل الرمل يرفعه عاليًا من قاعدته ويديره بمهارة، فتتناثر بعض نقاط الدم التي ما زالت طازجة من أسفل العنق المجتث من قاعدته. أنصت لصيحات رجاله «هلك الفاسق. هلك العربيد. هلك اللواط ناكح نساء أبيه!»

* * *

عندما حضر أبوه يزيد بن عبد الملك الموت، أوصى أن يخلفه أخوه هشام بن عبد الملك، على أن يخلف الوليد هشامًا. وبالفعل بويع الأخ وضم ابن أخيه لأبنائه وقد عزم على تنفيذ وصية أخيه وإعداده للخلافة.

لكن الفتى الذي تميز بقوة بدنية عالية وشخصية متمردة، كان خيبة حقيقية للأمل. فقد انكب على الملذات واللهو ومجالس الخمر حتى صارت عربدته حديث المجالس.

حاول العم إصلاح ربيبه بإرساله على رأس بعثة الحج، عل أداء الفريضة يهذبه، وزيارة المواضع المقدسة ومجالسة فقهائها ترقق روحه.

ومن مكة جاءت الأخبار الفاضحة: فالفتى حمل معه في سفره كلاب صيده خفية، ثم حين انكشف أمر ذلك اتهم سائق الإبل وضربه لذلك ظلمًا.

وعند إشراف الرَكب على الكعبة أخرج الأمير آلات العزف وأدوات شرب الخمر، واقترح ببساطة شديدة أن يُعمَل له مجلس خمر وطرب على سقف البيت الحرام!

وبصعوبة بالغة أقنعوه أن ذلك لا يصح.

وعاد الفتى من رحلته أسوأ مما كان، فتواترت أخبار عربدته على عمه الخليفة الذي أرسل له يعنفه كاتبًا إليه «والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم على أي دين!» فسارع بالإجابة بشعر لاذع يقول فيه «يا أيها السائل عن ديننا. نحن على دين أبي شاكر. نشربها صرفًا وممزوجةً. بالسخن أحيانًا وبالفاتر».

و«أبي شاكر» هي كنية الأمير مسلمة ابن الخليفة نفسه، فهذا الأخير لم يكن يعلم أن الوليد قد جر ابنه إلى «أجوائه»، فسارع هشام بإبعاد الابن إلى المدينة لينقذه من تأثير ابن أخيه!

ولأن جعبة فضائحه لا تفرغ، خرج الوليد على الناس بفعلة جديدة،

فقد شغف بفتاة مسيحية حتى ارتكب فعلة جنونية، إذ استغل عيدًا للمسيحيين يجتمعون فيه في كنيستهم، وتسلل للكنيسة لقضاء العيد مع فتاته، ثم خرج وهو ينشد:

«ألا حبذا سفري وإن قيل إنني.. كلفت بنصرانية تشرب الخمرا

يهون علينا أن نظل نهارنا.. إلى الليل لا أُولى نصلي ولا عصرا»

أسقط في يد الخليفة، فبدأ يفكر جديًا في خلع ابن أخيه من ولاية العهد، وتهدده بسوء العقاب إن لم يرجع عن انحلاله، ففر الوليد إلى البادية مع رفاقه، وهو يفكر في ما يؤول إليه أمره، وسرعان ما جاءه خبر وفاة عمه، ما يعني أنه قد صار الخليفة الجديد.

ومن فوره توجه إلى دمشق، ودخل دار الإمارة متلقيًا البيعة، ثم قبل أن ينصرف إلى شؤون الحكم أمر بمصادرة ممتلكات عمه، مظهرًا الشماتة بمن أراد حرمانه «حقه» فعاجله الله بالموت!

* * *

بعكس ما هو متوقع، فقد كان الخليفة الشاب محسنًا للرعية حسن السيرة فيهم. فقد جعل للمجذومين والعاجزين وأصحاب الأمراض المزمنة خدمًا ونفقة من بيت المال، وأحسن للفقراء والأيتام. ووسع من النفقة والعطايا لأهل الشام. وكان يقول إنه يجبي المال من مصادره كأنه يعيش أبدًا، وينفقه عن آخره في حقه كأنه يموت غدًا.

ولكن...

لم تكن أخبار الكرم والعدل تصل وحدها إلى الناس، بل كانت ترافقها

روايات مثيرة عن انحلال وفسوق الخليفة، واستهتاره الفاحش بالمقدسات.

فانتشر خبر استفتاحه المصحف ـ أي فتحه للتفاؤل بأول آية يقع عليها النظر ـ فكان قول الله «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد». فما كان منه إلا أن رفع المصحف وصاح به «أتتوعدني!» ثم ألقاه وضرب عليه بالنشاب حتى خرقه، وأنشد يقول:

«تهددني بجبارٍ عنيد. . فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشرٍ.. فقل يا رب مزقني الوليد!»

وأضاف البعض أن سبب فتحه المصحف، كان اقتحامه على ابنة له مخدعها ومحاولته إزالة بكارتها، فصاحت به مربيتها «هذه أفعال المجوس»، فأجابها:

«من راقب الناس مات همّا.. وفاز باللذة الجسور!»

فرفعت المصحف في وجهه تخوفه بالله فكان ما كان مما سلف ذكره.

ونقل آخرون عنه شعرًا تجديفيًا «تَلَعَّب بالخلافة هاشميّ. بلا وحي أتاه ولا كتابٍ. فقُل لله يمنعني طعامي. وقل لله يمنعني شرابي!»

* * *

بصرف النظر عن صحة أو كذب تلك الفظائع الدينية المنسوبة إليه، فإنها لم تكن السبب المباشر في الثورة العاتية التي اجتثت حكم الوليد بن يزيد، بعد أقل من عامين من مبايعته.

فرغم محاسنه مع عامة الناس، فإنه كان على العكس تمامًا مع «خاصة» الدولة من زعماء التكتلات القبلية، بل وكبار رجالات البيت الأموي والبيوت الحليفة.

فقد اعتقل خالد بن عبد الله القسري، كبير اليمنية واليد الباطشة لبني أمية، وعذبه حتى الموت، فأوغر صدور الحزب اليمني ودفعه للانشقاق عنه، ومطالبة ابن عمه يزيد بن عبد الملك بن مروان بخلعه.

وضيّق على أهل عمه الخليفة الراحل، حتى صار بعضهم يزور قبره، ويبكي شاكيًا ما صارت إليه الحال.

وتجاهل مشيخة بني أمية من أهل الكفاءة، فعقد ولاية عهده لابنيه الحكم وعثمان، وهما بعد حدثان.

وأما البطش ببني عمومته فحدث ولا حرج. فقد جلد سليمان ابن عمه هشامًا وحلق لحيته ونفاه لعمان، وحبس أخاه يزيد بن هشام، وفرق بين روح بن الوليد بن عبد الملك وزوجته عنوة، واستولى على جارية لآل الوليد ورفض ردها. وصار ينكل ببني أمية نكال من لا يعرف لهم رحمًا ولا قرابة. حتى قيل إنه قد جعل عنه ١٠٠ جامعة (قيد حديدي يجمع اليدين للعنق) على كل منها اسم واحد من أقاربه الأمويين.

باختصار كان نموذجًا قويًا للتدمير الذاتي.

فلم تعهد الخلافة من قبله رجلاً يتعمد خسارة كل حلفائه المحتملين، وتحويلهم إلى أعداء موتورين يطلبون رأسه، وأن يتواتروا على ابن عمه يزيد يحرضونه على خلعه، فينهض في ذلك نهوضًا نشطًا.

* * *

استغل الثائرون غياب الخليفة في عمّان، فداهموا العاصمة دمشق وقبضوا على رجاله بها. وتقدم الوليد يحاول يائسًا إنقاذ مُلكه، تارة بالتفاوض وتارة بالقتال. ولكن كان الأوان قد فات وتمزق الأمر عنه، فانتهت به الحال محاصرًا

في بعض قصور دمشق، وقد رجمه الجُند حين رأوه وهم يصرخون أن «اقتلوه قتلة قوم لوط!»

* * *

سار في أروقة القصر ذاهلاً عن الهرج والمرج بين رجاله، حتى بلغ مخدعه. أحكم إغلاق الباب ودار بنظره الزائغ يبحث عن شيء ما، حتى وجد مصحفه، فتناوله وجلس ناشرًا إياه بين يديه وهو يتمتم بنفس الشرود «يوم كيوم عثمان».

انفصل عن العالم من حوله واستسلم لذهوله، حتى لم يعد يسمع صراخ أهل الدار، ولا تلك القبضات الهائجة التي اجتثت باب الغرفة من مكانه. غاب عن الموجودات فلم يعيده لكينونته إلا برودة النصل الحاد وهو يمس عنقه. اجتثته قبضة عاتية من مجلسه وتسابقت الأيدي على انتهاك حرمة بدنه. برغم قوته البدنية الهائلة لم يحاول رد صافع أو لاكم أو دافع له من قفاه. ترك جسده لرقصة الضرب المميت، حتى وضع السيف نهايتها ممزقًا عنقه.

* * *

حُمِلَ الرأس ليزيد بينما هو يتناول غداءه. نظر له مليًا ثم أمر برفعه على رمح وعرضه على الناس.

اعترض البعض على عرض الرأس بهذا الشكل، معللاً اعتراضه بأن العادة قد جرت ألا تعرض إلا رؤوس قتلى الخوارج، ولكن يزيد بن الوليد بن عبد الملك - الخليفة الجديد وابن عم الخليفة القتيل - أصم أذنيه عن تلك الاعتراضات.

* * *

أجمع كُتّاب التاريخ الإسلامي على أن الوليد بن يزيد قد استحق مصيره، ولكنهم أوردوا كذلك روايات تنفي عنه التطاول على القرآن أو نكاح نساء أبيه. أقروا أنه كان بالفعل سكيرًا عربيدًا، لكنهم رووا عنه أنه كان إذا حضرته الصلاة بدل ثياب عربدته بثياب بيض وتوضأ وصلّى، ثم عاد لما كان فيه من اللهو والشرب.

قال آخرون بأنه سواء صدق أو كذب ما نُسِبَ للوليد بن يزيد، فإن ثورة بني عمومته عليه لم تكن لانحلال ولا لعربدة، وإنما كان دافعها الطمع في منصب الخلافة، وما كان من الوليد من تطاول على «مراكز القوى» بدولته - وهو رأي أرجحه - لأن بني أمية لو كانت يثورون على فاسد أو عربيد، لمجرد كونه كذلك، لكان يزيد بن معاوية أولى بأن يثوروا عليه.

في كل الأحوال، فإن بمقتل الوليد كان العد التنازلي لدولة بني أمية في المشرق يقترب من نهايته.. أو كما قال أحد أمرائهم - العباس بن الوليد بن عبد الملك - وهو يرى اقتتالهم فيما بينهم «يا بني مروان! إني أرى الله قد أذن في هلاككم!»

* * *

مروان بن محمد

لسان الخليفة في فم هِر!

جنوب الشام - معسكر الجيش العباسي - ٧٥٠م

متشحًا بالسواد؛ شعار بني العباس، جلس عبد الله بن علي - عم الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح وقائد جيشه - يتأمل الهر القابع عند قدميه يلتهم مضغة دامية. توتر القط لدخول بعض الرجال إلى الخيمة، فمال القائد عليه وربت ظهره مطَمئِنًا، وقد علت شفتيه بسمة عابثة.

جلس الحضور صامتين، وقد بدت الدهشة على وجوههم، للاهتمام الغريب من قائدهم بمراقبة القط. رفع الرجل عينيه إليهم وقال «أرأيتم أعجب من ذلك؟» فلما أجابته نظرات التساؤل رفع من جوار مقعده رأسًا مقطوعًا، حُمل إليه خصيصًا من «بوصير» بفيوم مِصر، حيث هوى جثمان صاحبه.

مد إصبعين فاتحًا الفم الدامي للوجه المحنط، وهو يردف ضاحكًا: لسان مروان بن محمد في فم هر. غفلت عن الرأس لحظة ثم عدتُ لأجد هذا الصغير الجائع قد انتزع اللسان وجاهد في تمزيقه والتهامه.

* * *

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص. آخر خلفاء بني أمية بالمشرق.

كان عارفًا بالسيف أكثر مما كان خبيرًا بالسياسة. اشتهر بالشجاعة والثبات الشديد في ميادين القتال، حتى عُرِفَ بـ«مروان الحِمار»، ولم تكن تلك سُبة، بل كناية عن عناده الشهير في مواطن البأس.

كانت مواهبه تؤهله لمصير مختلف، فقط لو كان قد جلس على كرسي الخلافة في زمن آخر، ولكن لا مكان لـ«لو» في الواقع التاريخي. فقد شاء القدر أن يكون مروان آخر خلفاء أسرته الحاكمة.

كان مروان يحكم أقاليم الجزيرة الفراتية (إقليم يقع بين شمال شرق سوريا وشمال غرب العراق ويعتبر شمال الرافدين دجلة والفرات) وأرمينيا وأذربيجان، من قِبَل السلطة الأموية في دمشق. وعندما بلغته الثورة على الوليد بن يزيد، أعلن رفضه خلعه وانحاز إلى جانبه، إلا أن تسارع الأحداث لم يمنحه فرصة التدخُل.

كان مقتل الوليد بداية تمزق البيت الأموي، فرغم أن كثيرًا من بني أمية قد تنفسوا الصعداء للقضاء على هذا الفاسد، إلا أن تَرَبُع يزيد بن الوليد بن عبد الملك على العرش قد أغضب من كانوا يرونه أقل من هذا شأنًا. فانتفض ضده ابن عمه سليمان بن هشام بن عبد الملك في دمشق نفسها، وصار يسبه ويتهمه بالكفر، وهبت حمص بقيادة يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية، بحجة طلب حق دم الخليفة المقتول، وثارت فلسطين وقد نادى أهلها ببيعة يزيد بن سليمان بن عبد الملك، بينما خرج أهل الأردن يهتفون باسم محمد بن عبد الملك بن مروان أميرًا للمؤمنين.

وانضم مروان للرافضين الاعتراف بخلافة يزيد، ولكن هذا الأخير نجح في إقناعه بالتفاوض وصولاً لحل وسط. إلا أن الوفاة المفاجئة للخليفة أوقفت أي تقدم في الموقف.

سارع إبراهيم بن الوليد ـ أخو الخليفة المتوفى ـ للاستيلاء على الحكم، ولكن أمره لم يتم، حتى إن الناس كانوا لا يعرفون أيسلمون عليه بالخلافة أم بالإمارة. وسعى الرجل للاستقواء باليمنية، بينما خرج مروان ضده مستقويًا بالقيسية، ومناديًا بحق الحكم وعثمان ابني الوليد ـ الخليفة المقتول ـ في الخلافة، وتقدم جيش مروان بن محمد نحو دمشق، هازمًا القوات التي أرسلها إبراهيم لإيقافه، فاضطر هذا الأخير للفرار من العاصمة بعد أن قتل كلا من الحكم وعثمان، ظانًا أنه يفسد بذلك ذريعة مروان للتمرد ضده. وتوارى إبراهيم عن السلطة ليلقى حتفه بعد نحو ست سنوات، والذي اختُلِفَ في ما إذا كان قد مات غرقًا في بعض المعارك اليائسة ضد القوات العباسية، أم في المذبحة الدامية التي دبرها أبو العباس السفاح لأسراه من بني أمية.

ودخل مروان دمشق، وبويع بالخلافة سنة ٧٤٥م، ثم انطلق إلى حرّان ـ جنوب تركيا قرب الحدود مع سوريا حاليًا ـ وجعلها مقر حكمه، وقد حسب أن الأمر قد استقر أخيرًا له.

لكن كرة اللهب كانت قد دارت، وانطلقت لتأكل ما يواجهها، ولم يعد من سبيل لإيقافها.

* * *

كان نقل عاصمة الخلافة، من دمشق إلى حران، سببًا في اشتعال غضب الشاميين على الخليفة الجديد. فضلاً عن أن حران كانت مركزًا للقيسية، ما جعل اليمنية تحس أن في تلك الخطوة إقصاء كاملاً لها عن دوائر الحكم، فانشقوا عن مروان، وألقوا بدعمهم للدعوة العباسية التي كانت قد انطلقت

في فارس وخراسان، يحمل رايتها بنو العباس بن عبد المطلب، وآل علي بن أبي طالب، وجموع العناصر الفارسية، تحت شعار «الرضا من آل محمد». وعبثًا كان نصر بن سيار ـ والي بني أمية على خراسان ـ يبعث بالاستغاثات إلى العاصمة طلبًا للعون لإيقاف المد العباسي، لكن القائمين على الأمر كانوا يكتفون بإرسال الوعود والنصائح دون تدخُّل فعلي، لانهاكهم في محاربة بعضهم بعضًا.

تبع ذلك تمرد المدن والمناطق الهامة، مثل حِمص والغوطة في سوريا، فضلاً عن إقليم فلسطين، فسارع الخليفة بقمع تلك التمردات بقسوة بالغة أنهت التمرد الوقتي، لكنها لم تقض على الضغينة المتعاظمة في صدور أهلها.

وصعّد الخوارج من نشاطهم العدواني في الشام والعراق، وقد استغلوا تمزق الأمويين في صراعاتهم الداخلية من ناحية، وتكاثر المنضمين لصفوف الخوارج، لا عن اقتناع بفكرهم بل لمجرد النكاية في بني أمية لا أكثر. فأضيفت لجبهة التمردات جبهة الخوارج المفتوحة، لتزعزع حكم مروان.

وهب سليمان بن هشام بن عبد الملك ثائرًا في الشام، وخرج كذلك عبد الله بن عمر بن عبد العزيز على سلطة الخلافة التي صارت في حيص بيص، لا تكاد تغلق بابًا للشر حتى تنفتح عليها أبواب أخرى غيره.

وبينما صار مروان بن محمد في شد وجذب هنا وهناك، كانت الرايات العباسية السوداء تشق جسد دولته، وقد جهر العباسيون بدعوتهم واتخذوا الرايات ورسوم الحكم. وما كاد الأمويون يفيقون من هزيمة جيشهم في موقعة «الزاب» على يد جند بني العباس، حتى كانت مدن وأقاليم فارس

والعراق والشام ـ عدا دمشق التي دخلها العباسيون عنوة ـ تفتح أبوابها مرحبة بالسادة الجدد.

وحاول الخليفة المترنح من هول ضربات أعدائه أن يصمد في وجه الطوفان، لكنه وجد نفسه يتقهقر فارًا متنقلاً من مدينة لأخرى حتى استقر في بوصير بالفيوم المصرية، ليلحق بموعده مع معركته الأخيرة.

* * *

بوصير ـ الفيوم بمصر ـ ٧٥٠م

كقطع من الظلام كانوا بثيابهم المصبوغة بالسواد. «المُسَوِدة» هكذا عُرفوا. تمزق رداء الليل عن جمع منهم، تقدموا بثقة نحو تلك الكنيسة المتوسطة أرضًا نائية وسط الزراعات، متدثرين بالعتمة كيلا تُرى قلة عددهم، فتغري من مع مروان من رجاله بالمقاومة. ارتفع على سور الكنيسة مشعل ثم تلاه ثانٍ فثالث. قد أحس القوم بهم إذن. لم يعد هناك بد إذن من الالتحام.
كسروا أغماد سيوفهم، وتقدموا وقد عزموا على أسر مروان أو قتله، أو الموت دون ذلك. اجتاحتهم حالة إصرار هائل على إنفاذ أمر أمير المؤمنين أبي العباس في عدوه، فاستبسلوا وانهالوا على المدافعين ضربًا بكل صارم بتار. فجأة تردد الصراخ «سقط أمير المؤمنين» فعلموا أن مروان قد اقتحم المعركة وأصابه بعضهم وهو لا يعرفه. أخيرًا أفنوا مبارزيهم وداروا يتفحصون الوجوه بالمشاعل، حتى عرفوا جثة آخر خلفاء بني أمية مما وُصِفَ لهم. تقدم أحدهم وأخرج سكينًا وجز العنق ثم صرّ الرأس في قماش يحمله، وتقدم مع زملائه نحو الكنيسة ينفذون الشِق الآخر من أمر سيدهم، بحمل آل بيت مروان إليه، ليجهز على من تبقى من بني أمية ويستحق لقبه «السفاح»

تناقلت الأيدي رأس «مروان الحمار» حتى استقر بين يدي أبي العباس السفاح، الذي سجد شكرًا وقد تيقن من استقرار الأمر له ولآل بيته، ما دام قد تخلص من هذا المقاتل العنيد، الذي لو كان نجا لصار شوكة في جنب بني العباس تقض مضاجعهم، لما عُرِفَ من بأسه وعناده الذي تبدى في نهايته، حين أصر أن يستقبل القتل واقفًا وسيفه في يده.



دهليز إلى ساحة أندلسية

في العام ٧٥٠م انتهى أمر الدولة الأموية في المشرق.

قام العباسيون بتتبُّع أفراد البيت الأموي تقتيلاً وتنكيلاً، ففر منهم من فر وذاب منهم من ذاب في جموع الناس.

وبين من نجوا من بطش السفاح، كان شاب اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. شق طريقه وصولاً إلى بلاد المغرب، حيث مستقر أخواله من قبيلة نفزة البربرية. وفي العام ٧٥٤م عبر «بدر» ـ الخادم الأمين لعبد الرحمن ـ البحر إلى الأندلس.. مسرح الاضطرابات والصراعات بين مراكز القوى.

التقى بدر موالي بني أمية بالأندلس، وحثهم على الاجتماع تحت إمرة سيده، مخاطبًا فيهم الولاء والوفاء للبيت الأموي، وكذلك الرغبة في إطفاء نار الفتنة المستعرة بالأراضي الأندلسية.

وبالفعل، عبر عبد الرحمن «الداخل» المضيق بدوره، ودخل الأندلس في استقبال أنصاره الذين قادهم لإسقاط المدينة تلو الأخرى، حتى دانت له البلاد بالولاء، وأصبح سيدها في العام ٧٥٦م. ولقّبه أعداؤه العباسيون بـ«صقر قريش» اعترافًا منهم بدهائه وبراعته ومثابرته حتى في مواجهة مؤامراتهم الرامية لإسقاطه. تلك المؤامرات التي نجح في إفشالها وقمعها بقسوة بالغة حتى قال فيه أبو جعفر المنصور ـ ثاني خلفاء بني العباس ـ

«الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان»

لم يقم عبد الرحمن بإحياء الخلافة الأموية وإنما اكتفى وخلفاءه بلقب الإمارة حتى قام حفيده عبد الرحمن الثالث المعروف بـ«الناصر لدين الله» بإعلان بعث الخلافة الأموية في العام ٩٢٩م، وحكم الناصر لنحو نصف قرن ثم تبعه ابنه الحكم المستنصر بالله، والذي خلفه بعد موته ٩٦١م ابنه هشام المؤيد بالله، تحت وصاية الوزير القوي محمد بن أبي عامر «المنصور»، لتبدأ شمس دولة بني أمية الغرب في المغيب..

هشام المؤيد بالله

الخليفة الذي مات ثلاث مرات!

الأندلس ـ قرطبة ـ ٢٨ مايو ١٠١٣م

قديمًا وُصِفَت الدنيا فقيل «إن أقبلت باض الحمام على الوتد. وإن أدبَرَت بال الحِمار على الأسد»

بعد أن كانت أعتاب خلفاء بني أمية في قرطبة قبلة جباه سادات الأندلس المنحنية تأدبًا أمام سادة بلاد الأندلس وعدوة المغرب، صار أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، هشام المؤيد بالله، ابن الحكم المستنصر بالله، وحفيد العظيم عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر لدين الله، سيقة لكل مغامر أفاق وكل متسلط بالسيف على البلاد.

خمسون عامًا ـ هي عمره ـ قضاها يتنقل من حَجر إلى آخر، من حصار الفتيان الصقالبة إلى قيد المنصور بن أبي عامر وابنيه، ثم إلى أيدي كل من هب ودب ممن تداولوا الجلوس على كرسي الحكم، فنهبوا أمواله وحريمه وحددوا إقامته، أو من أجلسوه على العرش ومنحوه من الخلافة الاسم لا الرسم وحكموا من وراء ستاره. وصولاً إلى محبسه في بعض زنازين قصر الحكم ينتظر مصيرًا يقرره المالك الجديد لرقبته «المستعين بالله»، أحد أبناء

عمومته من بني أمراء البيت الأموي، الذي تمزق شر ممزق ورفع أبناؤه السيوف بعضهم في وجوه بعض.

فغر الباب فاه عن بضعة ظلال تقدمت نحوه بثقة، راسمة نصف دائرة حول الجدار عطن الرائحة الذي ألصق به ظهره، كأنما يستجديه ابتلاعه. انفصل ظل عن رفاقه وانحنى نحوه. عرف في ملامحه محمد ـ ابن المستعين بالله ـ وكذلك عرف جيدًا ما الذي يعنيه ذلك الحبل السميك، الذي أخرجه من عباءته وأمسك طرفيه وهو يشير لبعض رجاله بتقييد حركة السجين.

أشيع بعد ذلك أن هشامًا المؤيد لم يمت، وإنما تم نقله إلى خارج السجن ـ بمعرفة محمد بن المستعين ـ وتهريبه على ألا يظهر له أثر أو ذكر بعد ذلك إن كان يريد أن يحتفظ برأسه على كتفيه. فتوجه إلى بعض المدن الصغيرة بالبلاد وعاش متخفيًا في فقر شديد، حتى إنه اضطر للعمل كسقاء، بينما أكد البعض أنه قد قُتِلَ بالفعل ودُفِنَ سرًا.

لم تتفق كتب التاريخ على نهاية محددة لهشام المؤيد، ولكنها اتفقت على أنه لو كان قد لقي حتفه في الواقعة المذكورة، فإنها لن تكون المرة الأخيرة التي يموت فيها، خاصة أنها ـ كذلك ـ لم تكن المرة الأولى!

❊ ❊ ❊

كان في الحادية عشرة من عمره، حين مات أبوه الحكم المستنصر بالله في فبراير ٩٧٦م. سرعان اصطدمت الأثقال بالأثقال، فحاول الفتيان الصقالبة (عبيد من أصول أوروبية استكثر الأمويون منهم واتخذوهم قوة ضاربة حتى أصبحوا مركز قوة ذا شأن) أن يجعلوا عمه المغيرة خليفة، ليلهم إليه

ومعرفتهم أن خلافة هشام ستعني أن الحكم في حقيقة الأمر سيكون بيد كل من أمه «صبح البشكنشية»، والوزير الأول جعفر المصحفي، ووكيل أعمال الخليفة الفتى الطموح محمد بن أبي عامر.

لكن سرعة تصرف الثلاثي سالف الذكر أجهضت مؤامرة الصقالبة، وانتهى الأمر بهم بين منفي ومطرود بل ومقتول، عدا من انضووا بعد ذلك تحت جناح محمد بن أبي عامر، وتربع هشام على كرسي الخلافة وحوله مُلّاك أمره الثلاثة، الذين سرعان ما اختُصِروا إلى اثنين - أمه صبح ووكيله ابن أبي عامر - بعد تعاونهما على الإطاحة بالمصحفي وعشيرته، ثم انفرد محمد بن أبي عامر بالتسلط عليه بعد أن سيطر بأذرعه على أركان الدولة وصار الوزير الأول والقائد الأعلى، وصاحب الأمر والنهي الملقب بـ«الملك المنصور». بل وراودت المنصور فكرة خلع هشام والتلقب بالخلافة لولا أن أثناه بعض العقلاء - وعلى رأسهم الإمام ابن حزم - عن ذلك خوفًا من أن يؤدي ذلك لانفجار موالي بني أمية ومن يرتبطون عاطفيًا بخلافتهم من العامة..

كل هذا والخليفة محجور عليه في قصره بين محظياته وخدمه، بذريعة حمايته من المؤامرات ومساعدته على التفرغ للعبادة.

ذلك التعقل الذي أبداه المنصور ومن بعده ولده ووريثه عبد الملك «المظفر»، فيما يخص حيازة منصب الخلافة، لم يتحل به خليفتهما عبد الرحمن بن المنصور، الذي كان شابًا مستهترًا فاسدًا، وطاغية فاحشًا، فاستخدم القوة لإجبار الخليفة على تعيينه وليًا لعهده، متذرعًا بأن المؤيد لم يكن له ولد يرث الخلافة.

كان هذا التصرف - كما تنبأ ناصحو المنصور قديمًا بتجنبه - بمثابة كسر قفل الفتنة. والقشة التي قصمت ظهر البعير عند من كانوا يغلون سخطًا من حكم العامريين، سواء من بني أمية أو البيوت العربية الكبيرة أو عامة الشعب، فانفجرت الثورة في ١٠٠٩م وأسقطت حكم آل ابن أبي عامر، وأتت بأحد الأمويين - محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر

الملقب بالمهدي ـ خليفة جديدًا بعد أن أُجبِرَ هشام على خلع نفسه لضعفه وهوانه، وصودرت ممتلكاته وأُلزِمَ الإقامة الجبرية.

كان «المهدي» خيبة أمل حقيقية لمن ساندوه، فقد كانت حاشيته من السوقة والفاسدين، وقد أطلق لهم العنان فأهانوا كبار مشيخة قرطبة وأساءوا للبربر ـ الذين كانوا يمثلون قوة مسلحة يُحسَب لها حساب ـ وضايقوا العامة الذين سحبوا دعمهم له.

كذلك تصرف الخليفة بغباء منقطع النظير حين أقصى «الفتيان العامريين» ـ وهم فئة من الصقالبة كان ولاؤها للمنصور بن أبي عامر ـ وقام بتسريح سبعة آلاف جندي من الجيش بحجة توفير النفقات، فتحول الصقالبة إلى كتلة مناوئة له، وقرر المقاتلون المُسَرَّحون أن يصبحوا شوكة في جنبه.

عادت أصوات التذمر ترتفع ونذر الثورة تحوم في سماء قرطبة، ويبدو أن المهدي قد خشي أن يتخذ المعارضون له من خلعه هشامًا المؤيد ذريعة ويطالبوا بعودة المخلوع، فاستغل فرصة وفاة رجل من أهل الذمة يشبه الخليفة، فأحضر جثته وعرضها على قضاته ووزرائه الذين شهدوا أن المتوفَى هو هشام. فأعلن المهدي رسميًا في ٢٦ أبريل ١٠٠٩م وفاة الخليفة السابق هشام المؤيد بن الحكم المستنصر، ودفنه في مدافن القصر بقرطبة، بينما أخفى هشام الحقيقي في غياهب سجنه.

كانت هذه الميتة الأولى لهشام المؤيد!

* * *

انضمام بعض بني أمية لجانب المعارضة أغضب المهدي، فتصرف برعونة كعادته وقبض على بعضهم، ومنهم أحد مشيخة بني أمية سليمان بن هشام بن عبد الرحمن الناصر. فثار ابن سليمان هذا وانضم له المتمردون وبدأ التحرك

المسلح ضد محمد المهدي الذي انتصر في الجولة الأولى وتمكن من قتل عدوه، ولكن قائد الثوار المقتول خلفه ابن أخيه «سليمان» الذي نادى به أنصاره خليفة ولقبوه بـ«المستعين» وانضم له البربر وراح يفرض سطوته على مساحة كبيرة من البلاد، حتى صارت الأندلس مقسمة بينه اثنين من الأمويين: محمد المهدي وسليمان المستعين.

ولأن الحماقة أعيت من يداويها، فقد بدأ كل من الفريقين البحث عن حلفاء «خارجيين» له، فراسل كل منهما ملك قشتالة يحثه على التحالف معه ضد خصمه.

وانضم القشتاليون لفريق «المستعين» بعد أن اشترطوا عليه تسليمهم بعض المدن والقلاع ثمنًا لذلك!

وبدأت العمليات الحربية، وتلقى المهدي الهزيمة تلو الأخرى حتى حوصر في قرطبة، فحاول أن ينقذ شرعيته بوسيلة يائسة، إذ أخرج هشام المؤيد من سجنه وعرضه على الناس باعتباره الخليفة الشرعي المتنازل له الذي يضفي عليه الشرعية في مواجهة سليمان المستعين. وكان يحاول بذلك استمالة البربر الذين سخروا منه وبقوا على موقفهم ضده، وضاقت به الدنيا فهرب من قرطبة متنكرًا، ودخلها ابن عمومته المستعين وقد أمر بالحفاظ على حياة المؤيد. ووفد على قرطبة الملك سانشو جارثيا - ملك قشتالة - يطلب ثمن تعاونه، فوعده الخليفة الجديد بذلك فور استقرار الأمور لأن الولايات الأندلسية كانت قد تفرقت بين معترف به وباقٍ على ولائه للمهدي.

وكأن الخيانة سباق، فقد سارع المهدي لتقليد خصمه بالتحالف مع العدو، وطلب عون الأمير رامون الثالث أمير برشلونة والأمير أرمنجو أمير أورقلا، اللذين أرسلا له عشرة آلاف مقاتل ضمهم لثلاثين ألفًا من أعوانه وهاجم قرطبة مجددًا. واستطاع المهدي طرد سليمان من العاصمة وعاد للتربع على كرسي الخلافة.

كل هذا وهشام المؤيد في مقعد المتفرج!

ولكن عودة محمد المهدي سيرته الفاسدة وانغماسه في المجون ـ كأننا لم يتعلم من الدرس السابق ـ أدت هذه المرة لانفضاض أقرب رجاله عنه، واتفاقهم على التخلص منه.

وبالفعل. في ٢٣ يوليو ١٠١٠م اقتحمت مجموعة من المسلحين قصر الخلافة ومزقوا بسيوفهم المهدي، وأعلنوا تنصيب هشام المؤيد بالله خليفة للأندلس، ليدخل في مرحلة جديدة من كونه مفعولاً به!

* * *

بينما كان المؤيد يمارس ـ للمرة الأولى في حياته ـ حريته في الحركة والتجول في العاصمة قرطبة، كان «المستعين» يستجمع قوته لاسترداد ما يراه حقًا له في الحكم.

وعاد البربر ـ حلفاء المستعين ـ يراسلون سانشو ملك قشتالة ويعرضون عليه التحالف، لكنه هذه المرة فضل مخاطبة المؤيد وطالبه برد الحصون الشمالية التي كان أبوه الحكم وحاجبه المنصور قد فتحاها، فاضطر لتسليمها له مقابل رفضه الانضمام للمستعين، وبهذا فقدت الأندلس تحصيناتها الشمالية!

تقدم الجند البربر من أسوار قرطبة وضربوا عليها الحصار، وكأن هذا لم يكف الخليفة البائس؛ الذي لم يكد يهنأ بجزء ولو ضئيل من خلافته، فقد هجمت السيول على محيط المدينة وجرفت دورها وخلخلت أساسات سورها. كذلك فقط فُقِدَ الأمن داخلها وتصارع المحيطون بهشام على امتطاء مقاعد السيطرة عليه، فقتلوا بعضهم بعضًا وقمعوا أهل قرطبة. فكان من الطبيعي أن تنهزم قرطبة أمام القوة البربرية، وأن يجتاح البربر العاصمة ناشرين فيها الرعب والسلب والنهب. وأن يُخلَع هشام المؤيد بالله مرة ثانية ويعتقله سليمان المستعين، ثم يُعلَن موته للمرة الثانية، ويشوب مصيره الغموض.

* * *

أحداث كثيرة شهدتها الأندلس قبل أن تشهد «البَعث» الأخير لهشام المؤيد، ثم ميتته النهائية.

فالمستعين لم يهنأ بحكمه حتى خرج عليه علي والقاسم ابنا حمود، من أسرة «الأدارسة» أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب، والذين حكموا المغرب الأقصى حتى أسقط المنصور حكمهم فذابوا في جموع البربر وتغلغلوا في الجسد الأندلسي، حتى واتتهم الفرصة لانتزاع المُلك مجددًا.

تقدم عليّ من قرطبة واستطاع هزيمة المستعين وأسره، فحاكمه سريعًا بتهمة قتل الخليفة هشام ثم أعدمه، وأعلن للناس أن هشامًا كان قد أعطاه عهدًا بالخلافة من بعده، وأعلن نفسه خليفة وتلقب بـ«الناصر لدين الله».

ولأن التمردات والانقلابات كانت نمط المرحلة، فقد رفضت بعض المدن الأندلسية مبايعة ابن حمود، ونادت بأحد رجال بني أمية ـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ـ خليفة بلقب «المرتضى»..

وبينما كان كل من الناصر والمرتضى يستعد لمواجهة الآخر، لقي كل منهما حتفه، فالمرتضى انقاد لما يمكن وصفه بالفخ لمواجهة بعض القوات البربرية الحليفة لابن حمود، فقُتِلَ في المعركة. أما علي بن حمود فقد اغتاله ثلاثة من الخدم الصقالبة وهو في الحمام، وكانوا من موالي بني أمية الذين أغضبهم استيلاء بني حمود على «حقهم».

دخل القاسم بن حمود ـ أخو علي ـ قرطبة وبويع بالخلافة وتلقب بالمأمون، وأعدم قتلة أخيه، ولكن يحيى وإدريس ابني هذا الأخير اتهما عمهما بالاستيلاء على حقهما في خلافة أبيهما، فاستعد الطرفان للحرب، ولكن القاسم آثر السلامة فانسحب من قرطبة وتركها ليحيى بن علي بن حمود الذي بويع خليفة بلقب المعتلي بالله، بينما توجه القاسم لإشبيلية وتلقى فيها البيعة بالخلافة وغير لقبه إلى المستعلي. وتفاهم الخليفتان على حسن الجوار، الأمر الذي أثار سخرية المؤرخين من وجود خليفتين بينهما مسيرة ثلاثة أيام فحسب!

ولأن أهل قرطبة اشتهروا بتقلب الأهواء، فسرعان ما انقلبوا على يحيى المعتلي وخلعوه وطردوه، وعادوا لمبايعة القاسم، ثم عادوا للثورة وخلعوه وطردوه حيث وقع في قبضة ابن أخيه يحيى الذي حبسه ثم قتله خنقًا!

استغل بعض أمراء بني أمية إقصاء بني حمود عن الأمر فوثب أحدهم -عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر- على كرسي الحكم، وتلقب بـ«المستظهر».

وكأنه لم يتعلم من أخطاء أسلافه، فقد ارتكب نفس الحماقات من قمع واستفزاز للعامة، فثاروا عليه واقتحموا القصر، ما اضطره للاختباء في الحمام.

ورفع القرطبيون أمويًا آخر للخلافة هو محمد بن عبد الرحمن -من أحفاد عبد الرحمن الناصر- وبايعوه وتلقب بـ«المستكفي» (وهو أبو الشاعرة الشهيرة ولادة). واستطاع هذا القبض على المستظهر المخلوع وقتله.

ولكن كان المستكفي كهلاً في الخمسين، فاسدًا سكيرًا عربيدًا مشهورًا بالفُحش والجُبن. فكان ملقبًا بين الناس بـ«الخواف» و«السمين». بقي لمدة عام ونصف تقريبًا يتخبط في شؤون الحكم حتى اضطرته الاضطرابات للفرار من العاصمة متنكرًا في زي امرأة، ليلقى حتفه على يد بعض مرافقيه، ظنًا منهم أنه يحمل ما يمكنهم سرقته!

أخيرًا سئم القرطبيون من محاولاتهم الحفاظ على خلافة بني أمية، فالتفوا حول الوزير أبي الحزم بن جهور -عميد العائلات القرطبية العريقة- والذي تميز بالحكمة والصلاح، وقرروا إلغاء الخلافة الأموية نهائيًا، بعد أن بذلوا بعض المحاولات الأخيرة الفاشلة، فأعلن الملأ من المدينة ذلك سنة ١٠٣١م.

وبالفعل كانت السلطة المركزية قد انهارت تمامًا، وحازت كل عائلة كبيرة أو فئة مسلحة قوية على مساحة من الأندلس وأعلنتها مملكة مستقلة، في ما يُعرَف بعصر ملوك الطوائف.

وفي هذا العصر. كان المشهد الأخير لهشام المؤيد. أو بمعنى أدق: لمن ادُعِيَ أنه هو!

* * *

كانت إشبيلية ـ آنذاك ـ تحت حكم «آل عباد»، وهم عرب من أصول يمنية، حيث كان قاضيها إسماعيل بن عباد من كبار رجال السياسة والحكم الأندلسيين، وحين اعتزل مناصبه ورثها ابنه محمد، الذي ترأس مجلسًا لإدارة المدينة بعد انهيار مركزية الحكم من قرطبة.

تفتق ذهن محمد عن فكرة شديدة الدهاء لإضفاء الشرعية على حكمه، ولتبرير توسعه على حساب جيرانه. فقد خرج يومًا على الناس برجل عجوز، وادّعى أنه الخليفة المختفي هشام المؤيد. صاحب الحق الشرعي في حكم الأندلس.

وفي قرطبة ـ التي كانت آنذاك حليفة لإشبيلية ـ بويع المُدَّعَى كونه هشامًا بالخلافة، وهو جالس خلف ستار، وسمع الحضور صوته وهو يعلن تفويضه محمد بن إسماعيل بن عباد لحكم المملكة وتوحيدها تحت رايته. كان هذا في العام ١٠٣٥م

بقيت هذه الحال لمدة سبع سنوات من عمر محمد بن إسماعيل، ثم في العام ١٠٤٢م توفي ليخلفه ابنه المعتضد، الحاكم الرهيب الذي اشتهر بـ«حديقة الجماجم» التي كانت أصص ورودها مصنوعة من جماجم أعدائه، وكذلك بقتله ابنه إسماعيل بيده إثر تمرده عليه.

مارس المعتضد نفس لعبة أبيه مع «الخليفة». حتى العام ١٠٥٨م حين أعلن قطع الخطبة للخليفة هشام المؤيد بحكم وفاته، والتي قال إنها وقعت منذ فترة، إلا أنه أخفاها مراعاة لظروف البلاد.

بهذا يكون هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر قد

ذاق ميتته الأخيرة. لتكون «ميتاته» مأساة في كل منها كما كانت كل حياة له.. ولتكون نهايته ـ أو لنقل نهاياته ـ هي من الأغرب بين نهايات الخلفاء!

* * *

إيوان عباسي

في أكتوبر ٧٤٩م، بمدينة الكوفة العراقية، بويع عبد الله بن محمد بن علي العباسي ـ المعروف بـ«أبي العباس السفاح» ـ أميرًا للمؤمنين، معلنًا قيام الخلافة العباسية، التي امتد عمرها نحو ٨٠٠ سنة.

اتخذ السفاح عاصمته مدينة «هاشمية الأنبار» ـ على ضفاف نهر الفُرات ـ وعاش بها حتى وفاته سنة ٧٥٤م، وفي العام ٧٦٢م أسس خلفه «أبو جعفر المنصور» مدينة بغداد، التي ارتبط اسمها بتاريخ دولة بني العباس، حتى قيام المغول باقتحامها وتدميرها وإسقاط الخلافة العباسية بالعراق سنة ١٢٥٨م.

وفي العام ١٢٦١م استحضر السلطان المملوكي الظاهر بيبرس أحد أبناء البيت العباسي، ممن نجوا من مذبحة بغداد، إلى القاهرة بمصر، وأثبت نسبه بحضور القضاة والفقهاء، وبايعه خليفة للمسلمين، لتدخل الخلافة العباسية مرحلتها «القاهرية»، حتى دخول الغزاة العثمانيين بقيادة سليم الأول سنة ١٥١٧م، وأسرهم الخليفة واستيلاء سلاطين بني عثمان على اللقب الخليفتي.

موسى الهادي..

هل قتلت أم الخليفة ابنها؟!

بغداد ـ قصر الخلافة ـ ٧٨٦م.

«لا بد من إجابتي إلى ما عرضت عليك من الأمر!»
قالتها الخيزران ـ أم الخليفة الهادي ـ لابنها بإصرار، ثم أردفت «قد ضمنت قضاء تلك الحاجة لعبد الله بن مالك!»

اتقدت عينا الهادي غضبًا وهو يزمجر «ويل مني لابن الفاعلة! قد علِمت أنه صاحبها! وقد علمَ ما شاع من أن من كانت له حاجة فعليه بباب أم الخليفة! فوالله ما أقضيها لكِ!»

هبت مغضبة «إذن والله لا أسألك حاجة أبدًا»
فتراجع في مقعده قاذفًا غضبه عبر نظرات التحدي «وأنا والله لا أبالي!»

قامت مندفعة إلى خارج القاعة فصرخ بها: «مكانكِ!»

لم تعتد تلك الصرامة من الفتى المترف الذي لم يجاوز بعد بدايات العشرينات

من عمره. غزت ظهرها قشعريرة باردة والتفت ببطء فأردف هادرًا: «مكانك والله! وإلا أنا نَفيٌّ من قرابتي من رسول الله!» قام عن كرسيه واقترب منها حتى أحست أنفاس ثورته تكاد تحرقها وقال مكملاً «لئن بلغني أنه وقف ببابكِ أحد من قادتي وخاصتي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله! ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟! أما لكِ مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟! إياكِ وإياكِ أن تفتحي بيتك لمسلم ولا ذمي!» قالها ثم أولاها ظهره معتليًا كرسيه، وهو يتبين بعيناه أثر قوله على وجهها المحمر من فرط الصدمة والغضب. اصطنع هدوءًا ظاهريًا وارتداه على صفحة وجهه، ثم أشار لها بتعاظم أن لكِ أن تنصرفي. فانطلقت تغادر بخطًى عاصفة وقد أذهلها الغضب عن النطق ببنت شفة.

* * *

أشار بيده آمرًا فقطع انهماك رجال دولته في نقاشهم. اعتدل في مجلسه سائلاً : «أيّما خير، أنا أم أنتم، وأمي أم أمهاتكم؟»

تبادلوا النظرات وقد أدركوا مرمى السؤال. قال أحدهم بخفوت «بل أمير المؤمنين وأمه خير»

مال نحوه وقال من بين أسنانه «فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقال فعلت أم فلان وصنعت؟» فأجابه وقد شاب نبرته وجل: «لا نحب ذلك».

أرجع ظهره مسترخيًا في مقعده وجال بنظره في وجوههم مردفًا بصرامة شديدة: «فما بالكم تأتون أمي فتتحدثون بحديثها؟!»

أرتج عليهم فلزموا الصمت. وأدرك هو أن سهمه قد أصاب مرماه. فبسط عبوس وجهه وعاد لنقاشهم السابق كأن لم يكن له من انقطاع.

* * *

أسند رأسه لقبضته وابتسم بتهكم وهو يسأل الجارية الماثلة بحضرته رسولة عن أمه الخيزران: «تقولين إنها قد أكلت من الأرز. واستطابته؟!»

استرجعت الجارية مشهد موت الكلب الذي أذاقته بعض جواري الخيزران من الأرزة التي قد أرسلها لها الهادي، شكًا منهن أنه قد دس فيها سمًا لأمه!

خفضت الفتاة نظرها تصطنع التأدب في الظاهر، وتخفي اضطرابها لإدراكها كشفه كذب ما جابت به في الحقيقة، ثم أجابت «بلى. قد أمرتني أن أبلغ أمير المؤمنين ذلك»

أطلق ضحكة مبتورة، وأشار لها أن تدنو منه ففعلت دون أن ترفع عينيها. رفع وجهها إليه بسبابته وقال سابرًا عينيها بنظراته الحادة: «قولي لها إذن. يقول لك أمير المؤمنين: بل لم تفعلي. فلو فعلتِ لاسترحتُ منكِ!»
لم تعرف المسكينة إن كان سبب الرعدة القاسية التي مرقت بجسدها بغتة هو تأكيد الخليفة أنه قد حاول قتل أمه، أم هدوؤه المخيف وهو يعلن ذلك.

لم تتبين حتى تمتمات طلب الإذن في الانصراف، وهي تتراجع بظهرها مغادرة حضرة هذا الرجل الرهيب.
كل ما تذكره هو قسوة الجليد في صوته، حين سمعته يقول وهي تنسحب من القاعة «متى أفلح خليفة له أم؟!»

* * *

لم يكفه أن حجر على أمه ما تراه حقها في مشاركة الخليفة إدارة الدولة، حتى قام في أمر خلع أخيه هارون ـ الأثير منها عند أمها الخيزران ـ من ولاية العهد.

كان الهادي يطمع في أن يجعل ابنه جعفر خلفًا له في الحكم، فاشتد على أخيه كي يتنازل عن ولاية العهد للطفل الصغير.

حاصر الهادي شقيقه بالاضطهاد إلى حد المجاهرة بشتمه، وإطلاق ألسنة الحاشية في التطاول عليه. بل وتهدده بالقتل. حتى علم الناس غضب الخليفة على الفتى فتحاشوه وتجنبوا حتى السلام عليه بولاية العهد. تمادى فحبس يحيى بن خالد البرمكي، صديق هارون وكاتبه، فترة ثم أطلقه.

كانت رؤيا أبيها المهدي تؤرق الخليفة. فقد استيقظ المهدي من نومه يومًا ليخبرهما أنه قد رأى في المنام أنه قد أعطى كلا منهما قضيبًا من شجر، فأنبت الورق في قضيب الهادي من أعلاه، بينما أورق قضيب هارون ـ الملقب بالرشيد ـ كله. ففسر الأب الحلم أن الهادي لا تطول أيامه في الخلافة، بينما تطول أيام هارون ويكون عهده عهد ازدهار وعظمة.

والهادي يخشى تحقق الرؤيا المشؤومة عليه، المرغوبة للرشيد.

استمر موسى الهادي في بغيه على الرشيد، حتى قال له هذا الأخير في مرارة شديدة: «يا موسى إنك إن تجبرت وُضِعت، وإن تواضعت رُفِعت، وإن ظلمت قُتِلت وإن أنصف سلمت، وإني لأرجو أن يُفضي الأمر إليّ، فأنصف من ظلمت، وصِلْ من قطعت، واجعل أولادك أعلى من أولادي، وأزوجهم بناتي»

فمرت بالهادي لحظات رقة عابرة بأخيه، وأدناه منه فقبّل يده وتودد إليه وأنعم عليه بالأموال.

مرقت تلك الأفكار برأس الخيزران، وقد تمددت على فراشها وشردت في تهاويل السقف، بعد أن بلغتها أنباء رجوع الهادي من سفرته إلى الموصل،

وقد توعك واشتد به الوجع إلى حد إطراحه الفراش، وقد أعيت محاولات مداواته الأطباء.

ألحت عليها فكرة مزعجة: لو أن الخليفة توجس من موته في مرضه، فقد يشتد في أمر خلع أخيه من ولاية العهد، وربما اقترف ما هو كثر عتوًا.

تقاذفتها الأفكار الحالكة وهي تحاول الفكاك من أشدها قسوة على نفسها. أخيرًا بقيت تلك الفكرة تتعاظم حتى طردت ما سواها. اعتدلت المرأة المشهورة بالصلابة من مرقدها. وقد عقدت النية على ما لا بد منه، وإن تناقض مع ضعفها الأمومي الفطري.

* * *

قصر عيساباذ ـ سبتمبر ٧٨٦م

كأن بركانًا ينبعث من جوفه فيقذف الحمم إلى حلقه. اجتهد في إظهار التَجَلُد في مواجهة عاصفة الألم التي اجتاحته فبعثرت وعيه بالموجودات. لم يحس بتلك الأطياف الخفيفة التي دلفت إلى مخدعه وأحاطت بفراشه. فقط استروحت أنفه ريحًا أنثوية عابرة، ثم أحس بغتة أن جبلاً قد أطبق على وجهه وكتم أنفاسه. انتابته يقظة مفاجئة بعثتها غريزة البقاء. حاول أن يصرخ بالحرس. أن يستغيث بالخدم. أن يزيح ذلك الظل الجاثم على وجهه يحرمه الهواء. زاغ منه البصر وهو يتساءل مرتاعًا إن كان هذا واقعًا أم هو من هذيان المرض. لم يحر جوابًا.

تفجر الحامض كاويًا قرحة بطنه التي شخصها الأطباء. اندفع عبر حلقومه يحاصر روحه التي بلغت هذا الموضع. والمحيطون بفراشه حينئذ ينظرون.

لم يكن يعرف في احتضاره أن رجاله قد خشوا من أن يموت، فيتولى هارون الخلافة ويتخذ يحيى بن خالد وزيرًا، فينكل بهم هذا الأخير لموافقتهم الهادي

في حبسه، فكروا في تدبير قتل يحيى، ثم أحجموا تحسبًا لأن يبرأ الخليفة من مرضه فيعاقبهم لتصرفهم دون أمره.

كان هذا التردد منهم تدبيرًا قدريًا أصاب بسهمه نصيب هارون في كرسي الخلافة، فالخيزران حين توجست من موت الهادي أرسلت ليحيى من أبلغه الأمر، فكتب رسائل للولاة والقائمين بالأمور يخبرهم بموت الخليفة ويأمرهم بالقيام بأعمالهم، ووضع عليها توقيع هارون الرشيد، ثم انتظر حتى إذا ما توفي الهادي، وسارع بإرسالها حتى يضمن انتقالاً سلسًا للخلافة.

* * *

قيل بعد ذلك إن الخيزران، حين مرض ابنها الهادي، استغلت ذلك فدست عليه بعض جواريها فغممن وجهه بوسادة أو غطاء حتى مات مختنقًا. لأنها كانت تخشى أن يأمر في مرضه الأخير بقتل ابنها الأحب إلى قلبها: الرشيد.

وحين علمت بموت الهادي، قالت إنها كانت تعلم ثمة نبوءة أن في هذا اليوم يموت خليفة، تعني الهادي، ويتولى خليفة، وهو الرشيد، ويولد خليفة، وكان الرشيد قد وُلِدَ له في هذا اليوم ابنه المأمون.

ربما يستغرب البعض توجيه التهمة سالفة الذكر للخيزران، استبشاعًا لفكرة أن تقتل الأم ابنها. ولكن بشاعة الفكرة لا تلغي إمكانية وقوع الفعل، فمن دروس التاريخ لبني البشر أن لا شيء مستحيل على الإنسان اقترافه. خاصة في ما يتعلق بالمُلك، فالمُلك - كما يخبرنا القول المأثور - «عقيم». وهو القول الذي سأل المأمون يومًا أباه الرشيد عن معناه، فأجابه الخليفة المزدحمة حياته بالتجارب القاسية بهذا الصدد، أن معناه هو «لو نازعتني - يعني ابنه المأمون - هذا الأمر أخذت الذي فيه عيناك!» أي قطعت رأسك.

وهو المعنى الذي عاشه المأمون بعد سنوات مع أخيه الأمين. كما سنرى لاحقًا.

* * *

محمد الأمين

خليفة قتله غدره

ـ بغداد ـ أغسطس ٨١٣م

أشفق على هذا البائس المرتعد أمامه بردًا وخوفًا، فنزع عباءته وألقاها على جسده العاري، إلا من سروال وخرقة مهترئة لا تكاد تستر كتفيه المرتجفتين.

أعاد إليه الشاب عباءته وهو يقول من بين أسنانه المصطكة «لا. هذا الموقف أدعى لهذه الخرقة من تلك العباءة» ثم بدت نظرة استجداء في عينيه وهو يقول «هل لي أن تضمني؟ فإني أشعر بالوحشة»

اغرورقت عينا أحمد بن سلّام ـ صاحب النظر في المظالم بالدولة ـ بدموع العطف على عزيز قومٍ ذُل، بل قد كان قبل ذله أعز هؤلاء القوم مكانًا. قام وضم الرجل إلى صدره. استشعر خفقانًا عنيفًا ينبعث من صدر المسكين وينتقل إلى داخل صدره.

بينما هو جالس إلى المستجير به يحاول عبثًا تهدئة روعه، ارتج الباب منفتحًا بدفعة قدم عاتية، فوثب أحمد يحاول إثناء أولئك الذين اقتحموا الدار مشهرين سيوفهم، عن جليسه الذي وثب بدوره وهو يردد بذهول «إنا لله وإنا إليه راجعون! ذهبت نفسي والله!» ثم صرخ بهم في لهجة ظاهرها الزجر وباطنها الاستجداء «أما تتقون الله؟! أما فيكم من يدفع عني؟!»

شقت ذبابة سيف طريقها إلى مقدمة رأسه فشجتها. تراجع خطوة إلى الوراء ورفع وسادة بيده في محاولة يائسة لاتقاء ضربة أخرى، إلا أن تلك التالية راوغته متخذة طريقها إلى خصره.

اجتاح الألم جذعه صَعدًا فانهار على ركبتيه.

احتاج ابن سلّام إلى لحظات ليستوعب ما تلى من مشاهد. تلك اليد الغليظة التي جذبت الراكع من شعره، معينة يدًا أخرى هوت بالسيف على مؤخر العنق فاجتثت الرأس من موضعه. وعندما نثر حامل الرأس الدم المنبعث من أسفله، وهو يأرجح حمله يمينًا ويسارًا بنشوة من أثمله النصر، وربط آخر الجثة من قدميها بحبل وجرها منه، هنا فقط أدرك أحمد بن سلّام أنه قد شهد القتل والتمثيل بالجثمان بحق مخدومه أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، محمد الأمين ابن هارون الرشيد!

* * *

المشهد سالف الذكر ـ والذي نقله لنا مؤرخو تلك الفترة بأدق تفاصيله ـ ربما يبث في القارئ إشفاقًا على الأمين من خاتمته المأساوية.

ولكن صاحب تلك المأساة كان في حقيقة الأمر يدفع ثمن جريمة غدره بأخويه المأمون والمؤتمن، وبالعهد الذي أبرمه الرشيد بين الأمين والمأمون كما سيرد الذِكر.

فالرشيد كان قد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه محمد الأمين سنة ٧٩١م مقدمًا إياه ـ رغم صغر سنه فقد كان في الخامسة من عمره آنذاك ـ على أخيه الأكبر عبد الله المأمون، وهذا مراعاة لهاشمية نسب أمه زبيدة.

ثم بايع للمأمون بولاية العهد بعد الأمين سنة ٧٩٩م، وأعطاه ولاية خراسان وما وراءها حتى نهاية الحدود الشرقية للدولة.

وفي العام ٨٠٢م بايع بولاية العهد بعد المأمون لابنه القاسم الملقب بالمؤتمن، وولاه أعمال الثغور ـ المناطق الحدودية المتاخمة للعدو ـ وعواصم الولايات وإقليم الجزيرة الفراتية.

ولأنه استشعر جفوة وتنافرًا بين الأمين والمأمون، فقد اصطحبهما إلى مكة في موسم الحج، وأخذ عليهما العهود المشددة بألا يجور أحدهما على الآخر أو أن ينازعه ما له، وألا يجورا على أخيهما المؤتمن. وكُتِبَ العهد وعُلِّقت نسخة منه في فناء الكعبة لتغليظ قدسيته.

وفي العام ٨٠٨م، توفي الرشيد وبويع الأمين الذي كان قد قال مع قسمه «خذلني الله إن خذلته» ـ يعني المأمون ـ وكررها ثلاثًا، ثم مال على رجله المقرب «الفضل بن الربيع» هامسًا «كنت أحلف وأنا أنوي الغدر!» ومن هنا بدأت المأساة.

* * *

لم يكد الرشيد يحتضر في بعض سفره إلى خراسان حتى بادر الأمين بالغدر، فأرسل إلى خراسان من يستدعي العتاد والجيش فور وفاة الخليفة، وبالفعل قام الفضل بن الربيع بتلك المهمة دون أن يكترث لاعتراض المأمون ـ المقيم هناك بمدينة «مَرو» ـ على هذا التدخُل في منطقة تقع داخل نفوذه، كما ينص العهد المبرم.

ثم تمادى في غدره ولم يمضِ عام على مبايعته خليفة، فبدأ ينتقص مما لأخيه المؤتمن، ثم بدأ يضايق المأمون ويتحرش به، بينما كان هذا الأخير ذكيًا فالتزم ضبط النفس وظل على مخاطبته الخليفة بالتوقير والاحترام، بل وأرسل له الهدايا. والأمين يتربص بأخيه ويقول لوزيره «ويلك يا فضل!

لا حياة مع بقاء عبد الله! ولا بد من خلعه!»

كل هذا والمأمون يوطد محبته لدى الخراسانيين لعقله واتزانه، فضلاً عن اعتبارهم أنه «منهم» بحكم الدم الفارسي المختلط بدمائه العربية، بينما الأمين ينفق الآلاف على اشتراء الفتيان والخصيان، وعلى بناء مراكب على أشكال الحيوانات والطيور لقضاء أوقات لهوه ومرحه وشرابه مع ندمائه، ومع الفتى «كوثر» غلامه الحبيب الذي كان يفضله حتى على النساء!

بقي الأخوان في مراسلات ومناوشات كلامية حتى العام ٨١١م عندما انتزع الأمين من أخيه المؤتمن كل ما كان أبوهما قد ولاه واستدعاه لبغداد، ثم أمر الخليفة الخطباء بالدعاء لابنه الطفل موسى بولاية العهد بعد ذكر اسمه واسمي أخويه المأمون والمؤتمن. فتوتر المأمون وقطع البريد بين خراسان ودار الخلافة. فحاول الأمين استدراجه إلى فخ في بغداد، بأن طلب منه موافاته بها لأمور يرغب في الاستعانة به فيها، ثم لما اعتذر المأمون عن عدم السفر ـ مدركًا الخدعة ـ راسله أخوه مجددًا، طالبًا منه تسليمه مناطق بخراسان واستقبال مبعوثين من الخلافة للإقليم لتولي وظائف البريد به (والبريد وقتها لم يكن مقتصر على المراسلات العادية، بل كان يقوم بمهام عدة منها الاستخباراتي كأعمال التجسس والتجسس المضاد، ومنها الرقابي ككتابة التقارير عن الولاة، ومنها الحربي كأسلحة الإشارة بالجيوش الحديثة) فثبت المأمون على رفضه تلك المطالب، ودخلت العلاقة مرحلة العداء الصريح. فأمر الأمين بإحضار العهد المبرم المعلق بالكعبة ومزقه ثم أحرقه، وأسقط اسم المأمون من ولاية العهد، ولم يقف هذا الأخير كثيرًا عند ذلك، فقد كان يتوقعه مسبقًا، وسارع بقطع العلاقات بين إقليم خراسان وما يتبعه من ناحية، وبغداد وما يتبعها من ناحية أخرى، وتولى وزيره «الفضل بن سهل» عملية مراقبة الطرق والمسالك والقبض على المشتبه في قيامهم بالتجسس لصالح بغداد.

وعلى ذكر «الفضل بن سهل»، فإن الحرب بين الأخوين الأمين والمأمون لم تكن حربهما وحدهما، بل إن الوضع كله كان عبارة عن حروب متوازية تدور في نفس الساحات. فثمة حرب ابني الرشيد، ومعها حرب «الفضلين» الفضل بن سهل وزير المأمون، والفضل بن الربيع وزير الأمين، وكل من الوزيرين يمثل معسكره، فبينما كان ابن الربيع يقود المعسكر «العربي» الممثل في الخليفة عربي الأم والأب، كان ابن سهل يمثل المعسكر «الفارسي» المنحاز للخليفة المأمون فارسي الأم، وقد بدا هذا في التفاف أهل خراسان ـ المعروفين بالخراسانية ـ حول أميرهم باعتبار أنهم «أخواله»، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كانت الحالة كلها عبارة عن حلقة في سلسلة الصراع العربي الفارسي، الممتدة منذ بداية التاريخ الإسلامي وحتى يومنا هذا.

وقد رأى كل منهما أن مساندته لصاحبه ما هي إلا نُصرة للعنصر الذي ينتمي إليه كلاهما ـ بشكل أو بآخر ـ على العنصر المنافِس.

* * *

ولم يفتقر الأمين إلى من ينصحه الرجوع عن الغدر، لكن كل من كان يجرؤ أن ينطق بذلك كان يلقى السخرية أو الزجر أو الإبعاد عن المجلس.

وقال له أحدهم: «يا أمير المؤمنين، لن ينصحك من كذبك، ولن يغشك من صدقك، لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا بيعتك وعهدك، فإن الغادر مغلول، والناكث مخذول!»

فلم يسمع منه.

وأصر على المبايعة لابنه موسى ملقبًا إياه «الناطق بالحق».

وانتشر شعر يسخر من الخليفة ورجاله، وعلى رأسهم الفضل بن الربيع

وبكر بن المعتمر (الذي كلفه بنقل العتاد من خراسان بعد وفاة أبيه كما ورد)، مع التلميح لبعض الأمور المشينة المرتبطة بسلوك الخليفة والوزير.

«أضاع الخلافة غش الوزير	وفسق الأمير وجهل المشير.
ففضلٌ وزيرٌ وبَكرٌ مشيرٌ	يريدان ما فيه حتف الأمير.
لواط الخليفة أعجوبة	وأعجب منه خلاق الوزير.
فهذا يدوس وهذا يُداس	كذاك لعمري خلاف الأمور.
فلو يستعفان هذا بذاك	لكانا بعرضة أمر ستير.
وأعجب من ذا وذا أننا	نبايع للطفل فينا الصغير.
ومن ليس يحسن غسل استه	ولم يخل من بوله حجر ظير.
وما ذاك إلا بفضل وبكر	يريدان طمس الكتاب المنير
وهذان لولا انقلاب الزمان	أفي العير هذان أم في النفير.»

وبانعدام جدوى المفاوضات، انتقل الفريقان من المناوشات الكلامية للحرب المسلحة الصريحة، فأعلن المأمون إسقاط الطاعة لأخيه وتلقب بـ«إمام الهدى»، وأعد الأمين حملة ضخمة لتوجيهها إلى خراسان وإحضار أخيه مكبلاً بقيد فضّي أعد خصيصًا لذلك. وحشد المأمون جيشًا من جنده ومؤيديه بقيادة القائد العسكري طاهر بن الحسين. وتشدد الفضل بن سهل في إجراءات حماية الجبهة الخراسانية من الاختراق بالجواسيس، بينما استطاع تجنيد عيون له في قلب بلاط بغداد نفسه.

ولأنه كان داهية، فقد لعب ابن سهل لعبة بارعة. فقد أرسل لواحد من عملائه بين مستشاري الأمين، وأمره أن ينصح هذا الأخير بتعيين القائد علي بن عيسى بن ماهان ـ والي خراسان السابق ـ قائدًا للجيش المزمع إرساله لمحاربة المأمون.

كان الداهية يرمي من ذلك لإثارة حمية الخراسانيين في التصدي لجيش الأمين، وقد كان، فما أن علموا أنه قد اختار ابن ماهان المذكور إلا وقد ثارت ثائرتهم، وأقسموا ألا يدخل بلادهم إلا على جثثهم جميعًا. لماذا؟

لأن علي بن عيسى بن ماهان، حين كان واليًا عليهم في عهد الرشيد، أساء السيرة وأخذهم بالشدة فأبغضوه، وشكوا منه فخلعه الرشيد. فلما علموا بعودته لهم اعتبروا ذلك تحديًا لإرادتهم ورغبة من الأمين في التنكيل بهم.

والتقى الجيشان بالفعل. والواقع أن ابن ماهان ـ فضلاً عن عنفه ـ كان يتميز بغرور شديد جعله يقع في فخ جيش عدوه، ويتوغل في بلاده مظهرًا الاستهانة به بقوله عن طاهر بن الحسين ـ قائد جند المأمون ـ «ما طاهر إلا شوكة في أغصاني!» وهكذا بقي يتوغل في بيئة معادية حتى وقعت المواجهة. وجرت مذبحة لجيشه فقد هو نفسه حياته فيها.

وحين جاء الأمين بعض رجاله ينذره بهزيمة جيشه ومقتل قائده، كان يصيد السمك، فزجر حامل الخبر قائلاً «إليك عني فإن كوثر قد صاد سمكتين وأنا لم أصد ولا سمكة!»

وكرر الأمين المحاولة مرسلاً حملة أخرى، كان لها نفس مصير سابقتها. وحاول أن يستميل طاهر بن الحسين فأرسل له يقول إن ما من أحد نصر أحد بني العباس على عدو من أهله، إلا كان مصيره نكران الجميل ممن نصره. فتجاهله طاهر وبدأ يزحف على بغداد حتى بلغها وضرب عليها حصارًا قاسيًا، وقد رافقه قائد آخر هو هرثمة بن أعين.

وبدأت المجانيق تضرب المدينة، والرماة على الجانبين يتبادلون رمي السهام وقذف الحجارة.

وأصاب حجر وجه «كوثر» فأخذ الأمين يمسح عنه دمه ويواسيه في جرحه، وهو يقول الشعر يعاتب من رموه!

وانحلت أحوال بغداد، وسيطرت عليها الفوضى وانعدم الأمن فيها. وخُرِبَت قصورها ودورها حتى بكاها البعض قائلاً: «بكيت دمًا على بغداد لما. فقدت غضارة العيش الأنيق. أصابتها من الحُسّاد عين. فأفنت أهلها بالمنجنيق»

ووسط كل هذا كان الأمين يسمر في مجالس الشراب والغناء واللهو.

* * *

كان هذا قبل مقتله بليلة أو اثنتين. طب عمه إبراهيم بن المهدي ـ وكان مشتغلاً بالغناء والطرب ـ فجلسا للشراب والغناء وطلبا جارية تغني. فلما عرفا أن اسمها «ضعف» تشاءما.

فلما غنت كان يصادف غناؤها أبيات من النوع الذي يحمل أكثر من معنى، فكانت معانيها ترتبط بالهزيمة والفراق وفقد المُلْك. فزجرها إبراهيم وطردها فقامت مضطربة وتعثرت في قدح شراب الأمين، وكان قدحًا بلوريًا نادرًا، فانكسر.

فقال الأمين لعمه ورفيقه «ويحك يا إبراهيم! أما ترى؟! والله ما أرى أمري إلا قد قرب» فسارع العم يرد «بل يطيل الله عمرك ويعز ملكك» فسمعا صوتًا يأتي من بعيد لرجل يقرأ القرآن ويقول «قُضِيَ الأمر الذي فيه تستفتيان» فقام الأمين وقد سيطر عليه التشاؤم!

واشتد الحصار عليه حتى اضطر لإذابة أوانيه وصك عملات منها ليدفع المال لجنده، ثم لم يجد حتى شربة ماء في قصره. فقرر الاستسلام لأخيه.

ولأنه يدرك أن طاهر بن الحسين يبغضه وسيقتله لو أسره، فقد راسل هرثمة بن أعين ـ وكان معروفًا أن هرثمة يرى الإبقاء على حياة الأمين مع خلعه من منصبه ـ وعرض عليه التنازل عن الخلافة مقابل حياته، فوعده القائد ببذل الجهد لأجل ذلك رغم صعوبته.

واقتحم القائدان المدينة كل من جهته، ويبدو أن طاهر كان قد استشعر اتفاق الأمين مع هرثمة فسارع بإرسال قوة أسرت الخليفة، وحبسته حيث تم قتله وعرض رأسه والتمثيل بجسده، وأرسل طاهر إلى المأمون خاتم الخلافة ومعه البُردة والقضيب، وهما شعار الخلافة، وقد كانا للرسول محمد ثم جرى العرف أن يحتفظ بهما الخلفاء بعد ذلك.

وتحقق دعاء الأمين في يوم العهد المبرم الذي أحرقه، حين قال «خذلني الله إن خذلته»!

* * *

كان الأمين يرى في المأمون عدوه، لكن لم يكن للأمين عدو أشر عليه من نفسه. فكان كمن يسير مخدرًا إلى حتفه، وكانت نهايته من جنس عمله بالمعنى الحرفي الكامل للكلمة، فقد حاول سلب أخيه حقه فسُلِبَ مُلكه وهو يرى، وغدر بالعهد فغُدِرَ بعهد الأمان له. ربما لهذا يمكن أن يرى القارئ في حرب الأخوين ـ الأمين والمأمون ـ نموذجًا لما يوصف بـ«العدالة الشعرية» كما يجب أن تكون![*]

(*) قُدمَت بالفعل قصة الأمين والمأمون في مسلسل عربي في العام ٢٠٠٦ بعنوان «أبناء الرشيد. الأمين والمأمون» من تأليف كل من غسان زكريا وغازي الذيبة وإخراج شوقي الماجري وبطولة إياد نصار ومنذر رياحنة ورشيد عساف.

جملة اعتراضية

بمقتل الأمين وتولي المأمون الخلافة، عادت العناصر الفارسية لتَصَدُّر المشهد، والتغلغل في مؤسسات الحكم. وبدأ النفوذ العربي ينحسر تدريجيًا.

وبعد وفاة المأمون، ومبايعة أخيه أبي إسحاق محمد الملقب بـ«المعتصم بالله»، انتقل النفوذ إلى العنصر التركي، تأثرًا من المعتصم بأمه التركية، وكذلك لأنه قد استوحش من جانب الجند العرب فاستبدلهم بجند أتراك جلبهم من أقاليم سمرقند وبخارى وفرغانة (في أوزبكستان حاليًا، ونسبة لها اسم فرغاني الذي خُفِف إلى فرغلي)، وبدأ يستكثر من المماليك الترك المسلحين ليكونوا عصب قوته. وعندما ضاق بهم أهل بغداد بنى عاصمة عسكرية وإدارية له، سمّاها «سُر من رأى» - والتي حين دار بها الزمن وخربت سماها الناس «ساء من رأى» ثم حُرِفَت إلى «سامراء» - ونقل لها جنده.

من بعد عهد المعتصم أصبح المرؤوسون التُّرك رؤساء على الحقيقة، فتسلطوا على اختيار الخلفاء وتعيينهم وعزلهم، بل وقتلهم وحبسهم لو لزم الأمر، وصار الحل والربط بأيدي القادة الأتراك، بينما للخليفة اللقب الشرفي دون السلطة الفعلية. وبهذا بدأ ما يوصف بأنه «العصر العباسي الثاني».

المتوكل والمنتصر

قتيلا الحماقة

ـ سامراء ـ ٨٦١ م

رددت جنبات مجلس الخليفة أصداء ضحكة رقيعة مجلجلة، لا تتأتى إلا لإمرأة رباها العُهر في حجره، وانشق الستار عن مصدرها الذي كان ـ وهو ما ضاعف ضحك الجلوس ـ رجل أصلع ملون الوجه بالأصباغ، اقتحم المكان راقصًا بخلاعة وقد اصطنع كرشًا ضخمًا بوسادة وضعها تحت ثوبه صارخ الألوان.

غنّى والجوقة تردد خلفه «قد أقبل الأصلع البطين. خليفة المسلمين!» يعنون «عليّ بن أبي طالب»، فالخليفة جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بالله، معروف ببغضه لعليّ وآل بيته، حتى إنه أطلق فيهم بطشه واضطهاده، وبلغ بكراهيته لهم حد أمره بهدم قبر الحسين بكربلاء وتسويته بالأرض وزراعة ما حوله، والتشديد في منع زيارته أو ذكره. بل وهدم ما حوله من دور ومنازل.

لم يتمالك الخليفة نفسه من الضحك من مَسخه المعروف بـ«عبادة المخنث» وقد ارتجل رقصة هزلية وشاركت أردافه بطنه الأداء فاحش الإيحاءات.

أمسك مُضحِك الخليفة بكرشه الصناعي وصار يرقص خصره لأعلى وأسفل في حركة بذيئة، فكاد سيده يختنق ضحكًا. اعتدل عمارة ودار يكمل رقصته إلا أنه لمح «المنتصر بالله» - ابن الخليفة - يدلف إلى القاعة وقد علت وجهه المتجهم علامات الغضب، فتوقف عن الرقص وتراجع ببطء إلى قرب كرسي المتوكل، وهو ينظر إليه كأنما يحتمي به.

اعتدل الأب وقد زالت ضحكته وتعكرت ملامحه بضيق واضح، وهو يمد يده للابن الذي انحنى وقبلها، فسحبها أبوه بحركة ازدراء مقصودة. وترددت همهمة خافتة بين الحضور. انتقلت النظرات بين الاثنين. المتوكل في آخر ثلاثيناته والمنتصر في نصف عشريناته، ما يجعلهما عمريًا أقرب للأخوين من الأب للابن.

- «يا أمير المؤمنين» قالها المنتصر فأسند الخليفة رأسه إلى كفه مصطنعا تقطيبة سأم على جبينه. أكمل الفتى «إن هذا الذي يذكر ويضحك منه الناس هو ابن عمك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك!»

رفع المتوكل حاجبيه متهكمًا وهو يقول: «به فخري؟!» ثم التفت إلى عمارة المخنث متسائلاً بسخرية لاذعة: «قل لي يا عمارة. أأنا فخور بعليّ حقًا كما يقول ابننا؟» افتعل عمارة نصف انحناءة وأطلق ضرطة عالية وقد أكسبه استهزاء الخليفة بابنه جرأة في مواجهة هذا الأخير.

ضغط المنتصر أسنانه حتى سُمِعَ صريرها، عض شفته ثم قال لأبيه «إن كنت لا بد فاعلاً وتريد أن تنال من عليّ، فكُل أنت لحمك» ثم التفت لعمارة مردفًا بصرامة شديدة «ولا تطعم منه هذا الكلب وأمثاله!»

سكتت الهمهمات وساد المكان صمت مترقب لرد فعل الخليفة إزاء

هذه النبرة. بقي المتوكل يتأمل ابنه دون أن ينبس ببنت شفة. ثم صفق بغتة بحرارة مبالغ فيها وقد اجتاحته نوبة ضحك احمر لها وجه المنتصر غضبًا وحرجًا.

أخيرًا كبح جماح ضحكاته فالتفت إلى المغنين صائحًا بهم بمرح وحشي: «إليكم ما تغنون به. ما دام ابننا لا يحب ما كنتم تغنون» ثم أكمل منغمًا قوله وضاغطًا على مخارج ألفاظه «غار الفتى لابن عمه! رأس الفتى في حِرِ (فَرج) أمه!»

*   *   *

بينما حظي المتوكل بمدح المنحازين للسلفية، بحكم رفعه محنة «خلق القرآن» التي وضعها المأمون ـ وهي إلزام الناس خاصة القضاة وموظفي الدولة بالقول بأن القرآن مخلوق وليس كلامًا مُنَزَّلاً على الرسول محمد ـ وإطلاقه سراح أحمد بن حنبل الذي كان محبوسًا على خلفية القضية سالفة الذكر، ومحاربته فرقة «المعتزلة» ـ التي يتحسس منها المتحفظون دينيًا ـ وأمره القضاة ورجال الدين بالعمل بالسُنة والتقليد، حتى وضعه البعض في مصاف كل من أبي بكر بن أبي قحافة وعمر بن عبد العزيز في «إحياء السُنّة»، ووجه بهجوم من رأوا في موقفه المنحاز للتقليد تجميدًا للعقل وإغلاقًا لباب الاجتهاد في الدين. (وأنا أسجل دهشتي من وصف هذا الرجل بإحياء السُنة في نفس السياق الذي تُذكَر فيه مجالس سكره وعربدته)

وبينما أحبته العامة لرفعه المحنة المذكورة، وقيامه في الحد من تسلُط القادة التُرك باعتقال كبيرهم إيتاخ ومصادرة أمواله، أبغضته خاصة الدولة من التُرك المذكورين لمحاولته التحرر من سطوتهم، وتوليته أبناءه الثلاثة ـ المنتصر والمعتز والمؤيد ـ أعمال أقاليم الخلافة وضرب العملة، ما كان يعني

انتقاص التغلغل التركي في جسد المؤسسة الحاكمة. خاصة وقد قدّم عليهم وزيره «الفتح بن خاقان» وقربه إليه، فصار حليفًا له ضد قادة الجند التُرك «بغا» و«وصيف» و«باغر»

بل وأبغضه ابنه المنتصر. ولأكثر من سبب.

فمن أسباب الجفوة بين الابن وأبيه ما ذُكِرَ من بغض المتوكل لعلي وأبنائه وأحفاده ـ الطالبيين نسبة لأبي طالب ـ واضطهاده لهم وتطاوله على جدهم. بل وبلغ به الأمر أن أبغض من سبقوه من خلفاء العباسيين، وازدراهم لحبهم لعلي واحترامهم لسيرته!

ومنها محاولات إزاحة المنتصر ـ وهو الابن الأكبر ـ عن ولاية العهد لصالح أخيه «المعتز»، ربما بحكم تأثير أم هذا الأخير، محظية الخليفة الأثيرة إلى قلبه، والتي سماها بائعها ومربيها الأول «قبيحة» لدفع الحسد عنها من فرط جمالها!

وأقساها كذلك تعمد المتوكل إهانة ابنه الأكبر أمام الناس، وثمة موقف شهير له، لعله كان الزناد الذي قدح شرارة نار صدر الابن المجروح في كرامته، فكان منه ما سيأتي ذكره.

فقد كان الخليفة قد توعك فعجز عن الخروج لصلاة الجمعة والخطبة في الناس، فأمر المنتصر بأن ينوب عنه في ذلك، ثم رجع عن أمره وأمر المعتز عوضًا عنه، بتأثير من «قبيحة»، فاغتاظ المنتصر من ذلك لكونه يدل على نية الأب تقديم المعتز عليه في ولاية العهد.

بل وبلغت الابن أنباء بأن أباه الخليفة يدبر مع وزيره الفتح بن خاقان خطة للتخلص من قادة التُرك، ومن المنتصر نفسه، بضربة واحدة، لما أحس من تقارب بينهم. وما يتوجسه من انقلابهم جميعًا عليه.

وقد تأكد هذا الشك عند حضور المنتصر مجلس أبيه، فقد أفرط الأب في الشراب ثم بدأ في توجيه الإهانات لابنه، وصار يسقيه من الشراب فوق طاقته. وتمادى فصار يلطمه ويهدده بالقتل. ثم أشار لابن خاقان آمرًا: «برئت من الله ومن قرابتي لرسول الله إن لم تلطمه» فنفذ الوزير أمر سيده ولطم الفتى على مؤخر عنقه مرتين!

أخيرًا قال المتوكل للحضور بصوت عالٍ: «اشهدوا أني قد خلعت المستعجل!»

ساد الصمت وشحب وجه الابن والأرض تميد به، فأردف الأب «قد سميتك المنتصر وسماك الناس المنتظر لحماقتك. والآن صار اسمك المستعجل!» فغامت عينا الفتى بالدموع وأجاب «والله لو أمرت بضرب عنقي لكان أهون مما تفعل بي الآن!».

ثم انسحب من المجلس وهو لا يكاد يرى أمامه وجعًا وغيظًا.

* * *

سامراء - ١١ ديسمبر ٨٦١م

بعكس ما اعتاده ندماء المتوكل من أن تضج مجالسه بالضحك والانبساط، خيّم وجوم ثقيل على المكان في تلك الليلة. لا يذكرون متى تغيّر مزاج الخليفة، ولكنهم فوجئوا به يقوم، فيتوقف المغنون عن إطرابهم، ويسجد فيعفر رأسه.. تبادلوا نظرات الدهشة ثم سارعوا بإخفائها تأدبًا حين اعتدل من سجدته. عادوا لطربهم ثم فجأة عاودت المتوكل نوبة كآبته فانفجر في البكاء بغير مقدمات.

اقترب منه الفتح بن خاقان يتساءل عما به، إلا أن خادمًا لقبيحة دلف إلى المجلس مقدمًا للخليفة رداءً ثمينًا أرسلته هدية لسيدها.

تناول المتوكل الثوب وقلبه بين يديه، وقد شابت ملامحه الحزينة نظرة إعجاب. ثم بحركة مباغتة مزقه نصفين ورفع عينيه للخادم المذهول وقال «أخبرها أنه قد أعجبني. ولكنني لا أراني أدرك أن ألبسه، فمزقته لأني أكره أن يلبسه أحد من بعدي» ثم ناوله إياه مردفًا «أخبرها أن تحفظ هذا عندها كفنًا لي!»

وكما اجتاحته الكآبة فجأة انتابته حالة جنونية من المرح فعاد إلى طربه وكأس خمره، وعاد الحضور إلى ما كانوا فيه، وقد أرادوا أن يدفنوا بين الكأس والنغم عظيم دهشتهم من سلوك الخليفة في هذه الليلة العجيبة.

بقي المتوكل يعب من الشراب حتى ثقل رأسه وبدت عليه الثمالة الشديدة. وفجأة اقتحم المجلس التركي «باغر» ومعه عشرة ملثمين من الخدم مندفعين نحو الخليفة مباشرة، فأطار إدراك الحضور للمعنى الخمر من رؤوسهم وانطلقوا فرارًا. بينما وثب ابن خاقان إلى سيده يحميه بجسده وهو يصرخ بباغر «ويلكم! مولاكم؟! تقتلون مولاكم؟!» فغرس أحدهم السيف في بطنه حتى برز من مؤخرته. رغم فداحة إصابته حاول الاستماتة في دفع المعتدين عن مولاه وصديقه، لكن قواه خانته فسقط أرضًا وروحه تنسل من جسده، بينما هوى باغر بسيفه على خصر المتوكل يمينًا ثم يسارًا ليبقر بطنه باتجاهين.

تراجع القتلة عن مسرح عملهم السريع. مسح قائدهم الدم عن سيفه وهو يشير لهم بلف الجثتين في البساط.

غادر القاعة وقد وجد في انتظاره أعوانه ممن احتلوا دار الخلافة، مستغلين انشغال من به بخدمة مجلس الخليفة المقتول. اتجه إلى باب القصر وبقي واقفًا حتى تعالى صوت خيل تقترب. انفصل منها فارس وترجل عن جواده فتقدم منه باغر وانحنى مقبلاً يده قائلاً: «سيدي المنتصر. عظم الله أجركم في والدكم الخليفة، فقد ناداه ربه فلبى نداءه» ثم اعتدل مردفًا «قد قتله الفتح بن خاقان، فقتلنا الفتح بجرمه!»

بقي المنتصر صامتًا مثبتًا نظراته في عيني باغر. وبينهما ترددت نظرة تفاهُم تقول الكثير.

* * *

رفعه الأتراك على العرش بعد أن تم اتفاقهم معه. كان التسلسل المنطقي للأمور يقضي بأن يخلف أباه، فالأتراك يخشون من انتقام المعتز أو المؤيد لأبيهما لو أن أحدهما بويع بالخلافة.

لهذا فقد أصبح المنتصر بالله محمد ـ وفي رواية أخرى الزبير ـ بن المتوكل على الله، أميرًا للمؤمنين.

حاول إقناع نفسه أن أباه قد استحق منه مشاركة الجند تدبيرهم هلاكه. ألم يتطاول على عليّ بن أبي طالب وآل بيته؟ واجترأ على قبر ابن بنت النبي.. وابتذل الخلافة بين الكأس والمخنثين؟

لماذا إذن يجافيه النوم الهانئ وتداهمه الكوابيس التي يرى فيها أباه يتوعده من الله سوء المنقلب؟!

ألم يصلح ما أفسد الأب العاق والخليفة الظالم، فرفع البطش عن آل بيت علي، وأعاد الاحترام لذكرى الحسين، وألف قلوب الهاشميين ورد مظالمهم؟

ألا يعتبر ما كان منه بحق أبيه بمثابة «تغيير المُنكَر باليد»؟!

فلماذا يرى الاتهام في نظرات الجميع وإن أخفوها بالانحناء تأدبًا؟ القضاة، الفقهاء، الخدم، حتى انعكاس وجهه على صفحة المرآة. يبصق الإدانة منذرًا بالويل.

* * *

حاول الفرار من عتمة أفكاره بتأمل رسوم دقيقة التفاصيل على بساط يغطي مجلسه، رسم يصور دائرة تحيط بفارس يرتدي تاجًا مَلَكيًا، وكتابات فارسية تحيط بتلك الدائرة.

تشاغَل بمحاولة عبثية لقراءة المكتوب ثم رفع رأسه لبعض من حضره سائلاً «أنت تعرف لغة الفرس، أليس كذلك؟» هز المسؤول رأسه بالإيجاب، فأشار له المنتصر بالاقتراب وتَفَحُص البساط.

مال الرجل مدققًا في الكتابة ثم اعتدل بغتة وهو يداري توترًا اعتراه. اصطنع ابتسامة وقال متظاهرًا بالهدوء «هذا لا معنى له. البعض أراد تزيين البساط فوضع حروفًا لا تعني شيئًا مفهومًا» عقد الخليفة الشاب حاجبيه واستوقف محدثه قائلاً بصرامة شديدة: «فلتصدقني القول. لستُ غافلاً عن اضطرابك إذ قرأت ما به!»

تردد لثوانٍ ثم عاد ينحني على البساط مترجمًا بصوتٍ مسموع: «أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز. قتلت أبي فلم أُمَتَّع بالمُلكِ إلا ستة أشهر»

مادت الأرض بالمنتصر واجتاحت ظهره برودة مباغتة. هم المترجم بالانسحاب من أمامه فاستوقفه مستجمعًا رباطة جأشه وسأله مصطنعًا لامبالاة بطعنة المغزى الدفين: «وهل تصدق ذلك؟ أعني هي ليست أول مرة أسمع فيها القول إن من قتل أباه لأجل المُلك لم يُمَتَّع به إلا ستة أشهر»

أرتج على الرجل وهو يتمتم «هكذا قال الأقدمون والله أعلم» بقي صامتًا وقد بث نظرته الحادة تفتش عينا محدثه بحثًا عن مزيد يفسر ما قيل فلم يجد. أشار له بالانصراف فانطلق هذا مسرعًا وقد علاه الحرج.

الأحلام، النظرات، حديث الأولين، كتابة الفُرس حول تهاويل البساط الثمين.

العلامات تحاصره، تجثم على صدره، تنتزع من روحه مزقة تلو الأخرى حتى تأتي على نفسه، حتى بات يحسد أباه على قتلته السريعة.

* * *

وكأن هموم نفسه لا تكفي، فقد داهمه التُرك بهمّ جديد.

فرغم إقصائهم المعتز والمؤيد ابني الخليفة المقتول عن الحكم، بقي لدى بغا ووصيف هاجس من أن يخلف أحدهما المنتصر بعد موته فيقتص من قتلة أبيه المتوكل.

عقدا العزم إذن على حمل الخليفة على أن يخلعهما من ولاية العهد. فاستدعاهما إلى دار الخلافة حيث حُبِسا لحين إقرارهما بالتنازل عنها. حاول المؤيد أن يعاند ولكن المعتز أثنى أخاه عن المقاومة، فأقرا بالمطلوب. وتعمد المنتصر إحراج من حضروا من الأتراك بأن قال لأخويه بشكل صريح إنه كان يجب أن يخلفاه إلا أنه يخشى عليهما من الترك أن يقتلوهما. وهي إشارة واضحة لجرأة العناصر التركية على الاعتداء على الخلفاء.. وابتلع الترك الإهانة بصمت. إلى حين.

انتهت هذه الزوبعة إذن. ولكن الخليفة ضاق بتسلُط الترك عليه في كل شيء. كان المنتصر يحسب أن أباه قد قلّم أظفارهم بما يكفي، وأنهم ما قتلوه إلا طاعة له، لكنه اكتشف ـ متأخرًا ـ أنه هو الذي كان أداة وذريعة لهم للتخلص من المتوكل، الذي كان شوكة قوية تحول دون ابتلاعهم صلاحيات الحكم.

سرعان ما انقلب التفاهم السابق إلى توجس وتربص متبادلين، خاصة وقد جاهر المنتصر باحتقاره الأتراك الذين بلغهم أنه يصفهم في مجالسه بـ«قتلة الخلفاء».

منح الخليفة إذن حلفاء الأمس سببًا لأن يضمروا له الشر. وأن يعيدوا تحسس مقابض سيوفهم الراقدة في أغمادها.

ولكن لا. هذه المرة لن تصلح السيوف لأداء المهمة، فقتل الخليفة السابق بشكل صريح قد أزعج العامة وأثارهم.

على الأمر إذن أن يتم «بنظافة»

* * *

تختلف الروايات حول شكل النهاية.

فالبعض يقولون إن السُم كان محقونًا بثمرة كمثرى، والمنتصر كان معروف بحبها.

غيرهم قال: «بل صب له الطبيب دهنًا في أذنه بحجة مداواة علّة برأسه، فتورم رأسه ومرض ومات»

وآخرون ذكروا ثلاثة آلاف دينار منحها الترك للطبيب ابن طيفور، فوضع سمًا في مِبضع (مشرط) واستغل مرض الخليفة فنصحه بالحجامة، وشق جلده بهذا المبضع المسموم فأصيب المنتصر بالحمى ومات. وكان آخر ما قال في احتضاره: «ضاعت مني الدنيا والآخرة. عاجلت أبي فعوجلت!»

في كل الأحوال، قد أخذ الأمر شكل «الوفاة الطبيعية»، وهو ما يخدم بالتأكيد غرض المعسكر التركي؛ ألا تثار الأقاويل حول موت الخليفة الشاب عشريني العمر، بعد ستة أشهر فحسب من مبايعته!

* * *

قبل أن يقتل الأتراك الخليفة المتوكل بمساعدة المنتصر، وقبل أن يقتلوا المنتصر بعد ذلك، قتل كل منهما نفسه بحماقته.

فأما المتوكل، فقد فتح على نفسه جبهات بمعاداته ابنه، والطالبيين، وتصعيده مع الشيعة، في وقت كانت فيه ثمة معركة قائمة بالفعل، ألا وهي معركته مع القادة الترك لتحجيم نفوذهم ورد الهيبة لمنصب الخلافة. ففقد دعم من كان يمكن أن يستقوي بهم سواء من الطالبيين بحكم ما هو متوقع من انحيازهم لعنصرهم وبني عمومتهم - أو على الأقل كان يمكن أن يبرد جبهة الخصومة معهم - وفقد أيضًا إخلاص ابنه الأكبر وعونه له.

وأما المنتصر، فإنه بممالأة الترك على أبيه إنما طعن نفسه بخنجره، فهو - فضلاً عن الجانب الأخلاقي من مسألة قتله أبيه - قد ارتكب حماقة إعانة

أناس هم الخصوم الطبيعيين - داخليًا - للمعسكر العربي الذي يضمه، فقد نظر للمشهد السياسي بسطحية فلخصه في صراع أبيه المتوكل مع القائدين بغا ووصيف، بينما كان الصراع في الحقيقة بين العرب ممثلين في الأسرة العباسية والجند الأتراك ممثلين في القائدين سالفي الذكر.

بل ولا أبالغ لو حمّلت المنتصر جزءًا كبيرًا من المسؤولية عن كل جريمة قتل وقعت بعده بحق خليفة عباسي، وكانت بيد العنصر التركي، فقد فتح بموافقته على قتلهم أبيه بابًا لم يُغلَق من اجتراء هؤلاء القوم على قتل أو حبس أو تعذيب الخليفة، كما سيرد لاحقًا.

وأخيرًا فقد خسر فرصة لكسب أرض في مواجهة أبيه، فقد كان يمكنه أن يبلغه أمر تلك المؤامرة، فإما أن يكسر الجفوة الموجهة ضده وإما - على الأقل - يُظهِر على الملأ صدق إخلاصه للخليفة، ما يجعل هذا الأخير محرجًا من إيذائه والإساءة له.

الخلاصة أن قصة المتوكل والمنتصر تمثل مأساة مثيرة للحنق، لما فيها من تَصَدُّر الحماقة دور البطولة، بأداء منفرد «فظ» من نوعه!

* * *

المستعين. المعتز. المهتدي. المقتدر. المسترشد. الراشد. المستنجد.. بيادق القادة والحُكّام.

ذُبِحَ «المستعين بالله». وعُذِبَ «المعتز بالله» حتى الموت. أما «المهتدي بالله» فقد قُتِلَ بعَصر خصيتيه. بينما قطَّعَت السيوف جسد «المقتدر بالله». واستُئجِرَ قتلة فرقة «الحشاشين» لتمزيق «المسترشد بالله» بطعنات الخناجر. ثم لقي ابنه «الراشد بالله» نفس المصير. ولكن «المستنجد بالله» لقي حتفه بشكل مختلف، فقد أُلقِيَ في الحمام الساخن وأُغلِقَ عليه حتى أنهكته الحرارة وأجهز عليه البخار!

صار خلفاء بني العباس مجرد بيادق على رقعة شطرنج القادة الترك، التي ورثها من بعدهم الحُكّام الانفصاليون، الذين احتفظوا بولاء اسميّ للخلافة بينما قلّدوا أنفسهم ألقاب المُلك والسلطنة.

أما دار الخلافة فقد أصبحت منذ مقتل «المتوكل» ومن بعده «المنتصر» مجرد سجن كبير.. قفص مذهب الخليفة فيه مجرد طائر مطلوب منه أن يغرّد كما يرى مالكه، فإما أن يطيع وإما أن يُذبَح ويؤتى بغيره. صار الداخل إليها مفقودًا حتى يثبت العكس، والخارج منها إلى قبره إثر ميتة هادئة في فراشه ـ للعجب ـ مولودًا!

في ظل هذا الوضع المهين الخانق، وقعت سبع حكايات مأساوية أبطالها الخلفاء الستة سالفو الذِكر.

* * *

- المستعين بالله (٨٦٢م - ٨٦٦م). الخليفة الثائر بالوكالة:

لم تكن له من مؤهلات للخلافة عند صُنّاع الخلفاء، إلا أنهم قد خشوا أن يجعلوا في المنصب أحدًا من أبناء المتوكل أو المنتصر فيحاول البطش بهم انتقامًا للقتيلين. فاجتمعوا وقال قائلهم: «ما لها إلا أحمد بن أستاذنا المعتصم» فأصبح أحمد المذكور هو أمير المؤمنين المستعين بالله بن المعتصم بالله بن الرشيد. ولكن - بطبيعة الحال - لم يكن له من الأمر شيء، بل كانت صلاحيات الخلافة كرة يتلاقفها كل من «بغا» (وهو بغا آخر غير بغا السالف ذكره، فالسابق معروف بـ«بغا الكبير» وخلفه المشابه بالاسم معروف باسم «بغا الصغير») و«وصيف» حتى قيل:

«خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا»

واقتسم كبار التُرك المناصب السيادية، فعُيِنَ ابن الخصيب كاتبًا للخليفة، وأتامش وزيرًا، وشاهك مسؤولاً عن دار الخلافة والحرس الخليفتي.. واحتفظ بغا ووصيف بمكانهما كمستشارين مقربين للخليفة، بشكل رسمي، وحاجرين عليه، بشكل فعلي!

حاول الخليفة في بداية عهده أن يحرر نفسه من رِبقة (قيد) التُرك مستغلاً الصدامات العنيفة التي وقعت بينهم من جانب، وعامة بغداد وسامراء من جانب آخر، نتيجة رفض هؤلاء الأخارى طغيان العنصر التركي. وحسب

أن انقسام الأتراك على أنفسهم إثر تفجر الأوضاع يخدمه، فقام بالتخلص من ابن الخصيب بخلعه ونفيه إلى جزيرة كريت، ثم قتل أتامش، وأعانه بغا ووصيف ـ اللذان أظهرا الانحياز له ـ على قتل باغر.

ولأن من فوائد «الخليفة ـ الدمية» أن يتحمل هو مسؤولية القرارات الخرقاء، فقد حمّل القائدان المستعين مسؤولية قرار قتل «باغر التركي» الذي كان قد قاد عملية اغتيال المتوكل.

واتضح أن المستعين لم يكن بتنكيله بقادة الترك المذكورين يخدم إلا حزب بغا ووصيف، اللذين كانا يريدان التخلص من أي منافس لهما في السيادة على الجند الترك.

وفورًا تبين لهما حماقة هذه الخطوة، قتل باغر، فقد ثار أتباع هذا الأخير وأصبحت حياة الثلاثة ـ الخليفة وبغا ووصيف ـ في خطر طوال بقائهم في سامراء، التي كانت قد أصبحت عاصمة الخلافة منذ زمن المعتصم، ففروا إلى بغداد لتدبير الأمر ضد هؤلاء، حيث استقبلهم حاكمها محمد بن عبد الله بن طاهر، وانضم لحزبهم ضد الثائرين عليهم.

كان رد المتمردين من الترك هو إحضار المعتز بن المتوكل ـ وكان في التاسعة عشرة من عمره ـ ومبايعته بالخلافة، ثم بدا لهم أنهم قد تسرعوا في القرار، فتوجه بعضهم إلى بغداد وأظهروا الاعتذار في حضرة الخليفة، وطلبوا منه الرجوع معهم إلى سامراء وإظهار الرضا عنهم للناس، فلما ماطلهم وأهين بعضهم من والي بغداد، رجعوا إلى قواعدهم وقد صارت الحرب هي الفاصل بين الطرفين.

وتقدمت قوات تُرك سامراء ومعها مقاتلون من المغاربة، تحت شعار خليفة سامراء المعتز، تحاصر بغداد وخليفتها المستعين.

ودارت الحرب سجالاً. ثم بدا أن الظفر سيكون لجيش المعتز، فقرر والي بغداد ابن طاهر أن يتخلى عن المستعين، وجرت المراسلات مع سامراء للاتفاق على الصلح وخلع المستعين بالله ومبايعة المعتز بالله. وتم ذلك بالفعل. ليتوجه المستعين إلى منفاه في البصرة، ثم نُقِلَ إلى مدينة واسط حيث بقي محدد الإقامة لمدة تسعة أشهر.

وأخيرًا أمر المعتز بقتل سلفه المخلوع. فراسل بذلك ضابطًا من الترك هو أحمد بن طولون ـ الذي سيصبح بعد ذلك بسنوات واليًا على مصر ـ فرفض ابن طولون تنفيذ الأمر قائلاً: «أنا لا أقتل أولاد الخلفاء!» فندب أحد حجابه للقيام بالمهمة، فتوجه سعيد الحاجب إلى المستعين، وأنهى بخنجره ٣١ عامًا هي عمره وقتها.

أما بغا ووصيف، فقد عاد الوفاق إلى علاقتهما برفاقهما من الترك، وعقد لهما الخليفة بالبقاء على أعمالهما. لتنتهي القصة بدفع المستعين وحده فاتورة تلك اللعبة التركية، التي كان دوره فيها هو «الثائر بالوكالة» عن مراكز القوى المتصارعة على تصدر موقع السيطرة!

* * *

ـ المعتز بالله (٨٦٦م ـ ٨٦٩م). الخليفة الذي رفضت أمه شراء حياته!

لأن الفوز في شطرنج الحكم سجال، فقد كان من الطبيعي أن تنحدر شمس بغا ووصيف للمغيب، لتظهر مكان اسميهما أسماء جديدة.

جرى ذلك بشكل درامي سريع ـ غير مستغرب للمنغمسين في حياة التآمر والتآمر المضاد ـ فقد لقي وصيف حتفه في حادث شغب من بعض الجند الغاضبين من تأخر نفقاتهم. واغتيل بُغا في العام التالي، بتدبير مشترك

بين الخليفة الشاب وأحد القادة الترك المدعو بابكيال، فقد كان الأول يضيق بتسلطه، والآخر يضيق بتصدره المشهد.

ظهرت وجوه جديدة، فوصيف خلفه ابنه صالح، وبغا الكبير كان قد خلفه ابنه موسى، وهذا سيما الطويل، وذاك بابكيال الذي أقطعه الخليفة مصر، فأرسل إليه أحمد بن طولون واليًا بالوكالة عنه، ليبقى هو في دار الحكم حيث تدار المصائر.

ويبدو أن المعتز كان قد تشجع على فكرة القتل، فقتل أخاه المؤيد بن المتوكل. وقصة هذا الأمر أن بلغت الخليفة شائعات أن الأتراك يريدون خلعه واستخلاف المؤيد، فأرسل إليه وضيق عليه وخلعه من ولاية العهد، وحبسه وعذبه، ثم شفع فيه القادة وأكدوا كذب الشائعة، فبقي في حبسه أيامًا ثم أحضر المعتز القضاة وأراهم جثة أخيه وليس بها أثر للسلاح أو الضرب، ليشهدوا أنه قد مات ميتة طبيعية. ويقال إنه قد لُف حوله بساط حتى اختنق أو وُضِعَ في الثلج حتى تجمد، ليبدو أن ميتته لم تكن بفعل فاعل!

سرعان ما لقي المعتز مصيرًا لا يقل بشاعة!

فقد كانت الحرب السابقة مع سلفه المستعين قد أفرغت الخزائن، فتأخرت نفقات الجند والقادة، وبدأ هؤلاء الأخارى يتحدثون عن خلع الخليفة الذي لا يستطيع أن يدبر لهم المال (وكأنه يملك من الأمر شيئًا!) ويبدو أنهم كانوا يشكون أنه يكتنز مالاً ويدّعي غير ذلك.

فتوجه هؤلاء إلى دار الخلافة وقد قرروا أولاً مساومته، فالخليفة كان قد ضاق بتسلط صالح بن وصيف، ورغب في التخلص منه، فعرضوا عليه أن يعطيهم نفقاتهم مقابل أن يقتلوا ابن وصيف ـ وكانت خدعة منهم كما

سيتضح لاحقًا ـ ففاوضهم المعتز في المبلغ المطلوب، وأخيرًا اتفق الطرفان على أن يقدم الخليفة خمسين ألفًا. فتوجه لأمه «قبيحة» ـ المحظية السابقة للمتوكل ـ وكانت معروفة بالثراء الشديد، وطلب منها المال ليرضي الجند والقادة وينقذ نفسه من أذاهم. فأنكرت أن يكون عندها مثل هذا المبلغ.

هنا أدرك الجند ألا سبيل معه إلا العنف، فاتفق الجنود الترك والفرغانيون والمغاربة على خلعه واستخلاص المال منه. فداهم كل من صالح بن وصيف ومحمد بن بغا وبابكيال بيت الخليفة، وأخرجوه سحلاً وهم يضربونه بعنف ويمزقون ثيابه، ثم أوقفوه في الشمس في ساحة الدار وهم يلطمونه ويصيحون به «اخلع نفسك!»، وبعدها أحضروا القضاة وأشهدوهم على خلعه، حيث كان قد وافق أخيرًا تحت وطأة التعذيب، كما أشهدوهم على إعطاء الأمان له ولأمه وأبنائه.

ولكن هذا الأمان كان لا قيمة له، فقد حُبِسَ المعتز ومُنع الماء عدة أيام، ثم قُدِمَ له ماء مثلج شربه فسقط ميتًا!

أما أمه، فقد حاولت الفرار بثروتها ـ متجاهلة مصير ابنها ـ فقبض عليها رجال صالح بن وصيف، الذي استجوبها حتى اعترفت على مكان ثروتها، فنفاها إلى مكة.

فكم كانت ثروة قبيحة التي بخلت على ابنها بخمسين ألف دينارًا؟

إن ما أعطته لابن وصيف كان مليون وثلاثمئة ألف دينار، ومجوهرات قيمتها مليونان من الدنانير.

ويروى أن الرجل حين رأى ذلك قال بامتعاض: «قبحها الله! عرضت ابنها لأجل خمسين ألف دينار وعندها هذا!»

وهكذا تنتهي مأساة المعتز بالله، لتبدأ تاليتها مع خلفه: المهتدي بالله.

* * *

ـ المهتدي بالله (٨٦٩م ـ ٨٧٠م). قتيل خطأ حساباته:

صادف خروج بعض جلسائه من عنده وقت السحور ـ وكان رمضان ـ فاستبقاه المهتدي ودعا بالطعام، فأتاه بعض الخدم بطبق فيه آنية خل وملح وزيت ورغيف خبز.. نظر الرجل للطبق بدهشة فسأله الخليفة: «ألست عازمًا على الصوم؟»

أجابه: «كيف لا وهو رمضان؟»

ـ «فكُل واستوفِ، فليس ها هنا طعام غير ما ترى»

بدت الدهشة على وجه الرجل. تردد لحظة ثم سأل بحرج: «ولِمَ يا أمير المؤمنين؟ ألم يسبغ الله نعمته عليك؟!»

ابتسم المهتدي مجيبًا: «إن الأمر لعلى ما وصفت، ولكنني فكرت في أنه كان في بني أمية عمر بن عبد العزيز، وكان من التقلل والتقشف على ما بلغك، فغرت على بني هاشم ألا يكون فيهم مثله، فأخذت نفسي بما رأيت»

جدير بالذكر أن مما يُروَى عن الخليفة محمد المهتدي بالله بن الواثق بن المعتصم، أنه كان صائمًا منذ مبايعته بالخلافة بعد خلع المعتز، وحتى قتله بعد ذلك بنحو سنة تقريبًا!

منذ أُخِذَت له البيعة أظهر همة عالية في إزالة الظلم ومنع الفساد. فبنى قبة وجعل لها أربعة أبواب لاستقبال المظالم، وكان يحرص على مراقبة الحسابات والسجلات بنفسه، وكذلك على متابعة الدواوين وما يجري بها. ويبدو أنه كان على شيء من التشدد السلوكي، فقد منع الغناء واللهو تمامًا. ما جعل العامة يستثقلونه كما كان من أمر الخاصة.

ويبدو كذلك أنه قد تمتع بشخصية قوية فاستطاع كبح جماح أصحاب

السلطان عن مظالمهم، وكاد بالفعل يخرج بمنصب الخلافة عن السيطرة التركية، لولا أن جانبت حساباته الصواب في تدبيره ذلك!

فقد تحرك موسى بن بغا من مدينة «الري» ودخل سامراء معلنًا أنه جاء لقتل صالح بن وصيف اقتصاصًا منه لدم المعتز بالله. وكان ابن وصيف مكروهًا من العامة لطغيانه، فأخذوا يتظاهرون في تأييد لابن بغا وهم يهتفون «يا فرعون قد جاءك موسى!»

وعندما بلغ موسى دار الخلافة طلب الإذن بالدخول على الخليفة الذي رفض ذلك ـ لرغبته لزوم الحياد في حرب موسى وصالح ـ فاقتحم موسى ورجاله مجلسه ونهبوا قصره، وطلبوا منه أن يحلف ألا يأخذ صف ابن وصيف، فحلف لهم بذلك، فهنا بايعوه بالخلافة، ويبدو من ذلك أنهم لم يكونوا قد بايعوا.

وسيطر موسى على المدينة وبث رجاله يطاردون صالح ويفتشون عنه، وكان قد اختفى. وحاول المهتدي أن يحث الأطراف على الصلح فأثار شك موسى الذي اتهمه بإخفاء طريدتهم، وهاجموا الخليفة ففاجأهم بأن خرج عليهم متقلدًا سيفه وصاح بهم: «قد بلغني شأنكم! ولست كمن تقدمني مثل المستعين والمعتز! والله ما خرجت لكم إلا وأنا متحنط (أي مرتديًا الكفن تحت الثياب ومدهون الجسد بمواد تطييب جثمان الميت)، وقد أوصيتُ. وهذا سيفي والله لأضربن به ما استمسكت قائمته بيدي! أما دين؟! أما حياء؟! أما رِعة؟! كيف يكون الخلاف على الخلفاء والجرأة على الله؟!» ثم أشاح لهم بيده مردفًا بازدراء: «ما أعلم علم صالح! ليس عندي!»

أرتج على موسى والجند وهم يرون ـ للمرة الأولى ـ خليفة عباسيًا يقف ويرفع سيفه ويلزم الجند الترك حدودهم! فانفضوا وراحوا يستكملون

البحث عن صالح، حتى وجدوه في بعض البيوت فقتلوه وطافوا برأسه في سامراء.

ثم رحل موسى بن بغا عن المدينة ومعه بابكيال في مهمة حربية تتعلق بتأمين الحدود. وهنا ارتكب المهتدي خطأه القاتل.

فيبدو أن الخليفة كان قد اعتقد أن وحدة الترك قد انفصمت بالشقاق الأخير، فأراد توجيه ضربة قوية لهم فراسل بابكيال وأمره أن يقتل ابن بغا ومعه أميرًا تركيًا آخر اسمه مفلح، أو أن يعتقلهما، مقابل أن يصبح هو أميرًا على الأتراك.

ولكن بابكيال لم يوافق الخليفة في تدبيره، فأطلع رفاقه على رسالة المهتدي قائلاً: «إني لست أفرح بهذا! وإنما يُعمَل هذا علينا كلنا!» فاتفقوا على قتل المهتدي.

وتوجهوا له بقواتهم لتدور معركة ضارية، موسى وبابكيال ورفاقهما من جانب، والخليفة ومعه المقاتلون المغاربة والجند المجلوبون من فرغانة (بأوزبكستان حاليًا) وأشروسنة (بتركستان حاليًا).

وحاول بابكيال أن يخدع المهتدي فقدم على سامراء وقد ادّعى أنه على طاعته، وأنه قد نفذ أمره، ففطن الخليفة لخدعته وحبسه، ثم قتله وألقى رأسه خارج الأسوار لقوات موسى بن بغا.

فلم يعد هناك بد من الاشتباك. وقد كان.

وكانت بلغة المؤرخين القدامى «مقتلة عظيمة» تراوحت تقديرات المؤرخين لقتلى الترك فيها بين الألف والأربعة آلاف. وصار الناس - رغم تبرمهم ببعض إجراءاته المتشددة - يدعون بالنصر لمن أراد أن يعيد لهم سيرة الخلفاء الأوائل العظام، ويلقون في المساجد رقاعًا - فيما يشبه المنشورات في العصر

الحديث ـ مكتوب فيها «يا معشر المسلمين، ادعوا الله لخليفتكم العدل الرَّضيّ، المضاهي لعمر بن عبد العزيز أن ينصره الله على عدوه»

ولكن يبدو أن المحاربين الأتراك في جيش الخليفة قد أغضبهم قتل قائد من جنسهم ـ ولو كان من جانب الخصوم ـ على يد عربي، فلم يثبتوا في المعركة، وانحازوا لجيش ابن بغا، وكان الترك في جيش المهتدي يمثلون كل الميمنة والميسرة.

ثم وقعت الكارثة التالية، وانسحب باقي مقاتليه بعد فشلهم في التصدي للضغط التركي على ما تبقى من جيشهم، وبقي الخليفة وحده حاملاً سيفه يصيح بالناس «يا معشر المسلمين! أنا أمير المؤمنين! حاربوا عن خليفتكم!»

فلم يجبه أحد، فبذل محاولة أخيرة يائسة بأن توجه بنفسه للسجن وأطلق المحبوسين فيه وهو يحسبهم يحاربون معه، ففروا ولم يفعلوا!

وسقط المهتدي أسيرًا في يد أعدائه الذين أمروه أن يخلع نفسه، فرفض وأعلن أنه يفضل أن يقتلوه على أن يسلمهم منصبه. فأظهروا ورقة كان قد كتب فيها يومًا أنه لو غدر بهم أو قتلهم أو بطش بهم فلهم خلعه وتعيين من يرونه مناسبًا مكانه، فأعلنوا خلعه بموجبها.

وفي محبسه، دخل عليه بعض الجند منهم، وأرقدوه أرضًا ثم داسوا خصيتيه حتى مات. وأخرجوا جثمانه ليشهدوا الشهود أنه مات في محبسه دون إصابات.

طبعًا كان يمكن لأقل الناس ذكاءً أن يدرك أن ميتة المهتدي لم تكن

طبيعية. ولكن الجميع كانوا يدركون قواعد «اللعبة»، فتم تمرير تلك «المصادفة» بسلاسة شديدة. وعادت العجلة تدور...

بويع المعتمد على الله أحمد بن المتوكل بالخلافة، وتوفي بسلام في العام ٨٩٢م، ثم أعقبه أخوه المعتضد حتى العام ٩٠٢م، وجاء من بعد المعتضد ابنه المكتفي الذي توفي سنة ٩٠٨م ليخلفه أخوه جعفر المقتدر بالله.

* * *

- المقتدر (٩٠٨م - ٩٣٢م).. عهد الكوارث:

ربما لم يشهد عهد خليفة عباسي هذا الكم من الكوارث، لو استثنينا طبعًا عهود من عاصر منهم غزو المغول للمشرق الإسلامي.

بويع المقتدر بالخلافة وهو في الثالثة عشرة من عمره، ويبدو أن الوزير كان قد استصغره فأراد خلعه ومبايعة ابن المعتز بالله، ولكن الأموال أُرسِلَت لهذا الوزير، فرضي وسكت عن الاعتراض!

وكأنما كان هذا الوزير يسير إلى حتفه، فبعد أن تراجع عن موقفه وانحاز للخليفة الطفل، دبر القادة ورجال الدولة خلع المقتدر وتعيين عبد الله بن المعتز، فاقتحموا قصر الخلافة وقتلوا بعض من فيه ومنهم الوزير. وبايعوا خليفتهم الجديد الذي أرسل للمقتدر يأمره بالرحيل عن دار الخلافة، ولكن هذا الأخير أصر على التصدي لتلك المحاولة، وبالفعل استطاع أن يهزم المتآمرين ضده، وأن يأسرهم ويقتلهم ويحبس ابن المعتز الذي ظهر بعدها ميتًا.

واستوزر الخليفة علي بن الفرات، وفوضه بالحكم عوضًا عنه، وانشغل هو باللهو والإنفاق بسفه شديد، ولم يتغير الأمر بخلع ابن الفرات وتعيين علي بن عيسى مكانه، رغم شدة انضباط هذا الأخير.

وابتذل المقتدر منصبه حتى إن الحل والربط قد صار لحريم القصر،

إلى حد أن أمه قد أمرت إحدى نساء الخدمة - واسمها «ثمل» - أن تجلس للقضاء ونظر المظالم، وصارت الأوامر تخرج وعليها توقيعها!

إضافة لذلك فقد انهالت الكوارث على الدولة.

فقد سيطر الفاطميون على المغرب العربي، وأسقطوا الدعاء للخليفة العباسي به، وبدأت غاراتهم تصل إلى مصر وتتوغل فيها وصولاً للإسكندرية والفيوم، بل وحتى الصعيد لم يسلم منها!

ووقع غلاء شديد ببغداد بلغ حد غرق الشوارع في الشغب والسلب والنهب، وفُتحت السجون عنوة.

ودخل الروم مدينتي ملطية وسميساط بالأناضول، واستولوا على ما بهما وجعلوا مسجد سميساط كنيسة.

وأغارت قبائل الديلم على المناطق الجبلية بفارس، فقتلت من أهاليها وروعتهم.

وشهدت بغداد فتنة ثانية، تمثلت في تحول نقاش بين الحنابلة وبعض مناظريهم إلى معركة ضارية سقط فيها الضحايا!

ثم وقعت كارثة لم تشهدها الديار الإسلامية من قبل، وهي هجوم القرامطة على الحرم المكي وقيامهم بمذبحة مروعة فيه، ثم خلعهم الحجر الأسود وحمله معهم! وهاجم بعضهم الكوفة في العام التالي وهددوا بغداد.

كل هذا والخليفة غارق في لهوه وبعثرته الدنانير هنا وهناك. لم يعكر صفوه سوى محاولة القائد التركي مؤنس الخادم خلعه وتعيين أخيه «القاهر» لاعتقاد الأول أن المقتدر ينوي عزله من منصبه. ثم اضطر مؤنس لرد الخليفة لمنصبه، بسبب شغب الجند طلبًا للنفقة.

وساد هدوء نسبي، حتى أدى التهاء المقتدر عمّا يجري في دهاليز الحكم إلى توريطه من قِبَل بعض المتنافسين على السلطة، في مؤامرة ضد مؤنس الخادم

لخلعه ومصادرة أملاكه، وبلغ تورط الخليفة حد خروجه على رأس جيش لمحاربة جند مؤنس، ومناداته أن من أتى برأس قتيل فله خمسة دنانير، ومن أتى بأسير فله عشرة.

وانهزم جيش المقتدر بالله، وحاول الفرار، لكنه كان ثقيل الجسم، فوقع في يد بعض المقاتلين المغاربة الذين عبثوا في جسده بالسيوف وهم يصيحون به «يا خليفة إبليس»، حتى قتلوه، ثم مثلوا بجثته وجزوا رأسه وحملوه إلى مؤنس الذي أظهر الغضب لما فعلوا، مؤكدًا أنه لم يكن يريد أن يقتل أمير المؤمنين، وآمرًا القتلة أن يدّعوا أنهم إنما قتلوه خطأً ولم يعرفوه.

بهذا الشكل العبثي، انتهت الحياة العبثية لخليفة العهد صاحب الرصيد الأكبر من المصائب والبلايا!

❊ ❊ ❊

ـ المسترشد بالله (١١١٨م ـ ١١٣٥م).. الراشد بالله (١١٣٥م ـ ١١٣٦م).. ضحيتا فرقة الحشاشين:

أكثر من قرن من الزمان، تغيرت فيها أشياء كثيرة.

ظهرت «الدول داخل الدولة»، فبعد أن كانت دولة بني العباس موحدة، صارت ممزقة إلى دول عدة لا يربطها بالخلافة سوى الدعاء للخليفة في الخطبة، وربما كتابة اسمه على العملة، أما فيما عدا ذلك فالخليفة نفسه لا يملك ما وراء بابه، إن ملك ما خلفه أصلاً.

الطولونيون ثم الإخشيديون في مصر، السلاجقة الأتراك في فارس والعراق والشام، الحمدانيون العرب في حلب وجنوب الأناضول، الدوستكيون الأكراد في ديار بكر وميافارقين (جنوب تركيا حاليًا). هذا غير الدول التي قامت داخل دار الخلافة نفسه ـ والتي كانت قد انتقلت إلى بغداد ـ من خلال

تعيين بعض القادة أنفسهم حكامًا مفوضين عن الخليفة، وإنعامهم على أنفسهم بألقاب مثل «أمير الأمراء» أو «الملك» وتأسيسهم سلالات حاكمة.

إضافة لذلك فقد ابتُلِيَ المشرق العربي الإسلامي بغزو الفرنجة له وتأسيسهم ثلاث إمارات فرنجية هي «طرابلس» في لبنان، «أنطاكية» و«الرها» في الأناضول، ومملكة «بيت المقدس» في القدس بفلسطين، في ما يُعرَف باسم «الحملات الصليبية»

وظهرت في إيران والشام فرقة «الحشاشين» التي احترفت اغتيال معارضيها، وكل من يرى قادتها أنه يقف في وجه طموحاتها.

تغير العالم كثيرًا في هذه العقود. ..

ما لم يتغير هو وضع الخلفاء كمجرد دُمى أو بيادق أو أوراق لعب، يستخدمها هذا المتسلط بالسلاح والرجال أو ذاك، لما يخدم ضرب خصومه أو توطيد سلطانه.

فقط أضيف أن أصبح من «الخيارات القائمة» لمقتل هذا الخليفة أو ذاك، أن يجد نفسه عالقًا في صراع بين ملكين أو أكثر، فيضطر لاتخاذ تدبير يكون فيه حتفه، وهو ما كان مع كل من المسترشد بالله وابنه الراشد بالله.

ففي الوقت الذي بويع فيه المسترشد أميرًا للمؤمنين، كان الأتراك السلاجقة قد فرضوا سطوتهم على الخلافة العباسية، إلى حد قيامهم بتعيين موظف يُدعَى «الشحنة» ببغداد، والشحنة هو بمثابة قائد الحامية، وفرضهم ذكر أسماء سلاطينهم بعد اسم الخليفة في دعاء خطبة الجمعة.

ورغم انقسام البيت السلجوقي ـ آنذاك ـ إلى دولتين، واحدة في العراق والأخرى في فارس وخراسان، فإن الخلافة في بغداد لم تُرحَم من وطأة هؤلاء القوم.

فالمسترشد كان قد وجد نفسه في منتصف حرب بين كلا من داوود ـ وريث عرش سلاجقة العراق ـ وعمه مسعود، ثم اصطلحا، وكان الخليفة وقتها يعاني توغل قوات السلاجقة في بلاده، وما يترتب على ذلك من غلاء الأسعار وتذمر العامة. فقرر وضع حد لهذا وجمع الجند في حملة لردع السلطان مسعود عن عدوانه على محيط عاصمة الخلافة. ولكنه هُزِمَ ووقع في أسر السلطان السلجوقي بنواحي إقليم أذربيجان. ولكن هذا الأخير أكرمه وعامله بتوقير لمكانه، وبدأ يتفاوض معه حول الصلح بينهما مطالبًا الخليفة بتقديم مبلغ دوري للسلطان.

ولأن المسترشد كان محبوبًا لتقواه وعدله ورفقه بالناس، فقد قامت قيامة أهل بغداد فخرجوا إلى الشوارع يقيمون النواح وينثرون التراب على رؤوسهم، وأوقفوا حركة البيع وحتى الصلوات.

ويبدو أن ذلك قد تصادف مع وقوع بعض الزلازل والكوارث الطبيعية بالعراق وفارس. فأرسل السلطان سنجر ـ سلطان سلاجقة فارس وعميد البيت السلجوقي ـ إلى ابن أخيه مسعود رسالة عنيفة اللهجة خاطبه فيها بـ«الولد»، وأمره أن يسجد بين يدي أمير المؤمنين ويقبل الأرض بين يديه ويسأله الصفح ثم يعيده مكرمًا إلى دار خلافته. وربط بين فعلة مسعود وتلك الزلازل والصواعق التي اجتاحت البلاد. وخوفه من أن ينزل الله العذاب عليهم لاجترائهم على مقام الخلافة.

أظهر السلطان مسعود الخضوع لأمر عمه، والاستعداد لتنفيذه. ولكن...

في ليلة، تسلل للمعسكر سبعة عشر رجلاً من «الحشاشين»، وداهموا الخليفة في خيمته بخناجرهم فمزقوه، ومثلوا به، ولم يدركه الحرس الذين جلبهم حِس الجريمة إلا وقد لقي حتفه، فقتلوا القتلة عن آخرهم.

وبلغ الخبر بغداد فخرج أهلها حفاة يحثون التراب، وخرجت النساء ناشرات شعورهن يلطمن ويقمن للنواح. وقعد الناس للعزاء ثلاثة أيام.

وأشارت أصابع الاتهام إلى مسعود، بأنه قد دبر مع المجرمين جريمتهم وسهل لهم الدخول لمعسكره، وبهذا يكون قد تخلص من الخليفة الذي كان قد أظهر همة في أمر تحرره من رِبقة السلاجقة، وفي نفس الوقت قد برأ نفسه من دمه.

ولكن لم يستطع أحد إثبات تورط السلطان في ذلك، فكل ما كان متوافرًا هو مجرد «قرائن» بحكم كونه المستفيد الوحيد من مقتل المسترشد بالله.

لم يختلف مصير الراشد بالله عن مصير أبيه، وإن اختلفت طبيعتهما، فبينما كان المسترشد عاقلاً عادلاً منضبطًا، كان ابنه شديد الرعونة والاندفاع، ولعل هذا ما جعله يلاقي حتفه بعد أقل من سنة من مبايعته أميرًا للمؤمنين.

بدأ الأمر بإرسال مسعود للراشد، يطلب منه الوفاء بمبالغ من المال كان أبوه قد تعهد بسدادها له، خلال مفاوضاتهما قبل اغتياله، فرد الراشد بأن خزائنه لا تفي بالمطلوب، وبالطبع ترتب على ذلك توتر العلاقات بين الطرفين وتربص كل منهما بالآخر.

لم يمض كثير من الوقت، حتى وفد على بغداد مجموعة من الأمراء والزعماء الخارجين على مسعود، وقد أجمعوا أمرهم مع الخليفة أن يتحالفوا على حربه، وبالفعل تم قطع ذكر اسم السلطان مسعود من الخطبة، وصار الدعاء بدلاً منه لابن أخيه الملك داوود، الذي كان مسعود قد حاربه من قبل.

لم يتردد مسعود في حشد قواته ومحاصرة بغداد لردع هؤلاء المتمردين عليه، ولكنه بقي خمسين يومًا أو أكثر يحاول اقتحامها دون جدوى، فاضطر للانسحاب.

وارتكب الحلفاء خطأً فادحًا، فقد تفرقوا من بغداد إلى بلادهم دون تأمين عاصمة الخلافة، ولم يبق منهم مع الراشد بالله سوى الأتابك عماد

الدين زنكي، حاكم الموصل الذي اصطحب الخليفة وقلة من رجاله إليها. وفور علم مسعود بخروجهما من بغداد للموصل، توجه بقواته ودخل بغداد، ثم جمع الفقهاء والقضاة، وأطلعهم على عهد من الراشد يقر فيه بأنه متى خرج على السلطان أو رفع عليه السيف فإنه يُخلَع من الخلافة، فأفتى الفقهاء بخلعه، وبويع عمه عوضًا عنه.

وعلم الراشد بأمر خلعه، فاتفق مع الملك داوود وباقي حلفائه على محاربة مسعود واسترداد كرسي الخلافة، وبالفعل توجهوا لقتاله إلا أنه استطاع هزيمتهم شر هزيمة، وتفرق الملوك عن الراشد الذي قادته رعونته لتوظيف القلة الباقية من جنوده لمهاجمة مدينتي مراغة وهمدان، بأرض فارس، حيث روعوا الناس ومارسوا السلب والنهب والقتل، بل وحلقوا لحى العلماء وأهانوهم، كما يليق بعصابة من المنسر لا بخليفة وجنده! وأخيرًا توجه الراشد لمحاصرة أصفهان ونهب قراها.

وبينما هو يستريح من «كفاحه» في خيمته، داهمه بعض المتسللين وقتلوه بخناجرهم، على نفس طريقة اغتيال أبيه، ليُدفَن قرب أصفهان.

والمُرَجَّح أن من نفذوا الاغتيال هم قتلة «الحشاشين» ـ لتطابق نمط القتل ومستوى السرعة والكفاءة مع ما هو معروف عنهم ـ ولكن اختُلِفَ فيما إذا كانوا قد قتلوه من تلقاء أنفسهم ـ ربما لدخوله بعض ما يعتبرونه مناطق نفوذهم ـ أو أن للسلطان مسعود يد في ذلك. وكالعادة لم يوجد من طرف خيط يقود لاتهام مسعود إلا قرينة «المصلحة».

بمقتل كل من المسترشد بالله والراشد بالله، يمكن أن نقول إن المقاومة العباسية للحجر على منصب الخلافة قد انتهت، إلا من محاولة أخيرة بائسة. كان بطلها الخليفة المستنجد بالله.

* * *

ـ المستنجد بالله (١١٦٠م ـ ١١٧٠م).. الشاعر المجهول صاحب الشِعر الشهير:

كثيرًا ما يمر علينا من الشعر القول:

«عَيَّرَتني بالشَيبِ وهو وقارُ ... لَيتَها عيرت بما هو عار
إن تكن شابت الذوائب مني ... فالليالي تزينها الأقمار»

وغالبًا ما يقال عن مؤلف هذا الشعر «غير معروف» أو «مجهول». لكنه في حقيقة الأمر من شِعر الخليفة العباسي أبو المظفر يوسف المستنجد بالله.

من الغريب أن رجلاً مثله لم يحصل على القدر الكافي من الشهرة، فقد تولى الخلافة لمدة ١١ سنة اشتهر فيها بالعدل والرفق بالرعية، فأبطل المظالم، وبقي يرفع المكوس حتى أزالها من أرض العراق، واشتد على أهل الشر والفساد حتى إنه حبس رجلاً كان معروفًا بالوشاية بالناس والسعي في الوقيعة فيهم، فتوسط صديق له وعرض على الخليفة رشوة عشرة آلاف دينار لإطلاقه، فقال له الخليفة: «أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ودلني على رجل مثله أحبسه وأكفي الناس شره»!

وإن كان غريبًا أن يجهل الكثيرون هذا الرجل، فإن الأغرب هو أن يُبقي صناع الخلفاء على رجل مثله كل تلك الفترة التي حمل فيها لقب أمير المؤمنين. ولكن الأرجح أن إجراءاته لم تكن تمس مصالح أصحاب الشأن فتركوه وشأنه، حتى تصادمت المقاصد فكان سعيهم في قتله.

كان أبو جعفر البلدي ـ وزير الخليفة ـ مكروهًا من الأمير عضد الدين الأستاذ دار (الأستاذ دار أو الأستادار هو القائم على كل ما يتعلق بدار الحاكم) والذي كان في هذا الوقت هو المتسلط على شؤون الحكم، يشاركه

في ذلك الأمير قطب الدين قايماز أكبر أمراء بغداد.

وكان الخليفة قد ضاق بتسلُّط هذين الأميرين عليه، لهذا فقد قام في أثناء مرضه الأخير بكتابة أمر للوزير بأن يقبض عليهما ويصلبهما، وكلف طبيبه الخاص، المدعو ابن صفية، بتوصيل تلك الرسالة، فخانه هذا الأخير وسلمها للأميرين اللذين قررا التخلص منه، وقد أدخلا في اتفاقهما اثنين من قادة الجند هما يزدن وتنامش.

دُبِرَ الأمر مع الطبيب، فقد بدأ ينصح بما يضر الخليفة في مرضه لتسوء حالته، ثم أخيرًا أمر أن يدخل المستنجد إلى الحمام وهو ساخن ـ وكان في هذا خطورة عليه لتردي حالته ـ ثم دخل عليه يزدن وقايماز ليحملاه ويلقياه في الحمام، وأوصدا الباب عليه وهو يصرخ ويستغيث وقد أدرك ما يراد به. وبقي في صراخ ونداء حتى مات. فجاء المتآمرون بابنه وبايعوه على أن يعين عضد الدين وزيرًا له، ويجعل ابنه أستاذ دار محله، ويقر قايماز في إمرة العسكر.

ثم استُدرِج الوزير أبو جعفر لمقر الخلافة، بحجة مبايعة الخليفة الجديد، الملقب بالمستضيء بالله، وقُبِضَ عليه ثم عُذِبَ بقطع أنفه ويديه ورجليه، وقُتِلَ بعدها بدق عنقه.

هكذا بمزيج من السرعة والقسوة والبساطة المخيفة، تم إنهاء كل من عهد المستنجد بالله وحياته في آن واحد.

وإن كان في ما يلي عزاء لمن تستفز هذه الجريمة غضبه، فإن الدائرة قد دارت على القتلة، فقد تربص المستضيء بقتلة أبيه حتى واتته الفرصة، فأعدم الطبيب الخائن بأن أجبره على تجرع السم، وطرد قطب الدين قايماز الذي فر ومرض ومات في طريقه لمهربه، ونُهِبَت دار تنامش وخُلِعَ ونُبِذَ عن السلطة

وافتقر، أما عضد الدين فإنه في أثناء سفره للحج باغته بعض قتلة الحشاشين واغتالوه.

* * *

كانت مرحلة «الخلفاء/ البيادق» بمثابة مبتدأ خبره هو ما كان من اضمحلال أمر الخلافة العباسية، إلى حد توقف القادة والملوك التابعين لها اسميًا عن محاولة وضع هذا الخليفة أو ذاك على كرسي الحكم، فبغداد لم تعد مصنع الأحداث، ولم تبق للخليفة وقراراته من قيمة، إلا تلك الروحية عند أولئك الذين لم يزالوا يحتفظون بالاعتزاز العاطفي بأصحاب هذا المنصب.

لهذا فإن النهاية المأساوية للخلافة العباسية في بغداد، والتي راح ضحيتها المستعصم بالله ـ آخر خلفاء بني العباس بالعراق ـ كانت نتيجة طبيعية لكل ما سلف سرده.

* * *

شبّاك جانبي مُطِل على ثلاثة مَشاهد فاطمية دامية

في العام ٩١٠م قامت الخلافة الفاطمية في شمالي إفريقيا، على يد عبيد الله المهدي، الذي قدّم نفسه كأحد أحفاد إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وهو النسب الذي يُصِر أغلب مؤرخي العصر الإسلامي ـ عدا ابن خلدون ـ على نفيه.

وفي العام ٩٧٣م تمكن الفاطميون، بعد عدة محاولات فاشلة، من غزو مصر وفرض السيطرة عليها، ليؤسسوا بها عاصمتهم «القاهرة» ويجعلوها حاضرة دولتهم ومركز دعوتهم. وليصبحوا مصدر خطر وإزعاج للخلافة العباسية، من خلال مجاورتهم أملاكها.

اعتنق الفاطميون المذهب الشيعي الإسماعيلي، وكان هذا ـ إضافة للتنافس على فرض السيطرة على بلاد الشام ـ أحد العوامل الرئيسية في الصراع الدامي بينهم وبين العباسيين، والذي استمر لأكثر من قرنين من الزمان.

* * *

- أبو عليّ منصور الحاكم بأمر الله (٩٩٦م - ١٠٢١م). إمام الرعب:

أن يكون المرء قادرًا على إثارة الخوف أحيانًا، فهذا مما يمكن التعايش معه ببعض الحذر والحيطة.

لكن أن يكون مثيرًا للرعب بطبيعته المجردة، أن يبث مجرد حضوره بالجسم أو حتى ذكر الاسم قشعريرة باردة في البدن، أن تعرف أنه يباغت بالظهور من حيث لا يُتوَقّع، يبطش لما لا يُحتاط منه، ولا يعرف إنسان - ارتفع شأنه أو اتضع - فك طلاسم استحضار رضاه وصَرف نقمته.

أن يكون اسمه أول ما يحضر للذهن إذا ذُكِرَت مفردات مثل «الجنون، الشر، الموت، الخوف».

وأن يكون هذا الذي نتحدث عنه هو صاحب عرش مصر، وعزيزها المتحكم في مقاليد البلاد ومصائر العباد، فهذا كأننا نقول إن أرض مصر قد أُقطِعَت للشيطان نفسه، يعيث فيها كيف يشاء، أو عن قطعة من الجحيم عُجِلَت لبني الإنسان.

أو عن الحاكم بأمر الله الفاطمي!

❊ ❊ ❊

ليس هذا مجال الحديث عن «طرائف» عهد الحاكم، على غرار ما يُنسَب إليه من مَنع أكل الملوخية والجرجير وحظر صيد السمك الذي لا قشر له، وإلزام الناس السهر ليلاً بدلاً من ممارستهم المعيشة نهارًا. ولا ما اشتهر به من طوافه بالأسواق لضبط من يغشون الطعام، فإذا وجد منهم أحدًا أمر عبدًا له اسمه مسعود أن يفعل به «الفاحشة العُظمى» على مشهد من الناس!

فإن كانت تلك المأثورات عنه توَظَف أحيانًا للضحك والتفكُه لأهل

عصرنا، فإنها لم تكن مضحكة على الإطلاق بالنسبة لمن عاصروا الحاكم.

فبالنسبة لهم كان هو الرجل الذي افتتح إمساكه بزمام السلطة بتدبيره قتل معلمه ومربيه سلافي الأصل «برجوان»، الذي كان قد تسلط عليه استصغارًا له، ودأب على السخرية منه بتلقيبه بـ«السحلية» لما اشتهر عن الخليفة الصبي من أنه لا يتحرك إلا تسللاً كالزواحف، ودبر كذلك ذبح «ابن عمار» شيخ قبيلة كتامة المحاربة، التي كانت خير معين بالسلاح والرجال لآباء الحاكم وأجداده، ثم تنافست مع العبيد المشارقة في فرض وصايتها على الخليفة، فحلت عليها نقمته.

هذا وقد كان وقتها لم يجاوز السادسة عشر من عمره، وإن كان البعض يُعجَب للوهلة الأولى بقدرته على التحرر من الوصاية وفرض نفسه على كرسي الحكم وهو بعد شاب، فإن هذا أيضًا ما يثير الخوف منه لبساطة تنفيذه أول عمليتي قتل في حياته، بحق أقرب اثنين له منذ طفولته. فالأخطر من القاتل العادي، ذلك الذي يتعامل مع القتل ببساطة وتلقائية كأنه نشاط طبيعي اعتيادي. خاصة أن قتله كلاً من برجوان وابن عمار قد تم بطريقة «الاستدراج والاغتيال»، فاستُدعِيَ الأول للقاء الخليفة، وكمن له في بستان القصر من قتلوه غيلة ومزقوا جسده ودفنوه في نفس موضع مقتله، ودس في طريق ابن عمار من باغته بالسيف فأورده حتفه، ليثير رعب قبيلة كتامة التي سارعت بتقديم فروض الطاعة والولاء.

ويبدو أنه قد أحب هذا الحل الجذري لمشكلاته مع رجال الحكم، كبيرة كانت أو تافهة، فازدحمت قائمة ضحاياه منهم بالأسماء، فقد قتل مؤدبه أبا تميم الفارقي بتهمة التدخل في شؤون الدولة بقراءة الرسائل الرسمية، ثم قتل ابن أبي نجدة المحتسب بحجة أنه يسيء معاملة الناس، وأعقبهما بقتله الحسن بن عسلوج ـ من كبار مباشري الأمور المالية ـ وأحرق جثته لغضبه عليه لبعض شؤون عمله، ثم قتل فهد بن إبراهيم ـ أحد كتبته وكان مسيحيًا ـ لرفضه اعتناق الإسلام، وعيّن مكانه علي العداس ثم غضب عليه فقتله،

وطال القتل كذلك كلاً من أبي طاهر بن النحوي متولي أعمال الشام، وأبي الفضل حامل مظلة الخليفة، والحسين بن القائد جوهر الصقلي، وغيرهم، حتى بلغ من قتلهم من رجال الدولة والعامة والأعيان خلال شهر أكتوبر ١٠٠٤م نحو مئة إنسان!

وحاول البعض حصر مجموع قتلى عهده فكانوا ١٨٠٠٠ نفس.

بهذا الاجتراء على سفك الدم، وعدم التمييز في ذلك بين خاصة أو عامة، صار ذلك الشاب ضخم البنية قاسي الملامح ذو العينين الذي يثير امتزاج سوادهما بزرقة حالكة خوف من تتسلطان عليه، تجسدًا بشريًا للرعب في بر مصر. فقيل عنه «وأقام له من الهيبة في نفوس الكافة لشدة سطوته وتسرعه إلى سفك الدماء، وأنه لا يُبقي على من صغر ذنبه أو قل، فضلاً عمن عظم جرمه أو جلّ» وقالوا أيضًا «وبذل سيفه في إراقة الدماء في سائر الناس على طبقاتهم»، و«بذل سيفه في مقدمي أهل المملكة ومتحيزها، من الكتاب والقواد والجند والرعايا، وقطع أيديهم وأفرط في ذلك، فاختلت بلاده وفني رؤساؤه ورجاله»

وفي نفس الوقت الذي كان يرتكب فيه تلك الفظائع، كان يُظهِر التنسُك والتقشف ويراه الناس في طرقاتهم، وقد ارتدى ثوبًا خشنًا وامتطى حمارًا وراح يمر بالأزقة وينظر الدكاكين، يتفقد بنفسه أحوال الرعية!

وهو كذلك المتأله الذي أعاد سيرة فرعون حين قال «أنا ربكم الأعلى»، ففي العام ١٠١٧م ابتكر له بعض الدعاة الوافدين من بلاد فارس صفة إلهية، بقولهم بحلول روح الله فيه، فكان الرجل يلقاه فيناديه بـ«يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد» تملقًا له. فاندلعت ثورة شعبية ضده قُتِل فيها أحد دعاة ألوهيته، وفر الآخر إلى الشام.

وفي العام ١٠١٩م ـ قبل مقتله بعامين ـ عندما سخر منه أهل الفسطاط (حيث كان يعيش العامة لأن القاهرة آنذاك كانت مدينة ملكية) بوضعهم

في طريق طوافه اليومي بالمدينة، نموذجًا بالحجم الطبيعي لامرأة تحمل ورقة بها أبيات تنال منه، أطلق فيهم عبيده السود يداهمونهم بالسلب والنهب والقتل وسبي النساء، ويضعون النار في دورهم وشوارعهم، حتى تدخل الجند الترك لإنقاذ الأهالي المنكوبين.

وهو في أثناء ذلك ينظر من فوق سطح قصره للفسطاط المحترقة، ويبكي متصعبًا عليها ومتسائلاً عمّن أمر هؤلاء «المجرمين» بارتكاب تلك المذبحة بحق الرعية!

وانضم دعاة المذهب الشيعي الإسماعيلي إلى الجبهة المضادة له، فقد أنكروا تأليهه نفسه، وأنكروا عليه مخالفة مذهبه بتخليه عن مكانة «الإمامة» ـ وهي من أساسيات مذهبهم ـ لصالح تصنيف «أمير المؤمنين»، كما عابوا عليه خلعه ولده من ولاية العهد وتعيينه ابن عمه عوضًا عنه، لما في ذلك من مخالفة لطبيعة الإمامة في المذهب، من انتقالها من الأب لابنه الأكبر.

كذلك فقبيلة كتامة قد صارت متوجسة من غدره، فقد افتتح عهده بقتل سيدها، ورغم كتابته الأمان لها فإن الجميع يعرف قيمة أمان الحاكم.

وحتى أخته «ست المُلك» انقلبت عليه، بعد أن قام في واحدة من نوبات جنونه بقذف عرضها، غضبًا من محاولاتها التدخل في شؤون الحكم لإنقاذ الدولة من سياساته الكارثية.

هكذا بدا واضحًا أن الخليفة الشاب ينحدر بإصرار إلى نهايته، حتى إن المرء قد يحسبه قاصدًا أن يدمر ذاته.

* * *

في مساء ١٣ فبراير ١٠٢١م، خرج الحاكم مع واحد ـ وفي رواية أخرى اثنين ـ من عبيده إلى جبل المقطم، لاستطلاع بعض النجوم التي كان مولعًا بالنظر فيها. حاولت أمه إثناءه عن ذلك خوفًا عليه من نبوءة تقول بمقتله

في هذه الأيام. لكن من يقدر على مراجعة الخليفة؟

هكذا خرج الحاكم من قصره، ولم يرجع إليه أبدا.

استمر البحث عنه لمدة خمسة أيام، حتى وُجِدَت ثيابه وعليها آثار الطعنات والدماء، وحماره وقد قُطِعَت قوائمه، لكن أحدًا لم يعثر على أثر لجثته. أما مرافقوه فقيل إنهم اختفوا مثله، وقيل إن أشلاءهم قد وُجِدَت بعدها.

المؤكد أنه قُتِل، ولكن من قتله قد أخذ جثمانه، وترك بدلاً منه أربع قصص لنهايته.

* * *

(١)

اقتربت من الجسد المسجى أمامها مضرجًا بالدماء، ومالت تتأمل ملامح صاحبه. لمح أحد العبدين الماثلين أمامها في وجهها الخمسيني مسحة كآبة، ولحظ بطرف عينه المنخفضة تأدبًا في حضرتها رجفة اعترت جفنها الأيسر.

ـ «الحمار؟»

= «أغرقناه» أجابها أحدهما

ـ «والغلام الذي كان معه؟»

= «دُفِنَ حيث قُتِلَ»

استجمعت «ست المُلك» ـ الأخت الكبرى للحاكم بأمر الله نفسها وهي تأمر عبديها بحمل الجثة ودفنها بعيدًا.

توجهت إلى مخدعها وقد ضربت عقلها عاصفة من الأفكار.

«لم يكن لدي من سبيل إلا ما كان! لم يحفظ لي رعايتي له ووقوفي إلى جانبه صغيرًا، فصار يتهددني ويتعمد الإنقاص من قدري. وأخيرًا يطعنني

في شرفي ويتهمني بالحمل سفاحًا! أنا! سليلة الخلفاء يقال لي إنني قد أسلمت جسدي للزنا وإن بطني يحمل ثمرة ذلك وقد جاوزت الخمسين من عمري!»

دلفت إلى المخدع صارفة جواريها. ألقت نفسها إلى مقعدها وأغلقت عينيها بقوة. أخذت تفكر. لا بد من التخلص من الحسين بن دواس سيد كتامة، شريكها في التدبير على الخليفة الملتاث الذي كان ابن دواس لا يأمن جانبه، وينتظر في أي وقت أن يهوي سيف نقمته على عنقه. قد أدى الكتامي ما عليه. لكن في بقائه تهديدًا لها إن تفوه بحرف عما دبرا. لا بد كذلك من التخلص من العبدين.

الأمر هين. فقط عليها الانتظار حتى يستيئس الملأ من العثور على خليفتهم ويقروا بموته، فتؤخذ البيعة لابنه كما يجب أن يكون.

(٢)

ـ «تقول إذن إنك أنت من قتل أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله»

= «بلى. كان هذا منذ أربع سنوات، كمنا له أنا وثلاثة من أصحابي وهو في طريقه لمرصده بالمقطم، فلما انقطع عن العمران باغتناه ومن معه، ثم دفناهم وتفرقنا في البلاد».

تبادل الوزير النظرات مع صاحب الشرطة، ثم عاد يولي الأعرابي الماثل أمامه وجهه سائلاً إياه: «ولِمَ قتلتموه؟ هل كان لكم من ثأر أو مظلمة عنده؟»

= «بل قتلناه غيرةً للإسلام والمسلمين، من كفره وزندقته وسفكه الدماء» قالها كأنما يبصقها في وجه محدثه.

مط الوزير شفتيه مفكرًا، بينما تقدم صاحب الشرطة من حبيسه، وقال «صِف لي قتلك إياه»

= «بعضنا أمسكه، وأنا ضربته بالسكين في صدره»

- «كيف؟»

بقي الرجل صامتًا، ثم لم يدر أحد متى ولا كيف استل سكينًا أجاد إخفاءه عن قابضيه.

= «هكذا»

قالها ثم دفن النصل الحاد في صدره قاتلاً نفسه، ليدفن مع النصل سرًا كُتِبَ له أن يعمر قرونًا تالية.

* * *

(٣)

لم يترك الرجل شبرًا في بيت ابن دواس إلا وقد فتشه. وقف في قلب المكان يتأمل الدار المقلوب ما بها رأسًا على عقب. كتم أنفاسه وأرهف السمع يتيقن أن رجاله قد استطاعوا كبح من بالبيت عن إصدار أي صوت ينبئ من بالخارج عن عملية التفتيش الدقيقة التي أرسلتهم «ست المُلك» للقيام بها.

«فتش عن أي شيء يمكن أن يدل على أن له يدًا في الأمر، فلا أرى غيره قد فعلها! قد كان يستوحش من الخليفة ويجتنب المثول بين يديه، ويختلق الأعذار كيلا يحضر إلى مجلسه، حتى أُعطِيَ الأمان فصار يجيء ويذهب كيف يشاء. والآن قد لزم بيته على غير العادة فأثار ريبتي! سأختلق سببًا لآتي به إلى القصر، بينما تذهب ورجالك إلى بيته ولا تتركوا فيه ثغرة إلا وقد فتشتم فيها»

قالتها صادقة وقد هدها الغضب لأخيها، فإن كان قد تطاول عليها فإنه يبقى عندها كبعض ولدها.

لمح على بعض المناضد صندوقًا صغيرًا حتى إنه لم يفكر في النظر داخله، تقدم وفتحه ليعرف بداخله سكينًا رآها أكثر من مرة بيد الخليفة. حمل السكين وأشار لرجاله أن هلموا فقد وجدنا ما نبغي.

سيحمل الخنجر إلى ست المُلك التي ستواجه به الحسين بن دواس، وتسأله

كيف بلغ وصل إلى بيته. سيحاول الرجل تقديم مبررات واهية لكنها لن تقنع السيوف التي ستهوي عليه، بأمر الأخت المكلومة للخليفة القتيل.

(٤)

في بعض دروب المقطم فوجئ بهؤلاء السبعة يقطعون عليه الطريق. لم يغضب من وقاحتهم قدر دهشته من تلك الجرأة التي لم يعهدها من إنسان قط؛ وهو الخليفة الرهيب الذي يكفي أن يصوب نظراته لإنسان ليختل ارتباط أوصاله.

ـ «ما شأنكم؟!»

= «قوم من الأعراب. جئنا أمير المؤمنين نلتمس كرمه»

قالها من يبدو عليه أنه كبيرهم دون أن يتكلف عناء الترجل عن دابته. هم الحاكم أن يزجره لسوء أدبه لولا خشيته أن يظنوا به خوفًا منهم. اصطنع لامبالاة بجلافتهم وأشار لعبده ـ مرافقه الوحيد ـ أن يتوجه ببعضهم لبيت المال فيجزل له العطاء. انطلق الفتى لتنفيذ الأمر مصطحبًا أربعة منهم بينما بقي الثلاثة الآخرون في رفقة الخليفة.

بقي الحاكم على صمته متشاغلاً بالنظر إلى السماء، مرتقبًا طلوع النجم المنتَظَر. ترجل الأعراب الثلاثة عن دوابهم وقد حسبوا أن انهاكه قد أغفله عنهم، إلا أن رهافة حواسه قد أنبأته بالحركة المريبة.

هل حاول الفرار أم أن كبرياءه قد منعته من ذلك؟ في كل الأحوال فإن عبده حين رجع لم يجده وإنما وجد الحمار المسكين وقد قطعت قوائمه، وإلى جواره ثياب الخليفة وقد تمزقت بشكل يعرفه جيدًا مَن خَبِرَ شكل ضرب الخناجر.

* * *

أي تلك القصص الأربع هي النهاية الحقيقية للخليفة الفاطمي الحاكم

بأمر الله؟ أم لعلها جميعًا محض تكهنات ومحاولات مستميتة لتفسير واحد من أشهر الألغاز التاريخية؟

المشكلة الحقيقية التي تواجه المدقق فيها، أنه يجدها جميعها منطقية واردة الوقوع.

ولكن على أية حال، فإن غرابة وشذوذ تلك النهاية ملائمة جدًا لطبيعة الحياة التي عاشها هذا الرجل!

* * *

- الآمر بأحكام الله (١١٠١م - ١١٣٠م).. قتيل الصراع الشيعي - الشيعي:

لكأنما تسير الخلافتان - العباسية والفاطمية - على درب واحد في طريق اضمحلال منصب الخلافة. فإن كان خلفاء الأولى قد صاروا دُمى بيد القادة والسلاطين، فإن أئمة الثانية قد لعب بهم الوزراء. فمنذ أن استدعى الخليفة الأسبق المستنصر بالله والي بعلبك القائد بدر الجمالي - أرمني الأصل - وولاه وزارتي السيف والقلم، حتى صار الخليفة الفاطمي سيقة لكل من تغلب فامتطى كرسي الوزارة. توفي بدر فخلفه ابنه «الأفضل بن بدر الجمالي»، والذي اقترف ما فتح على الدولة بابًا من المصائب.

فبينما كان ينبغي أن يخلف الخليفة/ الإمام المستنصر ابنه الأكبر «نزار»، تدخل الأفضل فأقصى هذا الأخير عن الخلافة ووضع على العرش أخاه الأصغر «المستعلي»، فحاول نزار التمرد لكن الوزير استطاع قمع تمرده، وقتله هو ومن انحازوا له.

انتقلت هذه الأخبار إلى بلاد فارس، حيث كان أحد دعاة الشيعة «الحسن بن الصبّاح» يؤسس أشهر فرقة اغتيالات مذهبية وسياسية في التاريخ:

فرقة «الحشاشين» التي تكونت من متعصبي المذهب الشيعي الإسماعيلي، والذين بلغ تعصبهم حد استباحة قتل من خالفهم من القادة والفقهاء والوزراء، وبرعوا في ذلك بشكل غير مسبوق. فبدأ في الجناح الشرقي من المنطقة الإسلامية في فارس والعراق وحتى الشام ومصر، عصر من الرعب على يد الجناح المسلح من تلك الفرقة والمسمى رجاله بـ«الفداوية».

فور علم ابن الصبّاح بما كان مع نزار، جمع أتباعه وخطب فيهم منددًا بكل من الأفضل والمستعلي، ومناديًا بحق نزار وعقبه في الإمامة، ومن هنا انقسمت الفرقة الإسماعيلية من الشيعة إلى فرقتين: الأولى هي الشيعة الإسماعيلية المستعلية ـ وهم الفاطميون منذ عهد المستعلي (بقيت منهم طائفة البهرة حاليًا) ـ والأخرى هي فرقة الشيعة الإسماعيلية النزارية (الأغاخانية حاليًا).

وعودة إلى مصر، فقد تسلط الوزير على الخليفة المستعلي، وتحكم في عمله حتى وفاة هذا الأخير، فبويع ابنه «الآمر بأحكام الله» أميرًا للمؤمنين، رغم أنه لم يكن قد جاوز الخامسة من عمره.

بقي الخليفة الطفل محجورًا عليه من وزيره لمدة عشرين عامًا، حتى اغتيل الوزير على يد ثلاثة رجال، باغتوه في ليلة العيد وهو متوجه إلى خزانة السلاح لتفريقه على جنده، كعادته في الأعياد. وبينما قال البعض إن القتلة كانوا من «الحشاشين» الذين ساءهم ما كان من قيام الوزير ـ وهو سُني المذهب ـ بإضعاف سيطرة المذهب الشيعي على مصر، بقراره السماح للسنة بحرية الممارسة الدينية، أشارت أصابع الاتهام بقوة إلى الآمر والمأمون البطائحي ـ الذي خلف الأفضل في الوزارة ـ ثم سرعان ما تخلص الخليفة من وزيره ـ وشريكه المحتمل في الجريمة ـ وأبطل منصب الوزارة، في محاولة منه لإعادة سيطرة الخلفاء على مقاليد الحكم.

من هنا تبدأ قصة مقتل الخليفة الفاطمي «الآمر بأحكام الله بن المستعلي بالله»

* * *

- القاهرة - ١١٣٠م

«قد فشى أمرنا» قالها الشاب وهو ينظر من شباك مخبأ الفداوية الذين أرسلهم «بزرك أميد» - كبير الفرقة وخليفة حسن الصباح - لقتل الخليفة الفاطمي!

التفت إلى رفاقه التسعة مضيفًا «الجند يستوقفون كل من يرتابون في أمره، وأصحاب الدور يؤمرون بإبلاغ القصر عن كل غريب يطلب استئجار بيت أو غرفة! قد تسرب الأمر إلى رجال الآمر لا ريب. ولا نأمن أن يظفر بنا فيقتلنا أو يحبسنا قبل أن نعاجله!»

أمّنوا بنظراتهم على ما قال، ثم سأله أحدهم: «وما الرأي؟»

تناول جرابه مجيبًا وهو يتربع في صدر مجلسهم: «الرأي أن نقتل أحدنا ونلقي رأسه إليهم!»

اعتدلوا في جلستهم بغير اتفاق، فأردف مفسرًا وقاطعًا الفرصة أمام استنكارهم: «إن عرفوا صاحب الرأس فقد عرفونا فلا مقام لنا عندهم وقد فسد تدبيرنا، وإن لم يعرفوا فهم في غفلة ويتم لنا ما نريد»

المألوف أن تُرفَض مثل تلك الأفكار الجنونية، ولكن العالم بطبيعة الفكر الانتحاري للفداوية يدرك أن ما اقترحه الفتى لا يخرج من نطاق المقبول عند هؤلاء القوم، في سبيل إتمام مهامهم.

تبادلوا النظرات بصمت. استقرأ في تعبيرات وجوههم ما يفيد تقبلهم الفكرة، إلا واحدًا اعترض قائلاً «لكن هذا ينقص عددنا، فهل يتم بهذا أمرنا؟»

عبث الفتى بشيء في جرابه، أخيرًا رفع عينيه إلى محدثه ناظرًا فيها بثبات، وقال «أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته؟»

تفكر الرجل هنيهة ثم أجاب مستسلمًا للفكرة: «لعله ما تقول»

فبدا على الشاب الرضا، وابتسم بهدوء وهو يقول: «وما أدلكم إلا على نفسي»

ثم بيد ثابتة، وبغير أن يرتجف له جفن، أخرج من الجراب خنجره ودسه في بطنه ثم أداره بقوة!

* * *

وجد الناس الرأس في منطقة «بين القصرين» فسلموه لشرطة الوالي الذي دار به على أصحاب المحال والأسواق فلم يميزوا صاحبه. فعلم الفداوية أن القوم غافلون عنهم. ولكنهم كمنوا إلى حين أن تأتي فرصة مناسبة لاغتيال الخليفة. وقضوا تلك المدة في جمع المعلومات عن تحركاته المعتادة، والطرق التي يسلكها لكل مكان يتوجه إليه.

وأخيرًا عرفوا أنه خارج للتنزه في موضع للترويح عن النفس، كان قد بناه لزوجته. فدرسوا الطريق إليه ولاحظوا أن به محلاً لفران. فاشتروا دقيقًا وتوجهوا إلى المحل، وجلسوا وقد أمروا الفران أن يخبز لهم فطيرًا، وراحوا يشاغلونه بالحديث وبعضهم يرقب الطريق.

واقترب ركب الآمر، فوثبوا سريعًا إلى الفران فقيدوا حركته وكمموه وأغلقوا باب الفرن، وهم ينتظرون مرور الموكب فوق جسر بقرب المحل، فلضيق هذا الجسر يضطر حرس الخليفة للتراجع وإفساح الطريق له، فيمر منفردًا ثم يمرون بعده. وبالفعل تم ما توقعوا فخرج أحدهم مهرولاً إلى الخليفة في هيئة من يحييه، وبقي يسجد ويقوم كأنه يبالغ في التحية، حتى إذا ما صار الخليفة إلى جواره أخرج خنجره وضرب بطن فرسه، فسقط وفوقه راكبه الذي استقبله خنجر الفداوي وزملائه الذين سارعوا بالوثوب إليه فور مجاورة الخليفة له وهو ساجد.

ومزقت الخناجر جسد الآمر بأحكام الله لينضم لضحايا حركة «الحشاشين». ولم يلحق الحرس بالقتلة إلا وقد أتموا مهمتهم، واستسلموا بصدور رحبة للسيوف الثائرة غضبًا التي أفنتهم عن آخرهم.

* * *

هذه العملية هي مما يوصف بلغة التحليلات الأمنية بأنه «نقلة نوعية».

فليس ما يلفت النظر هنا هو قيام الحشاشين باغتيال «خليفة»، فقد اعتادوا قتل أصحاب المناصب العالية واختراق سياجهم الأمني. وإنما هو تغلبهم على تحديات مثل بعد المسافة عن قواعدهم والمناطق الحاضنة لهم، ولتوجههم حيث يمكن أن يتلقوا العون من بعض أهلها. وكذلك استماتتهم في تنفيذ المهمة إلى حد اقتراح أحدهم أن يقتلوه ويلقوا رأسه كما سلف الذكر، واختيارهم مرحلة من عهد الآمر كان فيها قد أفرغ الدولة من «أثقالها» ما يجعله «الثقل» المنفرد، فإذا قُتِلَ اهتزت الدولة بعنف.

ولكن الأهم من ذلك، أن ضحية خناجر هؤلاء القتلة لم يكن من جانب «السُنّة»، وإنما كان من المعسكر الشيعي، بل وإمام المعسكر نفسه.

أعتقد أن تلك الواقعة بالذات هي مما ينبغي على المرء تأمله والتفكير فيه، قبل أن يقرر إطلاق الأحكام الجاهزة على الخصومات القائمة بين المتعصبين، من أهل هذه المذاهب أو تلك.

* * *

- الظافر بالله (١١٤٩م - ١١٥٤م). ضحية التهمة المشينة:

- القاهرة - ١١٥٤م:

«الناس يتحدثون بكما!»

تشاغل نَصر بن العباس الصنهاجي عن أبيه الذي أردف بتهكم، مثيرًا الأمر الذي طالما ألح فيه: «يقولون: ابن الوزير نراه في المواكب عَبوسًا ويراه الخليفة في الليل عروسًا»

صفعه التعبير اللاذع فالتفت لأبيه هادرًا: «كفى!» فأكمل هذا حديثه غير مبالٍ بغضب الفتى: «تلك الإقطاعات الكبيرة، والمنح السخية، التي تنزلها

عليك عناية أمير المؤمنين تباعًا، أهي بمثابة المهر؟» ثم استطرد ضاحكًا: «إن كان ذلك فلا ريب أنك أعز عليه من حرمه، فهذا مهر شديد السخاء!»

أطلق الشاب غضبه في إطاحته العنيفة بكأس كانت أمامه، وأسنانه تكاد تنسحق تحت وطأة انطباق فكيه غيظًا. تراجع الأب في مقعده رافعًا كفه كأنما يهدئ من ثورته. اصطنع جدية واهية ارتداها على قسماته الساخرة وقال: «فقط أريد أن تُشبعَ فضولي. من منكما الذي... آه.. حسنًا لا بأس.. هذا لا يهم كثيرا» ثم بحركة مباغتة هب من مقعده وضرب المنضدة بقبضة يده، صارخًا في وجه ابنه وقد زالت آثار الهزل عنه: «فالفضيحة واحدة على أية حال!»

انتفض نصر لهبة أبيه المفاجئة. تلعثم وهو يجيبه: «أنت تعلم أن كل هذا محض افتراء! الناس يغارون مما بلغناه من عظيم الشأن! أنت قد صرت الوزير، وأنا صديق الخليفة وصاحب سره.»

قاطعه الأب وقد استولى على راية الغضب في تلك المعركة الكلامية: «بل قل صاحب فراشه. أنا لا أبالي بما يكون بينكما على الحقيقة، لكن حديث الألسنة يزعجني ولو كان كذبًا!»

دار حول المائدة وجلس إلى جوار ابنه: «أنا قد بلغت ما بلغت من شأنٍ بحسن التدبير» كاد نصر يقاطعه، فاستوقفه وأكمل: «أعرف أنك أنت من نفذ هذا التدبير، وقد أحسنت القيام بما وُكِلتَ به، فلا تضيعن ما فزنا به!» قام عاقدًا يديه خلف ظهره الذي أولاه ابنه. بقي يتأمل تهاويل السقف وزينة أركانه، ثم أخيرًا قال دون أن ينظر للفتى: «عندما أبلغني البعض حديث الناس عن أنك والخليفة بينكما ما بين المرء وزوجه، لم يراودني شك في مسلكك، ولكن، في كل الأحوال فإن على الألسنة أن تنقطع. ولا تقل لي أن أدبر للمتكلمين قتلاً أو حبسًا، فهذا مما يؤكد ما يشاع. لا يبقى إذن سوى سبيل واحد»

قطب الابن جبينه وهو يسأل أباه مستروحًا اتجاه هذا الحديث: «وما هو؟» فالتفت إليه الأب وقال مبتسمًا وقد أدرك أن ابنه يفهمه: «أن تقتل الخليفة!»

* * *

الحديث عن القتل بتلك البساطة مثير للدهشة، لكن أن يكون المتحدث هو العباس أو ابنه نصر، فهذا من غير المستغرَب.

فالعباس الصنهاجي كان أحد القادة المغاربة للجند الفاطمي، وكان زوج أمه الأمير ابن السلار واليًا على الإسكندرية، ثم استطاع ابن السلار أن يخلع ابن مصال ـ وزير الخليفة الشاب الظافر بالله ـ وأن يتولى الوزارة عوضًا عنه، ويتسلط على الفتى الذي كان مغرقًا في اللهو والملذات.

ورُزِقَ العباس بابن سماه نصرًا، ولكن هذا الابن تربى في بيت جدته في حِجر ابن السلار، الذي عامله كبعض ولده. وكبر نصر وصار شابًا، لكنه لم يحفظ الجميل لمربيه.

فقد كانت الوحشة قد دبت بين الوزير والخليفة، لأسباب كثيرة منها الاختلاف المذهبي بينهما ـ الخليفة شيعي والوزير سني ـ وكذلك لاستنكار الوزير انهماك الظافر في متعه، وإهماله الانضباط المفترض من خليفة المسلمين.

وفي نفس الوقت، كان العباس يطمع في احتلال مكانة زوج أمه.

فتم التدبير بين كلا منهما، وكُلِّفَ نصر بن العباس بالتنفيذ، لأنه من القلة التي تستطيع أن تقترب من ابن السلار وهو منفرد عن حرسه.

وأثبت الفتى أنه لا يقل خسة عن أبيه، بقيامه بقتل مربيه وولي نعمته في فراشه!

وعلى سبيل المكافأة، جعل الخليفة العباس الصنهاجي وزيرًا له، وقرب إليه نصرًا وصار يغرقه في إنعاماته وهداياه، حتى تحدث الناس بعلاقة مشينة بينهما.

فدار بين الابن والأب حديث قتل الظافر بالله، بعد عام فحسب من قتلها ابن السلار.

❊ ❊ ❊

انغلاق الباب سريعًا بعنف غير معتاد، والصمت المطبق على المكان، وتلك الحركة المريبة بقصر نصر بن العباس، بثت الخوف في صدر الخليفة وهو يستشعر أمرًا مشؤوما يجري حوله، في تلك الليلة التي دعاه فيها صديقه لسهرة عنده.

الخوف تحول لرعب هائل عندما رأى قطعًا من الليل تنفصل عن الظلام المحيط، وتهوي بسيوفها على من حوله من الخدم، عدا واحدًا استطاع الإفلات وابتلعته الظلمة.

كان هذا آخر نصيب الظافر بالله من البصر، قبل أن تنهشه السيوف التي تعرف عملها جيدًا.

❊ ❊ ❊

تم الباقي من الأمر بشكل سريع ودموي، فقد أخفى نصر الجثث في جب بقصره، وألقى على الجب رخامة ثقيلة.

وانطلق العباس إلى القصر يسأل عن الخليفة متظاهرًا بالجزع، وقد انتشر خبر مقتله، غالبًا عن طريق خادمه الذي فر من المذبحة.

كان الصنهاجي يدرك أن عليه التدبير سريعًا لإغلاق باب إلقاء تلك التهمة عليه، فأسرع بإحضار أخوي الخليفة القتيل واتهمها بتدبير قتله للاستيلاء على الحكم، ثم أعدمهما سريعًا في قاعة العرش. ودون أن يتكلف عناء إزالة آثار دمائهما أو حتى جثتيهما، أحضر عيسى - ابن الخليفة وكان في الخامسة من عمره - ورفعه على الكرسي وأعلن البيعة له باسم «الفائز بنصر الله»

والطفل المسكين يبكي ويصرخ من هول المنظر أمامه، وقد أصيب بالصرع منذ ذلك اليوم حتى مات بعده بستة أعوام.

* * *

لم يُعطَ الابن والأب الفرصة للتمتع بثمرة جريمتهما.

فقد أدرك الجميع - رجال الدولة والعامة - هشاشة رواية العباس ونصر حول مقتل الظافر، فرجمهما الناس بالحجارة في مرورهما بالشوارع، وانشق عنهما أعوانهما، وهوجمت ممتلكاتهما، ثم قامت نساء القصر الفاطمي بمراسلة طلائع بن زريك الأرمني، والي الأشمونين والبهنسا بصعيد مصر، وكان معروفًا بالمروءة، وأرسلن له خصالاً من شعورهن - وهي في عرف العرب قمة الاستفزاز للمروءة - يطلبن منه التوجه للقاهرة وإنقاذ الدولة من عبث الصنهاجي وابنه.

أسقط في يد العباس ونصر، ففرا من مصر ومعهما الأمير أسامة بن منقذ الشيزري - من آل منقذ حكام شيزر بسوريا حاليا وكان مقيمًا في القاهرة آنذاك - والذي اتهمه البعض بالضلوع في جريمتي قتل ابن السلار والظافر، وإن كان قد نفى ذلك في سيرته الذاتية، المعروفة باسم «كتاب الاعتبار».

ولكن، تعرض الثلاثة لهجوم من بعض الفرسان المنتمين لـ«فرسان الهيكل» والذين كانوا يسيطرون آنذاك على بعض مناطق الشام - خلال الفترة المعروفة بعصر الحروب الصليبية - فقتلوا العباس وأسروا نصرًا، بينما استطاع ابن منقذ الهرب.

وأرسلت نساء القصر للفرسان يعرضن اشتراء أسيرهم نصر، فقبل هؤلاء العرض وباعوه لهن ليعاقب بشنقه على باب زويلة.

وهكذا تنتهي حكاية مأساة اغتيال الخليفة الظافر بالله.

* * *

يرد على الذهن سؤال: هل كان دافع نصر لقتل صديقه الخليفة هو إخراس الألسنة الطاعنة في عرضه بالفعل؟

ثمة تحليلات ترجح ذلك، بينما تحمل بعض التفسيرات رواية أن الظافر قد عرض على نصر منصب الوزارة لو قتل أباه، وكان الخليفة قد ضاق بتسلط العباس، كما ضاق من قبله بتسلط ابن السلار، فضن الفتى بأبيه وأخبره برغبة الخليفة في التخلص منه، فقص هذا الأمر على صديقه أسامة بن منقذ، الذي نصحهما بالمبادرة بقتل الظافر، ويقول رواة تلك القصة إن ابن منقذ كان يهدف من مقتل الخليفة أن ينقذ نفسه من بطشه، نتيجة سعي بعض رجال الدولة في ذلك غيرةً منهم من استضافة الظافر له، وهو أمير شامي غريب عن مجتمع أمراء مصر. ولكن تلك القصة تبدو واهية جدًا، تمامًا كرواية أخرى عن أن أسامة بن منقذ نفسه كان ضالعًا في اغتيال ابن السلار، بسبب تجهيز هذا حملة لإنقاذ عسقلان من الصليبيين، وكان يرغب في أن يقودها العباس الصنهاجي وبرفقته ابن منقذ، فاستثقل هذا الأخير مفارقة رغد العيش في مصر، وقرر أن يدبر قتل ابن السلار للتملص من المهمة!

والقارئ في سيرة ابن منقذ كمقاتل متحمس معروف بالشجاعة والإقدام واقتحام المخاطر، يستنكر مثل تلك الرواية (لمزيد من المعلومات عن أسامة بن منقذ أنصح بقراءة سيرته الذاتية المعروفة باسم كتاب الاعتبار، وهي أول سيرة ذاتية في التاريخ العربي)

التفسير الذي اعتمده الكثيرون هو «رغبة نصر في دفع التهمة المشينة عنه»، ولكن حتى هذا التفسير يبقى هشًا إلى جوار ما يمكن تفسيره بأن الفتى وأباه قد رأيا أن الخليفة الظافر قد صار أكبر سنًا من أن يستطيعا السيطرة عليه، وأن من مصلحتهما إزاحته وأن يأتيا بطفل صغير يسهل أن يحجرا عليه، فيتسلطا على الدولة كلها.

فالحجر كان قد أصبح سُنة الوزراء مع الخلفاء في مصر. ولهذا فلم يكن مستغربًا أن تنتهي دولة الفاطميين باقتتال الطامعين في منصب الوزارة،

حتى أفنوا بعضهم بعضًا، ولم يعد من حل سوى الاستغاثة بالخارج المتمثل في دولة الزنكيين بالموصل وحلب. ليرسل ملكها نور الدين محمود زنكي كلا من قائده أسد الدين شريكوه، وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى القاهرة ليعين العاضد ـ آخر خلفاء الفواطم ـ شريكوه وزيرًا، ثم يخلفه ابن أخيه صلاح الدين بعد ثلاثة أشهر بحكم وفاته.

وفي العاشر من سبتمبر من العام ١١٧١م، كان صلاح الدين يعلن رسميًا سقوط الدولة الفاطمية بإسقاطه الدعاء للخليفة العاضد ـ الذي كان يحتضر في فراشه ـ ورفع الدعاء للخليفة العباسي.

❊ ❊ ❊

عودة لمشهد عباسي أخير

المستعصم بالله

خليفة نهاية الزمان

«لقد بقيتُ عدّة سنين معرضًا عن ذِكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أقدّم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل حدوثها، وكنت نسيًا منسيًا»

هكذا استهل المؤرخ العربي ابن الأثير ذكره ظهور المغول واجتياحهم البلاد الإسلامية، وربما لحسن حظه أنه قد توفي قبل دخولهم بغداد وتدميرهم إياها، وتذبيحهم أهلها وقتلهم الخليفة.

القارئ في تاريخ تلك الفترة يدرك، بسهولة، أن أهلها قد نظروا لهجوم المغول والأهوال المصاحبة له، على أنها نُذُر نهاية الزمان، وأنه لم يبق من الدنيا إلا أيام، وهو ما انعكس على تفاعلهم مع تلك المحنة الكارثية، التي تعتبر الأولى من نوعها في التاريخ الإسلامي، فقد غُرِسَ في وجدانهم الجمعي أن هؤلاء القادمين على صهوات جيادهم، يسبقهم الرعب ويتبعهم الموت والدمار، ليسوا من جنس البشر، فهم لا يُقهَرون، ومقاومتهم عبث، وإن سقط منهم واحد تمخضت الأرض عن آلاف مثله.

كان هذا من الأسباب الفعلية لحالة الاستسلام للمصير التي سيطرت على

أهالي المدن الساقطة في أيدي المغول، حتى إن ثمة قصة تقول إن جنديًا مغوليًا دخل وحده زقاقًا في مدينة وراح يقتل من فيه بالسيف وهم مستسلمون له، ثم انحنى سيفه من كثرة ما ضرب من أعناق، فأمرهم أن ينتظروه حتى يأتي بسيف آخر ليستكمل قتلهم، فانتظروه حتى عاد وأكمل عمله في رقابهم.

بصرف النظر عن لامعقولية الرواية، فإنها تنم عن الروح المتهاوية للقاع لدى معاصري تلك المصيبة.

❊ ❊ ❊

يتحدث الناس عن خليفة يأتي في آخر الزمان، فيكسر الطغاة ويدحر الظالمين ويقيم دولة الحق، ويملأ الأرض خيرًا وعدلاً بعد أن مُلِئَت شرًا وجورًا.

فما بال نهاية الزمان تأتي والخليفة مجرد رجل ضعيف، متهافت، منهمك في مجالس الطرب ومشاهدة المساخر، قد انحل عقد الدولة من يده!

صحيح أن خلفاء بني العباس قد تآكلت جذوعهم مع الوقت، حتى لم يعد لهم من الخلافة سوى الاسم دون الرسم، لكنهم على الأقل كانوا يقاومون، ينتفضون. حتى وإن لم يخرج نفوذهم عن بغداد. أما هذا المستعصم فهو لا يقدر حتى على حكم بغداد. أمير المؤمنين وخليفة المسلمين الذي يحتفظ الملوك والأمراء المستقلون بما تحت أيديهم من بلاد بالذكر في الدعاء بالمساجد، يعجز عن ضبط مجرد مدينة واحدة. فبغداد قد صارت ساحة قتال بين السُنة والشيعة من أهلها. وبعد أن كانت تفيض بالحياة والنشاط والهمة، صارت خامدة مضمحلة، وخمل أمرها، وألقى أهلها أنفسهم في الملذات والملاهي، والاقتتال على توافه الأمور، فرارًا من واقع أنهم قد صاروا قيد أيام معدودة من أن يسحقهم المارد المغولي الفاغر فاه، يبتلع المدن ويطحن بأضراسه الممالك. بقيت الشوارع على ازدحامها بالناس لكن دون حياة، كأنها «مدينة النحاس» المذكورة في بعض الأساطير، والتي ألقيَت عليها

لعنة جمدت أهلها على مكانتهم إلى يوم يبعثون.

والخليفة لم يعجز عن ضبط عاصمته فحسب، بل عن ضبط مجلسه كذلك. فالمجلس ممزق بين كل من مجاهد الدين الدوادار كاتب الخليفة والقائم بجنده، ومؤيد الدين بن العلقمي أقرب وزرائه. الأول سُنّي متعصب والآخر شيعي منحاز. والصدام بينهما يتصاعد بين المناوشات الحادة والاشتباك الكلامي العنيف. والمستعصم قد نصب أرجوحته بين حزب هذا وحزب ذاك، فهو لا يريد من الأمر إلا أن يُترَك وشأنه ليستمتع بمباهج الحياة، أما أن يُطلَب منه إبداء الحزم الكافي لإدارة النقاش في مجلس خلافته، فهذا ما لا يطيق من جهد رغم ما يفترض من سنوات عمره التي جاوزت الخمس والأربعين. بالمناسبة، هذا الرجل نفسه هو من استنكر سلطنة شجر الدر، التي أجادت إدارة أزمة موت زوجها السلطان نجم الدين أيوب في خضم الحرب مع الفرنجة، وأرسل يقول لها «لو أن الرجال قد عدمت عندكم فأخبرونا نسير لكم رجلاً»!

لم يقف الشقاق عند مجلس الحكم، بل قد تعداه إلى شوارع وأحياء بغداد، فهذا مجاهد الدين يبث رجالاً له ومأجورين من غوغاء المدينة ليقوموا بما يمكن وصفه بـ«المظاهرة غير السلمية» ضد ابن العلقمي، ما أدى إلى وقوع مصادمات دامية بين مؤيدي الوزير ومعارضيه من العامة، فيرد الوزير بتحريض الخليفة على خلع دواداره بذريعة أنه كان قد دبر انقلابًا فاشلاً ضده. ثم ينشب اقتتال طائفي بين السُنة والشيعة، فيستغل حزب الدوادار - وفيه ابن الخليفة وولي عهده - الحادث ويقتحم ولي العهد حي الكرخ - حيث يقيم شيعة بغداد - فيقوم بعمليات سلب ونهب وقتل بل وسبي للنساء، فيسارع الوزير بالتدخل، ليس عن رد للمظلمة، بل عن انحياز مذهبي بحت.

ويتحدث مؤرخو العصر الإسلامي عن «خيانة» ارتكبها الوزير الأول، بمراسلة هولاكو - قائد جيش المغول بالمشرق العربي وحاكم فارس وما وراءها من قِبَل الخان الأعظم المغولي - وتحريضه على غزو بغداد وإسقاط

الخلافة. ولكنهم لا يقدمون دليلاً على تلك التهمة، بل يكتفون بتفسيرها بأنه «رافضي»!

والحقيقة أن اتهام ابن العلقمي بالخيانة لا يحتاج إلى إضافة تهمة التخابر إلى قائمة جرائمه، فالواقع أن الخيانة جللت أفعال كل رجال الحكم ببغداد، فلو كانت أفعالهم تعد «حماقات» في زمن السلم فإنها في زمن الحرب تصنف كـ«خيانة عظمى». فإثارة الاقتتال الأهلي لتصفية الحسابات خيانة، والاشتراك في قتال مذهبي خيانة، والانغماس في اللهو خيانة. الواقع أن بغداد وخلافتها لم تسقُط بغزو من الخارج، بل إنها قد انتحرت بخنجر الميوعة والأنانية.

بل إن ثمة واقعة مشينة تضرب بجذورها إلى عقود سلفت قبل المستعصم، حين قام جده الخليفة الناصر لدين الله بمراسلة جنكيز خان، يحرضه على مهاجمة الخوارزميين ـ الذين كانوا يحكمون فارس آنذاك ـ لرغبة الناصر في التخلص من سطوتهم، ولكن الخان لم يوافق على ذلك لأن علاقاته بالدولة الخوارزمية كانت ـ آنذاك ـ سلمية!

جدير بالذكر كذلك أن المستعصم كان له أخ معروف بالقوة والشجاعة وصلابة الشخصية والإقدام والحزم، وترشح أمره للخلافة، ولكن رجال الدولة أقصوه عن ذلك ورشحوا عوضًا عنه المستعصم، لإدراكهم أنه لين سهل الانقياد لأهوائهم. هذا في الوقت الذي كانت الدولة فيه تحتاج للحازم الصارم!

لم يكن ابن العلقمي إذن هو الخائن الوحيد، لكنه كان صاحب السبق في منافسة الخيانة.

وما أهّله بشدة لاحتلال موقع الصدارة في ذلك، هو ما كان منه في شأن جيش الخليفة.

فالخليفة السابق ـ المستنصر عم المستعصم ـ كان قد استكثر من الجند حتى بلغ قوام جيشه مئة وعشرين ألفًا منهم، تحسبًا منه لأية مواجهة

محتملة مع المغول، وكان في نفس الوقت يهادنهم ويرسل لهولاكو الهدايا والرسائل الودّية، فلما تولى المستعصم الخلافة واستوزر ابن العلقمي، أقنعه هذا الأخير بالتخفيف من نفقات الجيش وتقليل عدده، حتى انخفض إلى عشرة آلاف جندي فقط! بل وقُطِعَت نفقات كثير منهم، حتى صار من المألوف أن ترى جنديًا يستجدي الناس في ساحات مساجد بغداد!

هؤلاء إذن من كان يُنتَظَر منهم أن يدفعوا العدو عن عاصمة الخلافة العريقة!

* * *

بدأ تحرش هولاكو بالمستعصم بأن طلب منه إرسال قوة من جند الخلافة، يعينون الجيش المغولي على القضاء على طائفة «الحشاشين» ببلاد فارس، فكان من الطبيعي أن يحجم المستعصم عن ذلك، لإدراكه أن هذا الطلب خدعة غرضها إفراغ بغداد من مدافعيها القلائل.

بعد أن انتهى هولاكو من القضاء على الحشاشين، أرسل إلى الخليفة يتوعده لرفضه تنفيذ «أمره»، ويشترط عليه لاتقاء غضبه وعقابه أن يهدم حصونه، ويردم خنادق تحصيناته، ويسلم البلاد لابنه ثم يتوجه للمثول بين يديه أو يرسل نيابة عنه كلا من مجاهد الدين الدوادار، وسليمان شاه، وكان وزيرًا ومنجمًا.

وتكرر رفض المستعصم لمطلب من قائد المغول، وأطلق الخليفة نداء استغاثة لحكام وملوك المسلمين، ولكنه لم يتلق منهم ردًا يشفي الغليل. فأيوبيو الشام منهمكون في محاربة بعضهم من ناحية، ومحاربة مماليك مصر من ناحية أخرى، وهؤلاء الأخارى غارقون لآذانهم في المؤامرات الداخلية، وسلاجقة الأناضول كانوا قد خضعوا للمغول والتزموا طاعتهم.

وأرسل المغول إنذارهم الأخير قبل الغزو، فاقترح ابن العلقمي على الخليفة أن يرسل إلى هولاكو الهدايا والتحف، وأن يعرض عليه أن يُذكَر

اسمه بعد الخليفة في الدعاء ـ كما كان الخلفاء العباسيون يفعلون مع السلاجقة والملوك المتسلطين عليهم ـ وأن يُكتب الاسم على العملة إلى جوار اسم المستعصم. ومال هذا الأخير لمقترح الوزير، لكنه عاد يرفضه بضغط من الدوادار الذي أصر على المقاومة.

في أثناء ذلك كان الجيش المغولي قد دخل إلى العراق، وتقدم نحو بغداد ليظهر في محيط أسوارها ويضرب عليها الحصار، في يناير ١٢٥٨م.

كان الحصار محكمًا، حتى إن مما يُذكَر أن سهام المغول قد بلغت قصر الخلافة وعبر بعضها نوافذه، ليقتل جارية في أثناء رقصها للترفيه عن الخليفة!

ولإدراكه أن فريسته قد ارتاعت من منظر الكتل البشرية المغولية، الكثيفة المنظمة ثقيلة العتاد، وهي تحكم حلقتها حول بغداد، عاد هولاكو يطلب إخراج مجاهد الدين الدويدار وسليمان شاه إليه. وهذه المرة اضطر الخليفة للموافقة وأرسلهما إليه، ليأمرهما القائد المغولي بإحضار رجالهما وأهلهما من بغداد، لأنه قد قرر نفيهم جميعًا للشام ومصر. فخرج جند بغداد وأعوان الرجلين وتبعهم عدد من سكان المدينة. وخرج القائد المغولي من خيمته القيادية المنصوبة شرق أسوار المدينة، وأشار إلى سليمان شاه ليتقدم إلى حضرته. بقي هولاكو يتأمله مليًا ثم قال: «أنت منجم.. فكيف لم تتنبأ بسوء مصيركم؟ ولِمَ لَم تنصح سيدك أن الخضوع لنا أسلم له؟» فأجاب سليمان: «كان منكود الطالع، ولم يكن يسمع من الناصحين له!»

مط هولاكو شفتيه بغير اقتناع، ثم أولى أسيره ظهره، وهو يشير لجنوده بذبحه ومعه مجاهد الدين الدويدار وسائر من خرجوا من بغداد.

ووقعت المذبحة، وأرسل هولاكو الرؤوس إلى بدر الدين لؤلؤ، صاحب

الموصل الذي كان قد دخل في طاعته سلمًا، وأمره برفعها على الأسوار، فنفذ لؤلؤ الأمر رغم قسوته على قلبه لكونه كان صديقًا لسليمان.

أسقط في يد المستعصم، وهو يرى الجوارح تحوم على الجيف المطروحة لجنده ومنجمه ودواداره وأهاليهم خارج أسوار عاصمته. ولم تعد لديه من حيلة سوى التزام نصيحة وزيره بتسليم المدينة لهولاكو بضمان أمانه وأهله، وضمان أمن البغداديين. وأرسل الخليفة إلى قائد المغول بذلك، فوافق.

وبالفعل، في فبراير ١٢٥٨م، خرج الخليفة العباسي المستعصم بالله يقدم خضوعه وطاعته لهولاكو خان، قائد القوات المغولية الغازية، «إيلخان» (الوالي من قِبَل الخان الأعظم) فارس والعراق والأناضول والشام، وما يُضم بعدها لدولة المغول وصولاً إلى بحر مصر، كما نص أمر تعيينه من الخان الأعظم.

ودخل جند المغول إلى المدينة التي أباحها لهم قائدهم. وعندئذ عرف المستعصم قيمة وعد الأمان من المغول.
عرفه في أصوات الصراخ التي بلغته في محبسه بالمعسكر. في تلك الرائحة التي هي مزيج من احتراق الحجارة واللحم البشري وأوراق الكتب.

عرفه وتيقن منه وهو يرى أهل بيته العباسي الهاشمي القرشي، أبناء عمومة الرسول، نسل الخلفاء، يُذبحون أمام عينيه، ونساءهم يؤخذن سبايا ويوزعن على القادة كل حسب رتبته ومكانه من القائد العام. ثم وهو يُجر ويُلقى أرضًا ليُلَف بذلك البساط السميك عطن الرائحة، ثم يُدَحرَج لتتلقاه أرجل الجند بالركل العنيف، ليحس ويسمع عظام جسده تنسحق تحت وطأة الأقدام الثقيلة حتى الموت.

فمعتقدات المغول تحظر عليهم إسالة دم ملك أو سلطان فوق الأرض!

* * *

استباح الغزاة بغداد لمدة أسبوع وقد قرروا أن يجعلوا منها عبرة، فسووا بالأرض مساجدها وقصورها ودورها، وجعلوا الركام طعمة للنار. أعملوا السيوف في الناس حتى سالت الميازيب بالدماء. بقوا يعدمون أبناء البيت العباسي ورجال الدولة يوميًا. ينادون اسم الرجل فيودع أهله ويصطحبهم إلى دار الخلافة التي احتلها المغول، فيُذبَح أمام أهل بيته ثم يفرق هؤلاء الأخارى على الجند كغنائم، بعد أن يعرضوا على القائد لاختيار من يحب امتلاك رقابهم منهم.

ثم أخيرًا انتقلوا عنها بعد أن ضايقتهم رائحة تعفن الجثث!

وبعد رحيلهم بأيام، تسلل من بين الكُنُف والمقابر وحفر الصرف وتلال الجثث أشخاص تحسبهم إن رأيتهم موتى بُعثوا من القبور. هم الناجون من المذبحة، الذين كتب عليهم القدر أن يحمل كل منهم إلى آخر عمره ذكرى سقوط مدينة كانت يومًا تسمى «مدينة السلام»

* * *

دهليز لميدان قاهري

بعد مذبحة بغداد ١٢٥٨م، بقي كرسي الخلافة شاغرًا حتى العام ١٢٦١م، عندما استحضر السلطان المملوكي الظاهر ركن الدين بيبرس أحد الناجين من البيت الحاكم العباسي، وأثبت نسبه بحضرة الفقهاء والقضاة، ثم أعلن إحياء الخلافة العباسية وجَعل مقرها بالقاهرة، ثم حصل على تفويض من الخليفة بالسلطنة وحكم بلاد المسلمين «وما يُفتَح على يديه».

كانت المرحلة القاهرية من الخلافة العباسية، مجرد استمرار للخلافة الشكلية التي يحوز فيها الخليفة الاسم دون السلطة، فقط لإضفاء الشرعية على حكم سلاطين المماليك الذين تحكموا في تعيين وخلع الخلفاء، وفقما يتأتى لمصالح هؤلاء السلاطين وأهوائهم.

* * *

المستنصر بالله الثاني..
الهارب من قَدَره إلى قدره

تقول القصة:

إن رجلاً قد دخل إلى النبي الملك سليمان بن داوود مستجيرًا به، سأله الملك: «ومِمَن تستجير؟» فأجابه: «من الموت. فقد رأيته منذ قليل يقف في مواجهتي وينظر لي كثيرًا، فعرفت أنه قد جاء ليأخذني روحي»

وكان الناس في هذا الزمان يرون مَلَك الموت يسير بينهم، فيدركون أن الله قد أمره بقبض روح.

قال سليمان: «وكيف أجيرك من مَلَك الموت؟»

ـ «بأن تأمر الريح فتحملني بعيدًا، إلى جبل قاف، حيث لا يجدني!»

فأمر الملك الريح أن تسرع بحمل الرجل إلى جبل قاف، ثم خرج من قصره يبحث عن ملك الموت، فلما وجده سأله: «لماذا كنت تنظر لهذا الرجل؟ أجئت لقبض روحه؟ لِمَ أطلت له النظر إذن ولم تقبضه لساعته؟»

أجابه مدهوشًا: «بل كنت أنظر له مستغربًا وجوده هنا»

ـ «ولِمَ تستغرب ذلك؟»

فقال ملك الموت: «لأنني أُمِرتُ بالذهاب هذا المساء لجبل قاف كي أقبض روحه!»

هذه القصة تلخص ما جرى مع الخليفة العباسي الأول بالقاهرة، أبو القاسم أحمد المستنصر بالله الثاني (تمييزًا له عن أخيه المستنصر الأول عم المستعصم) بن الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله.

فالمستنصر كان محبوسًا في عهد ابن أخيه المستعصم، حتى إذا ما اجتاح المغول بغداد ووضعوا السيف في أهلها سواء من عامتها أو الخاصة، استغل الفوضى وانعدام الحرس وفر بنفسه، حتى بلغ أراضي بعض الأعراب من قبيلة بني مهارش، فأجاروه وأخفوا أمره، فلما هُزِمَ جيش هولاكو ـ الذي كان يقوده مساعده كتبغا نوين ـ في موقعة عين جالوت، واستقر الأمر للمماليك بمصر والشام، توجه هذا الناجي وبرفقته عشرة من مضيفيه إلى مصر.

صادف ظهور ناج من البيت العباسي رغبة بيبرس في إضفاء شرعية دينية وسياسية على حكمه ـ وعلى الحكم المملوكي عامة ـ للقضاء على أية ادعاءات محتملة في الحق في الحكم، سواء من بقايا بني أيوب أو غيرهم. فخرج السلطان لاستقبال المستنصر الذي دخل إلى القاهرة في ٧ يونيو ١٢٦١م، وفي استقباله السلطان الظاهر والقضاة ورجال الدولة، وعامة الشعب خرجوا للترحيب به وبانتقال دار الخلافة إلى مصر.

بعدها بأيام، بويع بالخلافة وقد ثبت نسبه بحضرة القضاة والفقهاء، وعلى رأسهم قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وشيخ الإسلام العز بن عبد السلام.

ثم في الجمعة التالية خطب في الناس من فوق منبر جامع قلعة الجبل ـ مقر الحكم المملوكي ـ فذكر الله وصلّى على النبي وترضّى على الصحابة، ثم ذكر شرف بني العباس ودعا للسلطان وللمسلمين.

بعدها جرت مراسم تفويض الخليفة السلطان بيبرس للحكم، فألبسه بيده خُلعة خليفتية (زي يخلعه الخليفة على السلطان ومعه عمامة وسلاح

رمزي وطوق للعنق)، وفوض له حكم بلاد المسلمين «وما يُفتَح على يديه من بلاد الكفار».

ورتب السلطان للخليفة سكنًا بالقلعة، ونفقة وخدمًا وقائمين بخدمته من حجابة وكتابة وأستادارية، كما رتب له الخيل والجمال والبغال لتنقلاته.

وهكذا انتقلت حال الرجل من حياة السجن ثم الفرار والاختفاء، إلى الخلافة ورغد العيش. ولكن. لم يطل به العمر ليتمتع بمكانته الجديدة.

* * *

بعد نحو سبعة أشهر من مبايعة المستنصر، قرر كل من السلطان والخليفة إرسال حملة إلى العراق لطرد المغول من بغداد، على أن يقودها الخليفة بنفسه.

تزامن هذا مع قرار بيبرس الخروج لردع حركة انفصالية بولاية حلب، فخرج ومعه المستنصر إلى الشام، ودخلا دمشق في موكب كبير، وقضيا بها عدة أيام، ثم خرج الخليفة إلى أرض العراق ومعه حملة عسكرية أنفق بيبرس على إعدادها نحو مليون دينار ذهبي.

والتقى المستنصر في مدينة «عانة» بأمير من بني عمومته له قصة مشابهة في النجاة من المغول، فقد فر من بغداد إلى عرب بني خفاجة وبقي في حمايتهم، ثم توجه إلى دمشق بعد طرد الجيش المغولي من الشام.

وتوجه العباسيان إلى بغداد ومعهما أبناء صاحب الموصل، الذي خلف أباه الراحل لؤلؤ وخلع طاعة المغول وانحاز للظاهر بيبرس والخليفة، وكذلك حاكما سنجار (مدينة في شمال العراق) والجزيرة الفراتية.

واستطاعت الحملة أن تحرر مدينة «حديثة» العراقية، ثم حررت مدينة «هيت»، وعند هذه المدينة وقعت المواجهة الحاسمة مع جنود المغول الذين يبدو أنهم كانوا متفوقين عدديًا على حملة الخليفة، فسحقوها تمامًا.

ولقي الخليفة حتفه تحت سنابك خيل الجيش المغولي وبين سيوف فرسانه،

بينما استطاع ابن عمه سالف الذكر النجاة بنفسه، وعاد لعرب بني خفاجة حيث بقي في ضيافة أميرهم عيسى بن مهنا.

في ذلك الوقت كان بيبرس قد استطاع أن يخمد الفتنة بالشام، وعاد إلى مصر ليبلغه خبر هزيمة الجند ومقتل الخليفة المستنصر بالله ونجاة قريبه، فأظهر الحزن للخبر، وبعث إلى الأمير عيسى أن يبعث له بابن عمومة الخليفة المقتول ليخلفه.

*** *** ***

يتهم البعض بيبرس بتدبير مقتل المستنصر من خلال إرساله للتهلكة على رأس عدد قليل من الجند، ليتخلص منه بعد أن نال غرضه من تفويض الخليفة له بالحكم.

ولكن هذا الاتهام يبدو هشًا جدًا، لأن إعلان أمر جليل كإعادة الخلافة هو مما لا يُرجَع فيه، وما دام الخليفة قد مات فإن السلطان ملزم بمبايعة خلف له ـ وهو ما كان بالفعل ـ بالتالي فإن فكرة توظيف المستنصر لغرض ثم إزاحته لا تبدو منطقية. ثم إن بيبرس كان لا بد يدرك واقع أن الخلفاء العباسيين قد صاروا ألعوبة السلاطين، فما الخطر الذي يمثله إذن المستنصر عليه؟

*** *** ***

في كل الأحوال فإن نهاية المستنصر تبقى باعثة على التأمل، فالرجل أفلت من سيوف المغول في العراق وتنقل بين البلاد حتى عاد للعراق، ليُقتَل بسيوف من كان قد فر من أمامهم. أي أنه كان كالهارب من قدره إلى قدره.

*** *** ***

مَخرَج عثماني

في الرابع والعشرين من أغسطس ١٥١٦م، تلقى الجيش المملوكي هزيمته الأخيرة في مَرج دابق ـ قرب حلب ـ وتمزق بين قتلى وجرحى وأسرى كان من بينهم الخليفة العباسي الأخير «المتوكل على الله بن المستمسك» (المتوكل الرابع)، وفي ٢٢ يناير ١٥١٧م هُزِمَت المقاومة المملوكية الأخيرة، التي قادها آخر سلاطين المماليك طومان باي الثاني، أمام جيش الغزاة العثمانيين في «الريدانية» قرب القاهرة، ودخل سليم الأول العثماني العاصمة المصرية معلنًا سقوط الخلافة العباسية.

ونُقِلَ الخليفة ـ الذي كان قد عاد إلى مصر مع السلطان العثماني عند دخول هذا الأخير القاهرة ـ إلى إسطنبول حيث عومل باحترام وعاش في بذخ وترف شديدين، حتى اتُهِمَ عند سليم الأول بأنه قد حمل معه من مصر مبالغ طائلة وثروات كبيرة، هي ما وضع يده عليها من تركات قتلى الأمراء المماليك وأماناتهم، فغضب عليه السلطان وأنقص من دخله. ثم نفاه سنة ١٥٢٠م إلى موقع محصن على مسافة من العاصمة خوفًا من هربه. ثم توفي السلطان سليم وخلفه ابنه سليمان القانوني، الذي سمح للخليفة بالرجوع للعيش بالقاهرة التي توفي بها عام ١٥٣٨م.

ادعى البعض أن السلطان سليم كان قد حصل على تنازل من الخليفة عن منصب الخلافة، ولكن لم يوجد ما يثبت ذلك من مستندات أو وثائق،

فضلاً عن أن المؤرخ المصري ابن إياس والذي كان معاصرًا لتلك الأحداث لم يذكره.

إضافة لذلك فإن سليم الأول كان من قبل دخوله مصر قد خطب لنفسه بالخلافة، وتلقب بـ«ظل الله على الأرض»، لكنه لم يتلق تنازلاً رسميًا عنها، ولم تذكر المصادر العثمانية نفسها ذلك إلا بعد عهده بنحو قرنين ونصف، والمرجح أن انتشارها كان سببه تبرير وصف السلطان العثماني عبد الحميد الأول نفسه في نَص معاهدة «كوجك قاينارجه» مع روسيا بـ«ذاتي السلطانية الموسومة بالعدالة خليفة المسلمين وإمام الموحدين» ليتمكن من التحدث باسم المسلمين مع الجانب الروسي. ولكنه لم يحمل اللقب بشكل رسمي، بطبيعة الحال.

لم يحمل سلاطين بني عثمان لقب الخلافة رسميًا إلا في العام ١٨٧٦م عندما صدر الدستور العثماني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦م-١٩٠٩) والذي نَص صراحةً أن عاصمة الدولة العثمانية هي «مقر الخلافة»، وأن السلطان هو «حامي الدين الإسلامي الذي يتمتع شخصه بحرمة مقدسة»!

منذ ذلك الوقت أصبح السلطان العثماني هو «خليفة المسلمين»، وتعاقب على الخلافة بعد عبد الحميد الثاني كل من محمد رشاد الخامس، ثم محمد وحيد السادس، وأخيرًا عبدالمجيد الثاني، وسط سلسلة من الاضطرابات الداخلية والهزائم الخارجية، التي تتابعت على الدولة التي بدا واضحًا أنها تشهد أيامها الأخيرة.

في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م قامت الجمعية الوطنية التركية بإعلان الجمهورية، وانتخاب مصطفى كمال ـ المعروف بأتاتورك/ أبو الأتراك ـ رئيسًا لها.

كانت النية أولاً هي الإبقاء على نظام الخلافة ـ بشكل شرفي فيما يبدو ـ ولكن ذلك كان يتعارض مع توجهات أتاتورك.

لهذا. ففي الثالث من مارس ١٩٢٤م، أعلن رسميًا إنهاء الخلافة نهائيًا.

* * *

بهذا يكون خيط دم الخلفاء قد انقطع. وإن لم ينقطع ما يثيره في أذهان المشتغلين بالتاريخ من فضول وشغف للتنقيب عمّا وراء الأحداث والوقائع من أسرار، وما بين سطور مدوني تلك الأحداث من معلومات. على أية حال، فإن ما يعطي القراءة والبحث في التاريخ متعتها حقًا هو احتواؤه - التاريخ - على تلك الغوامض والألغاز المستفزة للعقول.

- تم بحمد الله تعالى -

الإسكندرية

الثلاثاء ٢٥ أكتوبر ٢٠١٦م

ـ أهم المصطلحات ذات الصلة:

ـ خليفتي: نسبة إلى «الخليفة»، كما يقال «سلطاني» نسبة إلى السلطان و«مَلَكي» نسبة إلى الملك، وهكذا...

ـ الدوادار: معناها «حامل الدواة»، وهو القائم على سجلات ومراسلات ووثائق الخليفة، وإن كان صاحب هذا المنصب قد حاز في بعض الفترات صلاحيات أوسع.

ـ الأستاذ دار: هو القائم بدار الخليفة ونفقاته الشخصية ومستلزمات معيشته وراحته بكل تفاصيلها.

ـ الوزير: هو منصب استحدثه العباسيون بتأثير من الثقافة الفارسية في الحكم.. وتنقسم الوزارة إلى «وزارة التنفيذ» ـ وشاغلها تقتصر صلاحياته على تنفيذ أوامر الخليفة ـ و«وزارة التفويض» ـ وشاغلها مفوض من الخليفة في إدارة شؤون وزارته.. وقد كان الوزراء تابعين للخلفاء حتى عهد المتوكل، ثم تسلطوا على الخلافة في منافسة على ذلك مع القادة التُرك.

ـ ولي العهد: جرت العادة منذ العصر الأموي على اختيار الخليفة لبعض آل بيته ـ غالبًا من الأبناء أو الإخوة الذكور ـ وأخذ البيعة لهم ليخلفوه بعد موته.. وكان يمكن للخليفة أن يتخذ أكثر من ولي للعهد بالترتيب الذي كان غالبًا ما يخضع للأسبقية العمرية.. وبينما اتخذ الأمويون والعباسيون أولياء العهود من الإخوة أحيانًا أو ربما قدموا الابن الأصغر على الأكبر أحيانًا أخرى، فإن الفاطميين قد التزموا ـ لأسباب مذهبية ـ أن تكون ولاية العهد في الذكر الأكبر للخليفة.

ـ الشيعة: اللفظ يعني «الأتباع» أو «المؤيدون» بالمعنى الدارج، أما مذهبيًا فالشيعة هم من رأوا أن علي بن أبي طالب هو الأحق بالخلافة بعد وفاة الرسول محمد لعدة أسباب منها سابقته للإسلام، واتخاذ محمد له وزيرًا، وقرابته له، والقول المنسوب للنبي بأن عليًا منه بمنزلة هارون من موسى. وقد كان تشيّعهم له أولًا سياسيًا بحتًا ثم تحول إلى تشيُّع مذهبي في العصر الأموي خاصة بعد موقعة كربلاء التي استشهد فيها الحسين بن علي وبعض آل بيته.. واتخذ الشيعة من أبناء وأحفاد علي أئمة لهم فلهذا يقال «الإمامية» أو «الاثنا عشرية» لبعض فئات الشيعة لاعتقادهم في إمامة اثني عشر رجلاً من نسل علي بن أبي طالب.

ـ الشيعة الإسماعيلية (النزارية والمستعلية): بعد وفاة جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، انقسم الشيعة فقال بعضهم بإمامة ابنه موسى الكاظم، وقال آخرون بإمامة ابنه إسماعيل، فهؤلاء الأخارى هم الشيعة الإسماعيلية، ومنهم الفاطميون.

وبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر تدخل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي لإقصاء ابنه الأكبر نزار والتخلص منه وتعيين الابن الأحدث سنًا المستعلي، فانقسم الشيعة الإسماعيلية فنادى بعضهم بإمامة نزار فهم النزارية (ومنهم حاليًا الأغاخانية) وقال آخرون بإمامة المستعلي فهم المستعلية ومنهم الفاطميون منذ عهد المستعلي وحاليًا منهم طائفة «البهرة».

ـ الحشاشون: هم من الشيعة الإسماعيلية النزارية، أسس حركتهم أحد دعاة الفاطميين في فارس والعراق وهو «الحسن بن الصبّاح»، ثم استقطب الأتباع من أهل القرى الجبلية الشيعية بشمال فارس واستطاع احتلال قلعة «آلموت» في تلك المنطقة واتخاذها مقرًا له، وقام أتباعه بوضع أيديهم على عدد من القلاع والجبال ومارسوا منها نشاطهم في الدعوة من ناحية

والاغتيال لخصومهم السياسيين والدينيين من ناحية أخرى. ويقال إن إطلاق اسم «الحشاشين» عليهم هو تعاطيهم مخدر الحشيش قبل تنفيذهم القتل، بينما يقال إن من أطلقه عليهم كان بعض فقهاء السُنّة الذي سخر منهم قائلًا: «إنما تقولون ما يقول الحشاشون إذا غالبت عقولهم». وقد سُمّوا كذلك بـ«الباطنية» لاتخاذهم قاعدة أن «لكل ظاهر باطن» ليمارسوا تأويل القرآن بما يناسب خططهم وأهدافهم.

ـ الفداوية: هم الجناح العسكري للحشاشين، فهم فتية أشداء مدربون على ممارسة الاغتيال، يختارهم «الإمام» أو قادته من بين المتميزون بالشجاعة والإخلاص والذكاء من الأتباع. وقد اشتهروا بالطاعة العمياء لقادتهم وتفانيهم في تنفيذ الأوامر، وعدم اكترائهم للموت في سبيل ذلك، فضلًا عن براعتهم في التخطيط والتنفيذ للمهام، حتى اشتهرت حركة الحشاشين بهم إلى حد أن الأوروبيين خلال فترة الحروب الصليبية قد عرفوهم وحرّفوا لفظ «حشاشين» إلى Assassin بمعنى «من يمارس القتل اغتيالًا» لتدخل الكلمة بمشتقاتها إلى مختلف اللغات الأوروبية.

ـ البريد: في العصر الإسلامي لم يقتصر البريد على «المراسلات» بمعناها الحالي، فديوان البريد كانت قد أوكلت له عدة مهام بعضها مدني بحت كالمراسلات العادية، وبعضها إداري أو رقابي كإبلاغ الأوامر الرسمية وتلقي التقارير عن أعمال الولاة والقادة. وبعضها حربي كمراسلات الجيش مع العاصمة أو مراسلات أفرعه مع بعضها البعض، وهو ما يشبه «سلاح الإشارة» حاليًا، والبعض الآخر منها كان استخباراتي، كالتخابر مع العملاء والجواسيس في أرض العدو أو تلقي تقارير «عيون» الدولة لدى الدول الأخرى.

ـ التُّرك: هم عرق من أصول وسط آسيوية، تنقل عبر العصور حتى بلغ غرب آسيا وأقام بها ممالك ودول اصطدمت مع العرب الفاتحين في العصر الأموي. ثم تتابع دخول الترك في الإسلام حتى إن الناس قد أطلقوا على بعضهم «ترك إيمان» التي خُفِفَت لـ«تركمان»...

ولتميزهم بالقوة والشجاعة وخفة الحركة، اتخذ الخلفاء العباسيون منهم مماليك مسلحين، وشكلوا منهم كتائب وجيوشًا، خاصة في عهد المعتصم بالله. ثم ارتفع شأن هؤلاء المقاتلين التُرك حتى أصبح قادتهم متسلطين على الخلفاء وحاجرين عليهم.

ومن هذا العرق جاء مؤسسو الدول «التركية» مثل دولة السلاجقة في فارس والشام والعراق والأناضول، ودولة المماليك البحرية في مصر والشام، والدولة العثمانية في آسيا الوسطى وأوروبا ثم الشام وسائر المنطقة العربية بعدها، وغيرها...

ـ العراقان: هما «عراق العرب» وهو العراق المعروف حاليًا، و«عراق العجم» وهو أذربيجان وبعض المناطق الجبلية، مثل قزوين وأصفهان والريّ وكرمانشاه بإيران حاليًا.

ـ السلطان: هو أعلى لقب ملكي يمنحه الخليفة لحاكم، وفي الأصل إن السلطان هو من يتبعه عدد من الملوك، وقد جرت العادة ألا يكون للمسلمين سوى سلطان واحد، ولكن تمزق الدول وتصارع أبناء الأسر الحاكمة قد أفقد اللقب قيمته، لكثرة تداوله والتسمي به.

ـ الأتابك: معناها لغةً «أبو الأمراء» أو «أبو الأمير»، وكانت في الأصل لقبًا لبعض العسكريين من التُرك السلاجقة، ممن يتخذ السلطان بعضهم مربيًا لولي عهده ومعينًا له في الحكم إذا ما ورثه قبل سن الرشد. وكان

للأتابكة إقطاعات وولايات، فمع الوقت استقل بعضهم بها في يده وتسلط البعض الآخر على أولياء العهود، فأقاموا لأنفسهم دولًا أشهرها الدولة الزنكية في حلب والموصل.. وفي العصر المملوكي صارت كلمة «أتابك» رتبة عسكرية «أتابك العسكر»، وهو القائد العام الميداني للجيوش أو ما يعادل حاليًا «رئيس هيئة الأركان».

ـ الشحنة: هو لقب لوظيفة استحدثها السلاجقة، وهو قائد الحامية العسكرية المقيمة غالبًا ببغداد لضمان سيطرة السلطان السلجوقي على الخليفة وأعمال الخلافة. ثم أصبح الشحنة هو قائد الحامية العسكرية والشرطية أيًا كان محل عمله الذي يُسَمَّى رسميًا «الشحنكية».

المراجع

١- اتعاظ الحنفا في معرفة الخلفا: المقريزي
٢- محمد رسول الله والذين معه: عبد الحميد جودة السحار
٣- تاريخ الخلفاء الراشدين: د. محمد سهيل طقوش
٤- تاريخ الدولة الأموية: د. محمد سهيل طقوش
٥- تاريخ الدولة العباسية: د. محمد سهيل طقوش
٦- تاريخ الفاطميين: د. محمد سهيل طقوش
٧- تاريخ المسلمين في الأندلس: د. محمد سهيل طقوش
٨- تاريخ السلاجقة: د. محمد سهيل طقوش
٩- تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين: د. محمد سهيل طقوش
١٠- تاريخ المذاهب الإسلامية: الإمام محمد أبو زهرة
١١- الفرق والجماعات الدينية في الوطن العربي: د. سعيد مراد
١٢- الفتوح الإسلامية: هيو كينيدي
١٣- عصر سلاطين المماليك: د. قاسم عبده قاسم
١٤- الدين والتعليم والعلم في العصر العباسي: مجموعة باحثين-جامعة كامبريدج
١٥- السلاجقة: د. محمد عبد العظيم أبو النصر
١٦- تاريخ فاتح العالم: عطا ملك الجويني
١٧- فرسان الإسلام وحروب المماليك: جيمس واترسون
١٨- بلاط الخلفاء: هيو كينيدي
١٩- العثمانيون: د. محمد سهيل طقوش
٢٠- تاريخ الأمم والملوك: الطبري
٢١- الكامل في التاريخ: ابن الأثير
٢٢- أُسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير
٢٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس

٢٤- البداية والنهاية: ابن كثير
٢٥- كتاب الاعتبار: أسامة بن منقذ
٢٦- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي
٢٧- تاريخ الخلفاء: السيوطي
٢٨- حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة: السيوطي
٢٩- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي
٣٠- السلوك لمعرفة دول الملوك: المقريزي
٣١- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزي
٣٢- المقدمة: ابن خلدون
٣٣- كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر: ابن خلدون
٣٤- الأحكام السلطانية والولايات الدينية: الماوردي
٣٥- مسلمون ثوار: د. محمد عمارة
٣٦- مصر المملوكية: د. هاني حمزة
٣٧- الحشيشية: برنارد لويس
٣٨- موسوعة الحروب الصليبية: د. سهيل زكار
٣٩- الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة في زمن الحروب الصليبية: د. محمد عبدالله المقدم
٤٠- دولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان
٤١- معجم البلدان: ياقوت الحموي
٤٢- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية: الأمير شكيب أرسلان
٤٣- نقط العروس في تاريخ الخلفاء: ابن حزم الأندلسي
٤٤- تاريخ الدولة العلية العثمانية: محمد فريد بك
٤٥- تاريخ قريش: د. حسين مؤنس
٤٦- عبقرية الصدّيق: عباس محمود العقاد
٤٧- عبقرية عمر: عباس محمود العقاد
٤٨- عبقرية عثمان: عباس محمود العقاد
٤٩- عبقرية الإمام: عباس محمود العقاد

٥٠- معاوية بن أبي سفيان: عباس محمود العقاد
٥١- أهل بيت النبي: عبد الحميد جودة السحار
٥٢- أبناء أبي بكر الصديق: عبد الحميد جودة السحار
٥٣- موسوعة عظماء حول الرسول: خالد عبد الرحمن العك
٥٤- تيارات الفكر الإسلامي: د. محمد عمارة
٥٥- حدائق الأحزان.. إيران وولاية الفقيه: د. مصطفى اللباد
٥٦- الفاطمية دولة التفاريح والتباريح: جمال بدوي
٥٧- الطغاة والبغاة: جمال بدوي
٥٨- تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان
٥٩- شمس العرب تسطع على الغرب: زيجريد هونكه
٦٠- رجال حول الرسول: خالد محمد خالد
٦١- خلفاء الرسول: خالد محمد خالد
٦٢- الاغتيال السياسي في الإسلام: هادي العلوي
٦٣- تاريخ مصر في العصور الوسطى: ستانلي لين بول
٦٤- الفتنة الكبرى: د. طه حسين
٦٥- حضارة العرب: جوستاف لوبون
٦٦- أشهر الاغتيالات في الإسلام: خالد السعيد
٦٧- ملامح تاريخ المغرب والأندلس: د. حسين مؤنس
٦٨- أطلس الفرق والمذاهب الإسلامية: د. شوقي أبو خليل
٦٩- أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس

المحتويات

دم الخلفاء

من بين أكثر من ١٠٠ خليفة، منذ ميلاد نظام الخلافة، تربعوا على كراسي الحكم في ٤ دول: انتهت عهود نحو ٢٥ منهم بالقتل..

قضى كلٌ منهم إما اغتيالا على حين غرة، أو قتلا في معركة دفاع ضد متمرد، أو إعداما بعد هزيمة من منافس..

وأغلبهم بقي سر مقتله لغزًا حتى يومنا هذا..

بعضهم اشتهر اسمه في كتب التاريخ، لكنَّ أكثرهم لم ينل نفس النصيب من الشهرة..

فعن هؤلاء الذين بايعوا مصارعهم يوم بُويعوا بالخلافة.. عن الذين حين رُفِعوا إلى كراسي الحكم: كانوا كأنما يُرفعون إلى توابيتهم.. عن دم الخلفاء.. نتحدث..



تصوير تامر حسن

وليد فكري، باحث حر في مجال التاريخ، يمارس الكتابة التاريخية منذ عام ٢٠٠٩، ويكتب في عدد من المواقع الصحفية العربية، وله فيها عدد كبير من المقالات في تخصصه. صدر له كتاب "تاريخ شكل تاني" عام ٢٠١٠، "تاريخ في الظل" عام ٢٠١٢، "مصر المجهولة" عام ٢٠١٥، و"دم المماليك" عام ٢٠١٦.